دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة عموم الاوقاف والشؤون الاسلامية بالمملكة المغربية

خاص

بمناسبة الذكرى الثامنة لجلوس صاحب الجلالة على عرش أسلافه الأمجاد.

ممتاز

بدراسات فكرية، وأبحاث تاريخية مغربية، ومقالات شائقة، وقصائد وطنية.

سجل

للعصر الذهبي من تاريخ الدولة العلوية المجيدة.

مجلة تصدرها وزارة
عموم الأوقاف والشؤون
الإسلامية بالمملكة المغربية

دعوة الحق

العدد الرابع
السنة الثانية عشرة
ذو الحجة 1388
مارس 1969
ثمن العدد
درهمان

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

بيانات إدارية

تبعث المقالات بالعنوان التالي :

مجلة « **دعوة الحق** » ـ قسم التحرير ـ وزارة عموم الاوقاف الرباط ـ المغرب . الهاتف 10 ـ 308

الاشتراك العادي عن سنة 20 دراهم ، والشرفي 30 درهما فأكثر .

السنة عشرة اعداد . لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة .

تدفع قيمة الاشتراك في حساب :

مجلة « **دعوة الحق** » رقم الحساب البريدي 55 ـ 485 ـ الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55 à Rabat

او تبعث رأسا في حوالة بالعنوان التالي :

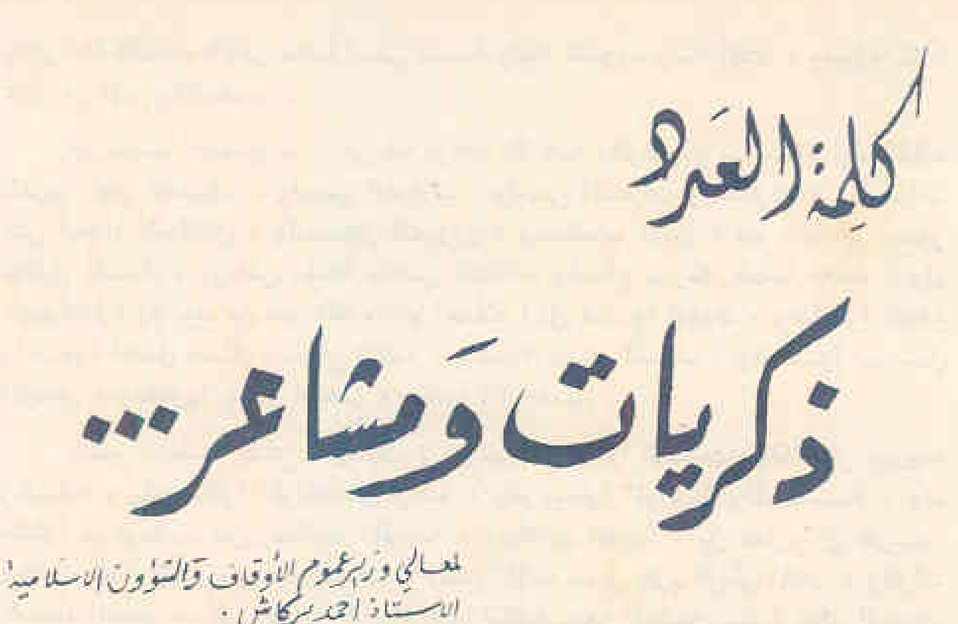
مجلة « **دعوة الحق** » ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم الاوقاف ـ الرباط ـ المغرب .

ترسل المجلة مجانا للمكتبات العامة ، والنوادي والهيئات الوطنية والثقافية والاجتماعية ، وذلك بناء على طلب خاص .

لا تلتزم المجلة برد المقالات التي لم تنشر

المجلة مستعدة لنشر الاعلانات الثقافية .
في كل ما يتعلق بالاعلان يكتب الى :

« **دعوة الحق** » ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم الاوقاف ـ الرباط
تليفون 10-308 ـ 03-327 ـ الرباط



بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه

كلما توالت الايام ، وتتابعت الاعوام ، وطلعت من جديد ذكرى عيد العرش ، الا وتجددت المشاعر ، وتقوت العزائم ، وانبعثت الاماني ، وأوحت بأفكار ملهمة هادية ، وذكريات عزيزة غالية ، لان هذه الذكرى هي في الواقع ذكرى تاريخ موصول، متماسك الحلقات ، كله كفاح ونضال ، وجلاد وصراع ، يجسم — في أجلى صورة — التحام الشعب بالعرش ، وانسجامه مع الجالس عليه ، وتفانيه في حبه والاخلاص لـــه .

وقد اعتاد الشعب المغربي الكريم ، أن يتخذ — في اهتبال عظيم ، وفرح شامل — من يوم عيد العرش عيدا قوميا يقيم فيه احتفالات فخمة ، ومهرجانات وطنية ضخمة ، منتظمة في مواكب شعبية ، وتجمعات وطنية ، تنبسط معها المشاعر ، وتنطلق فيها الحناجر ، وتنغمر القلوب والنفوس في فيض من المرح والبهجة ، والغبطة والانشراح ، هازجة بأغاريد العيد ، وأناشيد الاستقلال الخالص السعيد ، في جو طليق ، مشبع بريا العطر ، وحميا الطرب ، وأريج المحبة والولاء ...

* * *

ولقد أتى على المغرب حين من الدهر ، كان فيه الشعب المغربي — وما يزال — يجد في العرش المغربي ملجا وملاذا لتحقيق الوحدة ، وتوثيق العقدة ، وتأليف القلوب، وجمع الشتات ، كما كان هذا العرش — وما يزال الى أن يرث الله الارض ومن عليها — رمز للحيوية الثائرة ، والوطنية القويمة ، والتضحية المومنة ، والارادة الحكيمة، والاستبسال الشجاع ، في درء الاخطار المهددة للوطن ، ودفع المكاره الكالحة التي ترمي الى عرقلة سيره ، وتعويق حركته ، وشل نشاطه ، مما كان يأخذ بالالباب ، ويثير الدهش والاعجاب .

فمنذ أن ألقى الله مقاليد هذه البلاد في يد الدولة العلوية الامينة ، وقيض لهـا عرشا وطيدا مرفوع القواعد ، ثابت الاس ، شامخ الذرى ، وهي لا تالوا جهدا في آن

يحتل هذا الشعب الوفي مقاما اسنى يسنمه رابية الشرف وقمة المجد ، ويبوؤه مكانا عليا بين الامم والشعوب ...

ان ملوكنا العلويين — سقى الله ثراهم بالرحمة والرضوان — قدموا لهذه البلاد العزيزة أجل الخدمات ، واسمى العوارف ، واسنى المنجزات والمشاريع ، مما ساعد على امتداد السلطان ، واستبحار العمران ، واستتباب الامن ، فلم تشغلهم قصور تطاول السماء ، ورياض مؤنقة تنافس الجنة ، وضياع ممرعة خصبة نامية ، ولم تلههم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة ، بل صدقوا الجهاد ، واخلصوا النية، واحسنوا العمل فسلكوا منهاج الائمة ، ونهجوا طريق السلف ، واتبعوا سبيل المؤمنين ، وتجهزوا بجهاز العصر ، وكانوا لله عابدين ..

نهضوا بالعبء الفادح ، والبلاد في فتوتها ، وقاوموا الاستعمار الكافر في جبروته وطغيانه ، ولم يغفلوا المواظبة والمراقبة ، ولم يهملوا المراجعة والمحاسبة ، ولم يتخلوا — يوما — عن رسالتهم المقدسة ، ومبادئهم الدينية ، بل ساروا في طريق لاحب ، ممتد الافق ، رحب الجنبات ، وقادوا الامة — في حزم الربان الماهر ، والرائد المحنك البصير — الى الدرب القاصد الذي تنكشف معه الحقيقة سافرة كفلق الصبح، فاقروا السلام في الارض ، واحكموا النظام في المجتمع ، فتعاطفت النفوس ، وتكاثفت الجهود ، وتعاونت القوى وتضامنت الامة ، فكانت .. نعم الامة ..

كانوا اذا اشتد الباس ، واربد الافق ، واحمرت الحدق ، وادلهم الخطب ، تقدموا امام الصفوف ، وثبتوا لبوارق السيوف ، وفجروا حماس الشعب ، وعمقوا وعيه بالحكمة والتوجيه ، والهبوا شعوره بالشجاعة والبطولة ضد من ارادوا ان يخدعوه ، ويسيئوا اليه ، ويوقعوا به .. فكانوا مصدر الحرية ، ومنبت العزة والكرامة..

❊ ❊ ❊

وقد وجهوا عنايتهم ورعايتهم للحركة الفكرية والعلمية التي يخصب في ظلها العقل ، وتتفتح الملكات ، وتسمو الانسانية ، واقاموا قواعدها على التشجيع والعون ، والرعاية والتنويه ، فازدهرت الحضارة ، واينعت ثمارها ، وانتشرت الثقافة ، واخصبت مرابعها ، فتفوت المدارك ، وتهذبت العادات ، وأصبح الشعب متآلفا متكالفا ، متماسك البناء ، متضامن الاعضاء يقطع حياته الراضية رافها لا يمسه فيها نصب ولا يمسه فيها لغوب .

❊ ❊ ❊

فاذا احتفلنا في هذا اليوم الاغر الابلج الذي تومض فيه العيون بالغبطة ، وتفيض القلوب بالبشر والسرور ، فانما نحتفل بعرش طالما اسدى لهذه الامة كل خير ، وحقق لها آمالها العذاب ، وبواها مقاما كريما بين الامم والشعوب اصبحت معه حرة الارادة ، مطلقة السيادة ، تواصل سعيها — وهي مومنة — لتحقيق حياة باقية صافية تموت فيها المطامع ، وتفنى الاحقاد ، وتشفى الصدور من الغل والوهن ..!!

اننا نحتفل اليوم بالذكرى الثامنة لجلوس صاحب الجلالة والمهابة سيد البلاد ، ومناط الامل ، ورجاء المستقبل مولانا الحسن الثاني على عرش اسلافه المنعمين الذي أتته الخلافة منقادة ، وكانت معه على قدر في هذا العصر الذي امتاز بالعلم والتقنية ، والسرعة والتسابق ، ويحتاج فيه الى الحزم والعزم ، والارادة والصلابة .. فلا غرو اذا تلفت له الدهر وهو يتعجب من اعماله المثمرة ، ومنجزاته الناجحة . ومشاريعه

الهادفة التي كثر معها العمل ، واشتغلت الايدي ، واستدت السواعد ، وزكا الريع والانتاج ...

لقد وهب الله لهذا الملك الهمام كل مزايا الفضل والنبل ، وحباه بسجايا التوفيق والرشد وعلمه ــ باحسان منه وتوفيق ــ كيف يقود هذا الشعب الكريم الذي يحمل له حبا صادقا ، وقلبا مخلصا ، وولاء مكينا ..

وقد ورث حفظه الله هذه المزايا وتلك السجايا من جلالة والده العظيم المرحوم مولانا محمد الخامس رضي الله عنه ، ومن آبائه الصيد ، واجداده الغر المياميـن الذين ميزهم الله بالجوهر الحر ، فعرفوا بالخلق الصريح ، والراي النجيـح ، واتصفوا بما يرضي الله والرسول ، فآتاهم ما لم يوت احدا مــن العالمين ، فكـان ــ ايده الله ــ في سليم طبعه ، وسمو تواضعه ، وظرف شمائله ــ واسطة العقد النضيد في جيد دولة ملوكنا العلويين الامجاد ..

وبجانب هذه الصفات الحميدة ، والمعاني الانسانية السامية خصه الله بغزارة علم ، وقوة ادراك ، وبعد نظر ، وحدة فطنة ، وسعة أفق ، وصفاء ملكة ، وسديد التوجيه ..

لقد أحيا معاهد العلم ، فنفقت سوقها ، وشجع العلماء ، فازدهـرت أيامـه بالمعارف والعلوم ، وتقدم صفوفهم في سبيل بعث حركة الاصلاح والتجديد ، فوقفوا وراءه صفا واحدا ، ورأيا جامعا ، وعزيمة صادقة ، وجدد أساليب الكتاتيب القرآنية، وأنعش وجودها ، وقوى برامجها ، حتى يبقى حبل هذا الدين موصولا ، وخلافة الله قائمة ، ودستوره نافذا ، فكان موفق المسعى ، مسدد الخطى ، وملهما بالصواب ...

وفي عهده الزاهر عادت المجالس العلمية السلطانية الى غضـارة شبابهـا ، ونضارة بهجتها ، وروعة جلالها ، فاصبحت مجالا رحب الحدود يتبارى حوله أقطاب العلم ، ورجال الفكر ، ودعاة النظر في ميادين العلوم النقلية والعقلية ، والمعارف الحديثة العصرية التي تشمل شؤون الدين ، وعلوم الفلسفة ، وضروب المعرفة ، وثقافة العصر ...

❊ ❊ ❊

مولاي امير المؤمنين ..

من وحي هذه المعاني السامية ، والمشاعر الفياضة المتجددة التي تلهمها ذكرى جلوسكم على عرش أسلافكم المنعمين اصدرت وزارتكم لعموم الاوقاف والشــؤون الاسلامية عددا خاصا من مجلة « دعوة الحق » استقطبت حوله نخبة واعية مــن علماء بلدك ، وطبقة متنورة من أبناء شعبك ، وادباء عصرك لتقدم الى مقامكم العالي بالله هذه الباقة الفواحة من العواطف المشبوبة ، والمشاعر الجياشة نحو العرش ، والجالس عليه ، مصوغة في دراسات تاريخية تسجل جهاد آبائكم الامجاد ، ونضالهم في سبيل الكرامة والعزة ، والمناعة والتحرر ، وسيبقى هذا العدد ــ يا مولاي ــ سجلا خالدا ــ أدامكم الله وابقاكم ــ لادباء عهدك ، وعلما هاديا لعلماء جيلك ، شاهدا على تعلقهم بك ، ووفائهم لك ، وتفانيهم فيك ..

وها هم الآن ، يا مولاي ، وأنتم مطمح بصره ، وحديث امانيه ، يمدون اليك اليد ، ويجددون لك العهد ، ويؤكدون لك الميثاق وهم يبايعونك في المنشط والمكره ، ويدعون لك ولولي عهدك وأسرتك وشعبك في أن يحقق الله على يدك ما تريده لامتك وشعبك من وجود أبدي ، وكمال مطلق .

أحمد بركاش

الدولة العلوية

وعنايتها بالثقافة العامة وبمجالس التفسير والحديث

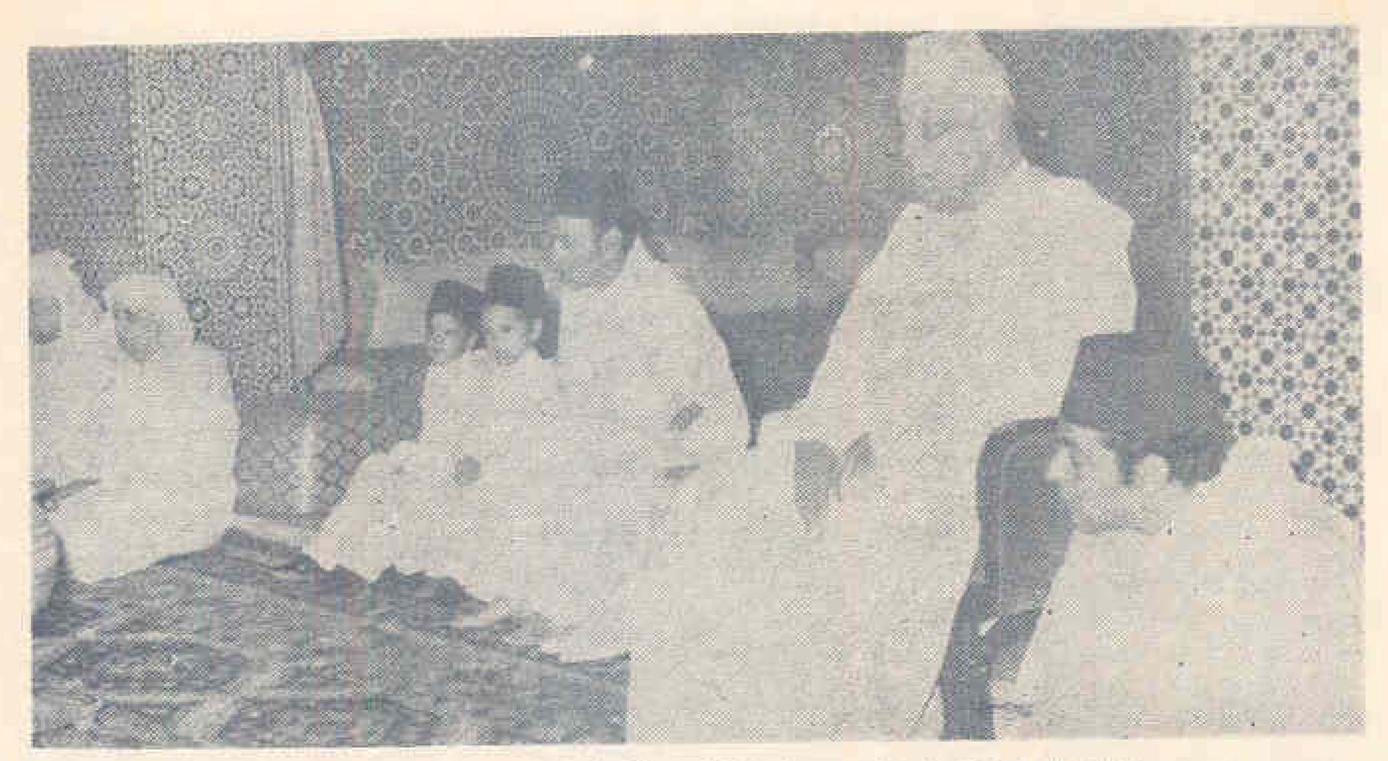
للعميد الأستاذ :
الرحالي الفاروقي

عرف المغرب بعدما نبض الاسلام في ربوعه حضارة مكينة قوامها العقيدة الاسلامية وثقافة متينة عمادها العروبة السامية ، وظل يتقلب في ابهاء هذه الحضارة ويتبوأ المقام اللائق في انحاء هذه الثقافة حتى امكنه ان يشيد معالم المجد الباقية ، ويرفع قواعد العلم الناطقة ، والفضل في ذلك يرجع الى نباهة المغاربة وسلامة فطرتهم ، والى عناية ملوكهم وعلمائهم بمناهج الدراسة وءافاق المعرفة فكان المغرب يأوي طلابا من مختلف الاجناس ، وكانت معاهده في الشمال والجنوب تؤدي الرسالة كاملة ــ تعد الاطر اللازمة لادارة البلاد ، وتعبر عن اغراض اللغة ، واحكام الشريعة ، وتثقف العقول ، وتصلح القلوب ، وتوجه الجمهور .

وكل ذلك كان يحظى بالرعاية من لدن العرش المغربي المستقل ، في عهد الادارسة الذي برز فيه جامع القرويين ، وفي عهد الملثمين الذي اطل فيه جامع اليوسفيين ، وقد لعب هذان الجامعان دورا خطيرا في بناء الحياة المغربية وتوجيهها، وانجبا كثيرا من رجالات العلم وقادات الفكر .

ومن بين العهود البارزة عهد الدولة العلوية التي وجهت عنايتها الى تنظيم التعليم والعلماء ، ومن هذه العناية ما كان من المولى محمد بن عبد الله ، وما كان من المولى محمد الخامس رحمهما الله ، فلقد اظهر المولى محمد بن عبد الله عناية فائقة باصلاح التعليم وتحديد طرقه وكتبه حتى انه رحمه الله هدد كل من يحاول الخروج عن مذهبه ، ولقد اصدر المولى محمد الخامس ظهائره الشريفة التي انقذت التعليم من الفوضى والتدهور ومن التأخر والتقهقر ــ وبوشر ذلك بفاس سنة 1931 ــ وبمراكش سنة 1938 ــ فاستجاب الجامعان لهذا النظام وبذلا في تحقيقه جهودا موفقة ، وحافظا على المصلحة ، وكافحا عند المعركة ، وهاهما يتابعان الخطى بشكل جديد الى ما شاء الله .

ولقد كان من العوائد الرسمية والتقاليد المرعية تنظيم دروس تفسيرية وحديثية تعقد مجالسها بالقصر العامر وبرئاسة الملك في كل من شعبان أو رمضان أو في خصوص شهر رمضان ويحضر هذه المجالس العلماء والاعيان فتسرد الاحاديث بصوت حسن رخيم واذا رأى الملك المناقشة في حديث من الاحاديث المسرودة ادلى كل واحد من العلماء برأيه ونظره ، وقد يمتد الجدال فيجعل الملك حدا لذلك بانهاء المناقشة والرجوع الى متابعة سرد الحديث الشريف وهكذا كان الامر جاريا لدى ملوك المغرب ــ ولم تكن حلقات التفسير والحديث وتدارسهما مقصورة على الملوك والامراء بل كانت تتعداهم احيانا الى خلفائهم، وكبار عمالهم ، واعيان رعاياهم ــ والناس دائما على دين ملوكهم وذلك علاوة على الدروس التي تنعقد بالمعاهد الكبرى والاضرحة الشهيرة حيث كان العلماء يعوضون دروسهم في هذا الظرف الخاص بدروس اخرى كالشمائل النبوية ، والاربعين النووية ، وما شابه ذلك من مصنفات التفسير والحديث .



جلالة العاهل يتفضل بتدشين عملية الكتاتيب القرآنية في يوم 22 اكتوبر 1968

ففي عهد الموحدين كان الاقبال عظيما على الحديث النبوي الشريف وكانت لهم عناية بدراسة متونه وامهاته لتركيز مذهبهم الجديد وتدعيم دعوتهم بنصوص القرءان والحديث وكانوا يعقدون المجالس ويستدعون لها العلماء من الاندلس فهذا محمد بن ابراهيم بن خلف الانصاري المعروف بابن الفخار استدعاه الخليفة يعقوب المنصور كما استدعى الشيخ احمد بن عتيق الذهبي الذى اصبح ابرز عضو من اعضاء هذه المجالس .

وفي عهد المرينيين كان الاهتمام بنشر المعارف وعقد المجالس بالغا اقصاه وكفى ما خلفه ابو الحسن المريني وولده ابو عنان من مدارس ومكاتب علمية ، ومعاهد دينية ونوادي ادبية وهما من افذاذ الادباء وفطاحل العلماء وكان يدعى للمجالس التى تقام بالقصر فى هذا العهد علماء المغرب ، وافريقية ، والاندلس .

وفي عهد السعديين لما بويع الخليفة احمد المنصور الذهبي وخرج من فاس سنة 989 كان العلماء والطلبة يقراون بين يديه الجامع الصحيح للبخاري لما له من العناية بذلك وفى عصره ازدهرت الحركة العلمية واصبحت دراسة الحديث بالقصر الملكي تاخذ صبغتها الرسمية فكان رحمه الله يعقد المجالس لهذا الغرض خلال شهر رمضان المبارك ويستدعي لها العلماء من فاس ومراكش ويشاركهم بحديثه .

وفى ظل الدولة العلوية اغصنت شجرة المعارف واينعت ثمارها ، وتفتحت اكمامها اذ كان لملوكها العظام شغف كبير بالعلم ، ومحبة خاصة فى اهله ، وعناية كبرى بدراسة الكتاب العزيز والسنة النبوية فلقد انشأ المولى الرشيد بن الشريف رحمه الله على الرغم مما كان يعترضه من مشاكل سياسية فى الداخل والخارج ـ مدارس العلم ، وخزائن الكتب ، وحضر مجالس العلماء بنفسه ، وناقشهم فى ادق المسائل ، واهتم اهتماما خاصا بمجلس الشيخ ابي علي اليوسي رحمه الله .

وفى عهد المولى اسماعيل بن الشريف رحمه الله اتسعت دولة المعارف وتعددت مشاربها وتدفقت ينابيعها فعم ذلك البدو والحضر وانتصر حزب العلماء وازدهر ومن مظاهر العناية بكتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ـ انه اقام ختم الامام ابي عبد الله المجاصي تفسير القرءان الكريم بقصره الخاص ، واستدعى العلماء للحضور فى هذا المجلس الفخم وبعد الفراغ من القاء الختم افاض على ضيوفه الاعلام ما لذ وطاب وكان رحمه الله هو الذى

بصب الماء على ايديهم . وهو الذي يتولى توزيع الجوائز عليهم ــ وانه كانت لديه نسخة ممتازة من صحيح البخاري كتب عليها اسم العبيد الذين اتخذهم جيشا وبطانة فقال لهم انا وانتم عبيد لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشريعته المجموعة فى هذا الكتاب فكل ما امر به نفعله وكل ما نهى عنه نتركه فعاهدوه على ذلك وامرهم بالاحتفاظ بهذه النسخة ، وان يحملوها عند ركوبهم، ويقدموها امام حروبهم كتابوت بني اسرائيل ومن ثم سموا عبيد البخاري وجرى عليهم لقب البواخر الى اليوم .

وفى عهد المولى محمد بن عبد الله استكمل العلم نصابه ، وتعاطى الطالب اسبابه فاصلح نظام التعليم واحب العلماء ، وحضهم على نشر العلم ، واستقدمهم لحضرته ، وانتقى منهم طائفة لمجلسه وكان على راسهم الشيخ التاودي بن سودة الذى بلغ من النفوذ اذ ذاك ما لم يبلغه غيره واتخذ رحمه الله لذلك اوقاتا مضبوطة ، وعين من يوثق بعربيته للسرد فى المجالس المعقودة ، واستجلب من المشرق مسانيد الائمة الثلاثة : ابي حنيفة والشافعي واحمد رحمهم الله تعالى وهو اول من وضع قانونا للتعليم بالمغرب ونشر مواده على العموم والخصوص ــ ولم يكتف هذا الملك الهمام بدراسة الحديث وعقد المجالس بل اشتغل بالجمع والتاليف واعتكف على دراسة دواوين الحديث فالف فى الموضوع كتاب الفتوحات الالهية الصغرى ــ وكتاب الفتوحات الالهية الكبرى ــ وكتاب الجامع الصحيح الاسانيد المستخرج من ستة مسانيد .

وكان رحمه الله قد تصدى لقراءة كتاب الشفا للقاضي عياض ، ومذاكرة العلماء فى ابوابه وفصوله ، وانتقد منه ما ورد فى حكم من سب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجل ملاحظاته فى هذا الباب وبعث بها الى علماء مصر يسالهم رايهم فيما كتب فاجابه البعض بما يؤيد وجهة نظره رحمه الله .

وفى عهد السلطان المولى سليمان اشتهرت الحركة العلمية اشتهارا لا مزيد عليه وشجعها رحمه الله بافعاله واقواله فكان يزور العلماء فى منازلهم ومجالسهم ويغدق عليهم الصلات والارزاق ، ويواسي الطلاب من كل الآفاق، ويحضهم على تعاطي العلم ونشره بالتدريس والتاليف فى مختلف الفنون وعلى الاخص علم القراءات والحديث اقتداء بابيه وسلفه الصالح حتى تنافس الناس فى عهده فى اقتناء العلوم واكتساب المعارف. وكانت المجالس الحديثية فى ايامه من افخم المجالس وابعدها اثرا اذ كان رحمه الله قد انتقى لها طائفة من فحول العلماء والمحدثين ، وكان الملك يشارك فيها بغزارة علمه وحسن ملكته ، وممن حضر هذه المجالس الشيخ محمد ابو راس الوهراني واشاد بمجلس الشيخ الطيب بن كيران رحمه الله .

ومن اعتنائه رحمه الله بالسنة النبوية انه لما وصله خبر النسخة الفريدة من صحيح البخاري بخط الحافظ الصدفي التى عثر عليها بطرابلس الغرب الشيخ محمد بن عبد السلام الناصري وجه الى صاحبها الطرابلسي الف ريال ليبعثها اليه فاجابه بانه سيقدمها الى حضرته بمجرد انتهاء الفتنة بين اتراك تونس والجزائر ــ وقد كتب رحمه الله رسالته المشهورة التى حذر فيها الناس من الخروج عن السنة والتغالي فى البدعة ــ وخطبته الجليلة التى كان يخطب بها الخطباء يوم الجمعة مما دل على جلالته فى العلم وقوته فى الدين .

وفى عهد المولى عبد الرحمان بن هشام شارك فى المجالس الحديثية كل من العلامة محمد بن الطاهر العلوي الحسني المراكشي ، والعلامة التهامي بن حماد ابن عبد الرحمان المطيري المكناسي ، والعلامة عبد القادر بن احمد الكوهن والعلامة العباس بن محمد بن كيران قاضي مكناس ، والعلامة المهدي بن سودة ، وحضر المجلس من القطر الجزائري العلامة عبد القادر بن عبد الله المشرفي المعسكري ــ وكان رحمه الله كثيرا ما يحضر الدروس الحديثية التى تنعقد بالمساجد الكبرى كدرس العلامة احمد بن محمد بن الطاهر الازدي المراكشي الذى كان يدرس صحيح الامام البخاري بالضريح الغزواني .

ومما اشتهر به المولى محمد بن عبد الرحمان اجلاله للحديث الشريف واهتمامه بكتبه ودواوينه ــ من ذلك انه استعار من خزانة القرويين نسخة البخاري المعروفة بالشيخة التى كتبها ابو عمران موسى بن سعادة وقراها ستين مرة على شيخه الصدفي ولما كانت هذه النسخة الجليلة ينقصها الجزء الاول امر رحمه الله بنسخ الجزء الاول من الصحيح وكلف واحدا من ابرع الخطاطين بذلك واصدر ظهيرا فى الموضوع نسخ فى الورقة الاولى من الجزء الاول بتاريخ 1288 مع نص الوثيقة العدلية التى تشهد بذلك ، وظلت هذه النسخة محل اجلال واكبار فى عهد هذا السلطان وفى عهد ولده المولى الحسن من بعده فكانا يصاحبانها



صاحب السمو الملكي الامير الجليل سيدي محمد واخته صاحبة السمو للا مريم يرتلان كتاب الله مع اطفال حي السويسي في الكتاب القرآني بمسجد كراكشو

في اسفارهما واقامتهما واتخذا لها صندوقا ثمينا مزخرفا ومغشى تحمله دابة خاصة تكون امام محفة السلطان في جميع اسفاره .

وفي عهد المولى الحسن بن محمد بن عبد الرحمن رحمهم الله استمرت هذه المجالس الحديثية وحضرها العلامة المهدي بن سودة الذي كان يحضرها في عهد ابيه وجده ــ والعلامة احمد بن سودة المتوفى سنة 1321 .

ومن ولع هذا السلطان بالحديث والسيرة النبوية ــ انه انتسخ كتاب الذخيرة للشرقاوي واضافه الى خزانته بفاس ــ وانه لما بنى قصره بالرباط كان اول حفلة اقيمت به هي حفلة قراءة صحيح البخاري بمحضر العلماء والوزراء واشياء الوزراء .

وفي عهد المولى عبد العزيز بن المولى الحسن رحمه الله حضر المجالس الحديثية احمد بن الطالب بن سودة الذي كان يحضرها في عهد السلطان مولاي الحسن، ولما توقفت هذه المجالس على عهد وزارة احمد بن موسى تصدى الشيخ المذكور لدراسة الحديث بفاس كما كان يفعل في المجلس الملكي .

وعند ما بويع المولى عبد الحفيظ رحمه الله استانف دراسة الحديث بمجالس القصر وكان من بين الذين شاركوا فيها العلامة احمد بن الخياط الزكاري المتوفى سنة 1343 والحافظ ابو شعيب بن عبد الرحمان الدكالي زعيم السلفية المتوفى سنة 1356 ، والعلامة السيد المكي البطاوري ، والعلامة الحاج علي عواد السلاوي ، وعدد عديد من العلماء، ومن مزيد عنايته بالحديث الشريف انه انشا قراءة صحيح البخاري وشفاء القاضي عياض بالضريح الادريسي شروق كل يوم وعين لذلك الجلة من علماء عصره كالقاضي عبد السلام الهواري ، والقاضي محمد المدغري العلوي ، والعلامة جعفر الكتاني ، والعلامة احمد بن الخياط ، والعلامة محمد القادري ، والعلامة العباس التازي ، والعلامة عبد الرحمان بن القرشي ، والعلامة احمد بن الجيلالي الامغاري .

وعندما نشات المطبعة بفاس اصدر امره الكريم بتقديم طبع كتب الحديث فطبع منها حواشي الشيخ التاودي وابن زكري على البخاري وكان قد اخذ في طبع مشارق الانوار لعياض ولكن حالت الظروف دون

اتمامه ـ وطبع بمصر شرح الابي والسنوسي على صحيح مسلم ـ والمنتقى للباجي على الموطا ـ والروض الانف للسهيلي ـ وكتاب الاصابة لابن حجر مع الاستيعاب لابن عبد البر .

وفي عهد المولى يوسف رحمه الله شارك في هذه المجالس الحديثية كل من الشيخ ابي شعيب الدكالي ، والعلامة عبد الرحمان بن القرشي وغيرهما من العلماء وكان رحمه الله قد شرع في قراءة كتاب جده سيدي محمد بن عبد الله بمسجد قصره بالرباط مع العلماء الذين يحضرون مجالسه في شهر رمضان .

وفي عهد المولى محمد بن يوسف رحمه الله كانت هذه المجالس قائمة في شهر رمضان ويحضرها كبار العلماء كالشيخ المدني بن الحسني والسيد محمد ابن العربي العلوي والسيد محمد الحجوي الثعالبي وغيرهم من العلماء ، ولا ننسى ان المولى محمد الخامس رحمه الله قد قدم خدمات جليلة في ميدان المعرفة الاسلامية ، وفي ميدان المعرفة العصرية وانه اسس مدارس ومعاهد عديدة لتربية الجيل الصاعد وتعليمه، وانه ادخل نظاما على التعليم بجامع القرويين وابن يوسف واخيرا سجل تحرير هذه الديار من عنت الاستكبار وسيطرة الاستعمار والعاقبة للتقوى وللاخرة خير وابقى .

وعندما ءالت الخلافة الى الملك الشاب والخلف البار امير المومنين جلالة الحسن الثاني ، وهو يلاقي عصرا تفتحت فيه ءافاق الافكار والملكات ، وتنبهت التقنية واجهزة الاعلام والمواصلات ، وتحركت صواريخ التجاوب في فضاء الكائنات .

عندما ءالت اليه الخلافة وكانت معه على قدر في هذا العصر بالذات اضفى على هذه المجالس حلة بيضاء ، وطبعها بطابع خاص ، وخرج بها من طور الى طور ومن اسلوب الى اسلوب حتى اصبحت مظهرا من مظاهر الحداثة ، ومعرضا من معارض الحضارة ومجالا يربط بين الدعوة والثقافة .

وقد عودتنا هذه الدروس ـ أن يتوجها درس جميل مسار فاسدت حضارتها وازدادت نضارتها ـ وان يترجمها خير الشهور شهر الله رمضان ـ فلقد كان روح القدس عليه السلام ياتي النبي صلى الله عليه وسلم في خصوص هذا الشهر فيدارسه القرءان وموسم رمضان المعظم مناسبة للدراسات والمضاعفات ومعلم للخير ومظنة للنهوض بالمكارم .

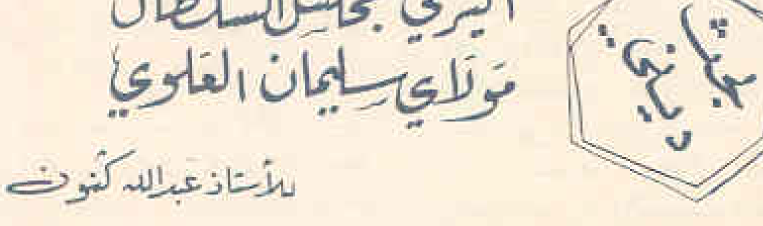
ولقد كان نبي المسلمين صلى الله عليه وسلم يتخول اصحابه بالموعظة ولا يكثر عليهم خشية الملل والسآمة ـ ولامير المومنين رعاه الله فراسة صادقة والمعية فائقة وثقافة واسعة ومن شان ذلك ان يوحي بصواب الراي وسداد النظر كما ان له اعزه الله كثيرا من الحسنات والآيات البينات ـ اهمها رعاية مدارس القراءات بمختلف نواحي المغرب ، ومراقبة اعمالها ، ومواساة رجالها ، والحرص على تسجيل نتائجها ـ وتاسيس دار الحديث الحسنية واحاطتها بالعناية في كل جانب من جوانبها حتى عادت ءاثارها تتراءى في الخارج ، ومقدماتها تتلاقى بالنتائج ـ واحياء سلسلة من كتب التفسير والحديث التي نامت زمنا غير قليل في رفوف الخزائن وبيوت الضنائن ـ الى غير ذلك من الاهداف والغايات السامية التي عالجها حفظه الله وبارك في هذه الدولة التي قامت على هدى من الله وتقوى ، ونهضت بحياة الدين والدنيا .

ما احسن الدين والدنيا اذا اجتمعا
واقبح الكفر والافلاس في الرجل

مراكش ـ الرحالي الفاروق

قال في الاسناد : هل تذكر أم لا ؟

تاريخ



أثر في مجلس السلطان مولاي سليمان العلوي

للأستاذ عبد الله كنون

سبق لي ان كتبت في عناية السلطان العالم مولاي سليمان بن محمد بن عبد الله الشريف العلوي بعلم التفسير ومباحثه ، وما كان له من اهتمام بتحقيق المشاكل التى تتضمنها بعض التفاسير في مواضع معينة ، وخاصة منها ما يتعلق بمطالب العقيدة والايمان ، والممت ببعض كتاباته في ذلك ، منبها على دقة نظره وبعد غوره في استكناه الحقائق ، وادراك ما خفي على اقطاب المفسرين من معاني كلام الله الحكيم ، وتاويل الآيات الكريمة بحسب ما تعطيه قواعد العربية واسرار البلاغة ، مما لا يملك كبار علماء عصره الا موافقتهم عليه واظهار اعجابهم به ، حين عرضه عليهم .

ولا شك ان ذلك مما يعد في مفاخر الدولة العلوية ، بل في مفاخر بلادنا المغربية ، التي تستظهر بعلماء من طبقة الملوك ، كما كان ذلك في الصدر الاول من تاريخ الاسلام ، وكما نجد في تاريخ بعض بلاد اوروبا ولاسيما في عصر نهضتها .

وفي هذه الكلمة اتعرض الى عناية هذا السلطان بعلم الحديث ، ومجالسه التى كان يعقدها حضرا وسفرا ، ويشارك فيها نخبة من رجال العلم والدين ، فيتدارسون فقه الحديث ، ويستنبطون منه المسائل ، ويبدون ءاراءهم في مختلف مشاكله ، ويدلي السلطان كذلك برايه ، واذا كانت المسالة متشعبة بحيث تقتضي التنزل لها والتوسع فيها ، امر ببحثها وتخصيصها بالتاليف ، وربما تصدى لها هو نفسه ، وعندنا تاليف له في بعض المسائل التى نزلت بمجلسه الحديثي . وذكر في فهرس الفهارس ان له حواشي على الموطا وشرحها للزرقاني .

اما ما امر علماء وقته بالتاليف فيه من مسائل الحديث فكثير ، ومن اشهره شرح الاربعين النووية للعلماء الاربعة أحمد بن التاودي بن سودة ، وعبد القادر بن شقرون ، ومحمد بنيس ، والطيب بن كيران ، وهذا الشرح مطبوع طبع حجر بفاس .

ومن اللطائف التى جرت بمجلس حديثه انه عطس والقارىء يقرا قول النبي (ص) : (يرحمك الله) من حديث البخاري : اذا عطس احدكم فليقل : الحمد لله ، وليقل له اخوه : يرحمك الله .. فقال في ذلك الشيخ حمدون بن الحاج وكان حاضرا :

عطست ، وقاري الحديث يقول :
(يرحمك الله) قول الرسول
فكان الرسول المشمت ، اذ
عطست ، وذلك اعظم سول

ونخلص الى الموضوع الذى عنونا به هذا المقال ، وهو قال في الاسناد هل تذكر وان كانت محذوفة من الاسناد بين صيغ التحمل ، مثل حدثنا واخبرنا ، فيقول القارىء : حدثنا فلان قال حدثنا فلان وان كان السند خاليا منها كما هو الغالب الاعم ، اذ انما يكتب حدثنا فلان حدثنا فلان الى ءاخر السند ، ام لا تذكر ؟ .

وقد اثيرت هذه المسالة في مجلس السلطان بمراكش ، عند حضور الشيخ محمد بن الولي الصالح ابي العباس احمد الشرادي ، وكانت الزاوية الشرادية ما تزال في اوج نشاطها ، ولاهلها شفوف كبير . فلما حضر محمد المذكور مجلس السلطان احتفل به اعظم احتفال ، لاسيما وهو يعد من مشائخ السلطان ، وما ان جلس واستمع الى قارىء المجلس ، وهو يروي الاحاديث المسندة من غير ان يفصل بين صيغ الاسانيد بكلمة قال ، حتى ابدى ملاحظته التي اخذت غير قليل من مناقشة العلماء الحاضرين .

ثم ابيرت المسالة بعد ذلك بمجلس السلطان فى مكناس من طرف احد اعلامها ، ولما حل بفاس، كلف بعض علمائها بالكتابة فى الموضوع ؛ فكان ممن كتب العلامة الشيخ الطيب بن كيران ؛ فحرر رسالة انفصل فيها على ان ذكر قال فى السند اذا كانت محذوفة غير لازم .. وهذه الرسالة كنا نشرناها فى مجلة لسان الدين قبل عدة سنوات .

ويظهر ان غيره ايضا قد كتب فى ذلك ، كما يفهم من رسالة صغيرة للشيخ العلامة ابي الفيض حمدون بن الحاج السلمي ، قال انه كتبها باذن السلطان تلخيصا لما رفعه اليه العلماء المكلفون بالكتابة فى المسالة . ولما كانت رسالة الشيخ حمدون قد ذكرت ظروف القضية وابن ابيرت المسالة اولا ؛ ومن اثارها ، ثم تضمنت خلاصات كتابات العلماء فيها ؛ فاننا وان سبق ان نشرناها فى مجلة لسان الدين كذلك، راينا ان نعيد نشرها في مجلة دعوة الحق ؛ مع هذه الكلمة التي جعلناها كمقدمة لها ؛ افادة لطلاب الحديث ، واشادة بما كانت عليه المجالس الحديثية السلطانية فى دولتنا العلوية الشريفة ــ وما تزال والحمد لله ــ من تفنن وابداع ؛ مع التنبيه على اسهام السلطان برايه فى المسالة ، اذ نبه على التناقض الواقع فى كلام من قال : ان حذف القول جائز ، وترك ذكر قال فى السند خطا، كما المعت اليه الرسالة ، ونوه به كاتبها فى ابيات شعرية ، من نظمه على ما نرجح وان لم ينسبها الى نفسه .

وهذه هي الرسالة بنصها الكامل ، كما توجد ضمن مجموع من مخطوطات الخزانة الكنونية بطنجة :

قال في الاسناد

رسالة للعلامة ابي الفيض حمدون بن الحاج السلمي رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وءاله وصحبه وسلم

الحمد لله الذى نزل احسن الحديث فى لباس الايجاز الكثير نفعه، وخص هذه الامة بشرف الاسناد الاثير رفعه ، وصلى الله على سيدنا محمد المبعوث بجامع الكلم ، صلاة تعصمنا من الخطا فى القول وتشرق لنا كل مظلم .

وبعد لما ان طلع غرة الجبين ، وفجر المعدن المستبين ، وسحاب الندى الذى لا ينقطع ولا يبين ، وطالع النصر العزيز والفتح المبين ، ربيع الزمان ، وظل الامن والامان ، وسعد الاسلام والايمان ، امير المومنين مولانا سليمان ، ادام الله طلوع بدره الكامل ، وهذا دعاء للبرية شامل، الى البلدة الغراء، مراكش الحمراء، والقت عصاها ، وانقاد اعصاها ، ونعم لساكنها بطلعته البال ، وانقشعت عنها سحائب النكال ، وانما حركة الاقبال ، زادت فزاد موجب الاشكال، تاق ابقى الله به ثغور السيادة مفترة ، ورياض السيادة يانعة مخضرة ، الى ما عليه انتشا ، وبه لا بالصبوح والغبوق انتشا . وهو اقتناء لطائف العلوم ، واجتناء قطائف الفهوم ، سيما ما اتخذه نديمه ، لا كاتخاذه خديمه ، وظهر فيه ارتباطه واغتباطه ، وبهر فيه بحثه واستنباطه ، وهو حديث جده عين الوجود ، وزهرة كل موجود ، الذى من حديثه انشقت الاسرار ، وانفلقت الانوار ، وفى سماء الفاظه ارتقت شموس الحقائق وسرت بدور الرقائق ، وحياض عبارته بفيض الشريعة متدفقة ، ورياض اشاراته بزهر الحقيقة متفتقة ، صلى الله عليه ، صلاة تليق به منه اليه .

وبينما نحن بقبة السويرة كواكب ، تزاحم ذوات الافلاك بالمناكب ، نقرا على الحضرة المولوية : مسند الامام احمد رضي الله عنه وامده بخير ما امد ، اذ طلع علينا العلامة الذى نسل (1) له الادب ، من كل حدب ، المرابط ابو عبد الله سيدي محمد بن القطب سيدي ابي العباس الشرادي ، افاض الله علينا من مدده البادي ، للحاضر والبادي ، وجلس جلوس انبساط ، كاد يهتز به البساط ، واذ عاد اليه جمعه ، واصغى لما تقول سمعه ، قال لابد من التلفظ بقال بين رجال الاسناد ، وان لم يلفظ بها القلم، وكان له استناد لما هو غير مسلم، فنازعناه بما تقتضيه القواعد العربية، وساعفناه بحرمة المجلس والنفس ابية ، ثم عاد المنصور بالله ابقى الله به ظل الامان على الانام ممدودا ، وسد ياجوج وما جوج الفتنة مسدودا . الى مكناسة الزيتون ، عود (2) السحاب الهتون ، وعاد لاقامة

(1) بالاصل : نسال
(2) بالاصل : عدد

درسه ، وحضر مجلسه الذى هو مقذف الفقهاء، وموقف النبهاء ، الفقيه النبيه المحدث السيد محمد ابن المهدي وكل فى ذلك المجلس لما عنده من الطرائف يهدي، فقال تلك المقالة السابقة للقاريء اذ ذاك بحضرة مولانا المنصور . صاحبنا الدراكة النجيب ابي عبد الله سيدي محمد ابن منصور ، فابى ذلك ودافعه ، وتجاذبا باطراف المنازعة . ثم اتى خلد الله ملكه ، مزيلا بنوره كل حلكة ، مدينة فاس ، الطيبة الانفاس ، فبعث لفقهاء رشحهم للجواب ، وتمييز الخطا من الصواب . بما نصه ، هل يجوز للقاريء للحديث ان يذكر قال فى كل حدثنا المحذوفة للاختصار كتابة ام لا. ام فى ذلك خلاف ، ومن نص على الذكر ومن خلى عدمه ، فزفوا اليه عرائسهم ، واهدوا اليه نفائسهم ، فامرني دام امره السعيد ، ورايه الموفق السديد ، ان اقتطف فوائدهم المنتشرة ، والتقط فرائدهم المنتثرة ، فامتثلت الامر المطاع ، ءاتيا بالمقدور المستطاع .

ومحصل ما هنالك وازيد ، وملخص ذلك وافيد ، ان اول من ابتكر تفصيل هذه المسألة الامام الحافظ تقي الدين ابو عمرو عثمان الشهرزوري الشهير بابن الصلاح فى كتابه علوم الحديث الذى لخصه الامام الحافظ ابو الفضل عبد الرحيم بن الحسين زين الدين العراقي فى الفيته قال ابن الصلاح فى كتابه : «جرت العادة بحذف قال ونحوه فيما بين رجال الاسناد خطأ ، ولابد من ذكره حال القراءة لفظا ومما قد يغفل عنه من ذلك ما اذا كان فى اثناء الاسناد قريء على فلان اخبرك فلان فينبغي للقاريء ان يقول فيه قيل له اخبرك فلان ووقع فى بعض ذلك قريء على فلان ثنا فلان ، فهذا يذكر فيه قال فيقال قريء على فلان قال حدثنا فلان وقد جاء مصرحا به خطأ هكذا فى بعض ما رويناه واذا تكررت كلمة قال كما فى قوله فى صحيح البخاري حدثنا صالح بن حيان قال قال عامر الشعبي حذفوا احداهما فى الخط وعلى القاريء أن يلفظ بهما جميعا والله أعلم (هـ) .» وقال العراقي فى الفيته :

قلت ورمز قال اسنادا يرد
قافا وقال الشيخ حذفها عهد
خطا ولابد من النطق كذا
قيل له وينبغي النطق بذا

قال فى شرحه اثناء ما تقدم عن ابن الصلاح وهو مراده بالشيخ فى النظم وقد سئل ابن الصلاح فى فتاويه عن ترك القاريء قال : فقال هذا خطا من فاعله قال والاظهر انه لا يبطل به السماع لان حذف القول جائز اختصارا وقد جاء به القرءان العظيم وكذا قال النووي فى التقريب والتمييز : تركها خطأ والظاهر صحة السماع هـ) والمراد بالسماع سماع الراوي اسقطت بعده من الذى اسقطت قبله وقوله لان حذف القول الخ . . قال فى المغنى بعد ذكر امثلة من حذف الفعل واكثر من ذلك كله حذف القول نحو « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم » اي يقولون سلام عليكم حتى قال ابو علي حذف القول من حديث البحر قل ولا حرج هـ) .

وكتب مولانا المنصور على هذا المحل ما معناه : بين قولهم حذف القول جائز اختصارا وقد جاء به القرءان العظيم ، وقولهم وتركها خطا تناقض ، فلله ما ادق فهمه واغزر علمه .

متى جال فى امر خفي سبيله
على اهل عرفان فنهجه ظاهر
متى غرست بمناه افنان احرف
فلا ذهن الا وهو نحوه طائر
به اليوم افلاك العلوم زواهر
ومن بحره الفياض تجبى جواهر
ولفظه فى نحر القصائر سائر
عقودا ولم تشعر بذلك القصائر
اليه والا لا تهز المنابر
وفيه والا لا تعز المحابر

ثم قال فى الشرح المذكور وقد كان بعض من لقيته من ائمة العربية ينكر اشتراط المحدثين التلفظ بقال فى اثناء الاسناد وهو العلامة شهاب الدين عبد الطيف بن المرحل هو بكسر الحاء لانه كان يبيع الرحال فيرحل المشتري اي يناوله الرحال المشتراة وهو من اهل مصر من اشياخ ابن هشام صاحب المغنى وغيره وقد اكثر الثناء عليه ، قال فى الشرح وما ادري ما وجه انكاره ، لذلك لان الاصل الفصل بين كلام المتكلمين للتمييز بينهما وحيث لم يفصل فهو (1) مضمر والمضمر خلاف الاصل)هـ). قال السخاوي: هذا التعليل لا يقتضي اشتراط التلفظ . وقال الشيخ النظار ابو عبد الله القصار وجه انكاره وجيه وهو ان ما لم يكتب ولم يرمز له لا يقرأ وان حذفه للعلم به جائز فالصواب ما قاله عبد اللطيف وارتضى كلام القصار هذا ، الائمة بعده ، واطلعوا فى

(1) فى الاصل : بهو

سماء التحقيق سعده ، كيف والمقدرات فى كتاب الله المحكم ، وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم ، وكلام من يستشهد بكلامه ممن تقدم ، اكثر من ان يضبطها القلم ، ولم يقل احد ممن تقدم وتاخر ، لابد من النطق بذلك المقدر ، ولا مرية ان تاليف اهل الحديث ، فى القديم والحديث ، فى ذلك المضمار جارية ، وعلى ذلك الاساس بانية ، ولقد جلسنا فى هذه الاعصار ، فى مجامع القرى والامصار ، والقراء لا تتلفظ فى قال فى الاسناد بين يديهم ، ولا يامرونهم بذكرها ولا ينكرون عليهم ، ولو كان يفعله السلف ، لفعله الخلف ، بل لا يجوز النطق بالمقدرات فى كلام الله عز وجل وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم على انه منه .

وقد اختلف فى مقدرات القرءان هل هي منه حتى يتطلق عليها كلام الله ام لا ، قال المحققون الحق ان معانيها مما يدل عليه لفظ الكتاب ، التزاما للزومها فى تعارف اللسان فهي من المعاني القرءانية ، واما الفاظها فليست منه لانها معدومة الى ءاخر كلامهم ، فتبين ان فى المسالة قولين وان لا معول على الاول ، وهل عند ربع دارس من معول ؟ وان الثاني عليه تعقد الخناصر ، اذ قد قام عليه ، كم من دليل ناصر .

ثم تقول حدث واخبر وانبأ افعال متعدية الى مفعولين الثاني مصرح او مجرور بالباء كما فى القاموس وغيره (من انباك هذا ، انبئهم باسمائهم ، فلما انباهم باسمائهم) . وقد تضمن الثلاثة معنى اعلم فتعدى الى ثلاثة كما فى الخلاصة فقول البخاري مثلا حدثنا ابو اليمن قال اخبرنا شعيب الاظهر فيه انه نزل الفعل بالنسبة الى المفعول الثاني منزلة اللازم والمعنى حصل لنا من ابي اليمن تحديث وقال اخبرنا عطف بيان لجملة حدثنا قبله او بدل منها بدل كل ، وتغاير البدل والمبدل منه بالتفصيل والاجمال ، او مستانفة فى جواب سؤال مقدر واذا حذفت قال اختصارا فى المقال لقيام القرينة وهي دلالة الحال البينة فالاعراب عند الحذف ، كالاعراب عند الذكر حرفا بحرف ، وهذا ءاخر ما اوردنا ، وبتمامه تم ما اردنا ، وعلى المولى ان يحليه بالقبول التام ، وصلى الله على لبنة التمام ، ومسك الختام ، وكتبه حمدون ابن الحاج لطف الله به ءامين .

طنجة ـ عبد الله كنون



لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم!

للعميد : التهامي الوزاني

بمناسبة ذكرى الاعياد المجيدة يطيب ان تقف الامة قليلا لتراجع صفحات امجادها وتتذكر ماضيها، وتضبط حاضرها ، لتتقدم الى المستقبل بماضيها وحاضرها :

وانما المرء حديث بعده
فكن حديثا حسنا لمن وعى

ولكل امة قطاعات مخصصة لنشاطها ، ولن يستقيم قطاع واحد الا باستقامة القطاعات كلها . وكما ان الفرد المومن كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر البدن بالسهر والحمى ، فكذلك الجماعة اذا اختل ركن من اركانها بطلت صلاتها ، او غدت مسوفة عليها ان يقضي باقي ركعاتها وسجداتها ، بزيادة غرم سجدتي السهو .

ان الناحية التى تستثيرها ذكرى الاعياد المجيدة فى هذا القطر المغربي العزيز ؛ هي ذكرى القيادة المتينة الصالحة ، التى صمدت فى وجه التاريخ البشري صمود الابطال ، يوم تنادت الامم الاستعمارية بشعار تمزيق وحدته والذهاب بكيانه والحاقه بعاد الاولى وثمود . لكن القادة الامجاد ، وربائب الشهامة من ذرية الحسن الداخل الشريف العلوي جابهت الموقف وهي عزلاء من السلاح الملائم للعصر ، مجردة من تاييد الراي العام الدولي ، كل سندها قلوب لا تعرف الهلع ، وهمة لم تذق الجزع ، والواثقة بان المستقبل لها باذن الله ، ولو كره الكافرون .

وكان السلطان العظيم مولاي اسماعيل الكبير رضي الله عنه ، يبالغ فى البناء والتشييد ، مدرجا فى حساباته ما يكفي لمقاومة ايدي الفساد والتخريب . فليخرب المخربون ما شاؤوا ، فان المجد المغربي لن يتاثر الا قليلا ، لانه يطبق الخطة الاسلامية ، التى تعمل فى تعاليمها من القوة والجدية والصلابة ما يكفي لمغالبة العناصر المخربة ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . وكان مولاي اسماعيل يبني للخلود بروح طامحة للخلود، مطمئنة الى انها تسير الى الخلود ؛ فكانت مشيداته نابعة من قلبه وعقله ؛ فكما بنى الحصون والقصور والقصبات والاسوار ، كذلك بنى اسس سياسة الدولة : فاسس الجيوش ودربها على ان تربط حياتها وبقاءها بعظمة المغرب وسلامته ، بحيث لو تقلص ظل السيادة المغربية اندثرت بتقلصه وجوه حياة «البواخرة» والمغافرة واسود بلاد الريف .

لقد وقف التاريخ بمولاي اسماعيل موقفا صعبا ، فوضعه فى قمة الثلاثة الملوك المؤسسين للدولة العلوية الجديدة ، بعد ان ابتلعت الاحداث مجهودات الملكين الاسدين المنصورين السعديين مولاي عبد الملك وشقيقه مولاي احمد المنصور الذهبي رضي الله عنهما ، فقد ذهبت بمجهوداتهما سفاهات المامون وعبد الله واشياعهما من شياطين المنافقين والمستعمرين . وانما وجد مولاي اسماعيل من المغرب حطاما بالية ، فاحرقها ليخلق من رمادها دولة محترمة عاتية . وجعل رمز تحطيم مظاهر الميوعة هدم « قصر البديع »

الذي كانت منه تصدر اوامر ضد صالح البلاد. ولم يكن للشبل ذنب سوى انه كان يصادر الحريات ؛ ويقضي على المواهب التي تحمل عناصر القوة والحياة . وكان البديع معتصم القيادة العليا لتفتيت الوحدة ؛ وادخال عناصر الوهن والضعف والحيرة . ولن نتساهل حتى مع مولاي زيدان ؛ فقد لان حتى اوهن المغرب واطمع البرتغاليين في ابتلاع البلاد ؛ لولا بقية بقيت في ظلال الزوايا وبيوت الاشراف ؛ وعلى رأسهم اسماء مولانا محمد ومولانا رشيد ومولانا اسماعيل ؛ وانما تربع عرش المغرب حقيقة مولانا اسماعيل ؛ فكان المؤسس الحقيقي لهذا البيت المالك . ولكن التاريخ لا يكتفي بتأسيس رجل واحد ؛ فان المنصور بن ابي عامر تمكن من بسطة في بلاد الاندلس حتى ليصح القول بانه اعاد حدود الدولة العربية في الجزيرة الايبرية الى حدودها ايام عبد الرحمن الثالث، ورغم ذلك فان غفلته عن الاستعداد للمستقبل، جعل بناءه الضخم الشامخ ينهار كما ينهار بناء من الورق ؛ وما كانت تلك الشعلة المضيئة التي حملها ابن ابي عامر الا الوقدة الاخيرة لقنديل انطفأ بعدها . في حين ان مولاي اسماعيل ؛ استعد للعاصفة بعد وفاته ؛ ودقق بمعادلات رياضية مبلغ قوة العاصفة ؛ واخضع عملية بناء الدولة الخالدة الى قاعدة الجذب والمقاومة ؛ والشدة والضغط : فاستطاع القضاء على الزعامات التي الفت حياة الانتهازية ؛ من لدن عهد الوطاسيين ؛ وحسب اقوام انه ذهب بظفر وناب المغرب ؛ ولم يترك به الا عجائز سلما لا يملكون حيلة ولا يهتدون، في حين انه كان كلما قلع شجرة وضع مكانها شجيرة سليمة من الآفات ؛ تومن بفكرة العاهل وتتخذها قاعدة من قواعد الحياة ؛ وحتى اذا كانت بعض العناصر غير مومنة، فانه سكب رجاله في مسبكة المنفعة . ونفى عن المغرب قاعدة الاستعانة باللفيف الاجنبي ؛ فانقرض في عملها الطويل المديد جيش النصارى ؛ الذي كان يخرب البلاد من الداخل ؛ ومحا اثر جند الاتراك من المغرب. وعوض منها الجحافل بعناصر مغربية صحيحة من المغافرة والاوداية ؛ والارياف، وعبيد البخاري . ووقف كالسد المنيع في وجه اقوام لم يدركوا سر سياسته في تجنيد العبيد ؛ ونظروا نظرة غير بعيدة المدى ؛ فحاسبوه على عدم التحري في ضرب اصول الرق على بعض الاحرار، فعلم الله صدق نيته ؛ واعتبرت الدولة البواخرة اعتبار الاحرار ؛ بل اعتبرتهم اساطين الملك التي تقوم عليها حامية البلاد المغربية . ومهما يكن من امر فان موقف مولاي اسماعيل في تشريد جيش النصارى ؛

وحل جيش الاتراك ؛ كان موقفا وطنيا لا غبار عليه . ورغم ان التاريخ لم يحدثنا طويلا عن التسهيلات التي اوجدها الاعلاج للاحتلال البرتغالي، فان الوميض يحدثنا عن بطش السلطان الكبير مولاي اسماعيل بنصاراه . وطالما فكرنا في تحليل سياسة مولاي اسماعيل ؛ بعد ان اكد التاريخ امتلاء سجونه باسرى النصارى ؛ وانه لم يكن يتخذهم جيشا ؛ بل كان يملأ منهم «المطامير» في تطاون وغير تطاون ؛ مع ان الاحداث التاريخية لا تذكر سببا لحصول مولاي اسماعيل على هؤلاء السجناء الذين اختلف المؤرخون في عددهم ما بين عشرين الفا واربعين الفا ؛ وهو عدد خيالي : اذا علمنا ان اسرى الحرب منهم لا يتجاوز ثلاثة ءالاف في معارك تحرير « المهدية » و « العرائش » و « اصيلا » و « طنجة » ؛ فان بعض المدن وجدت فارغة لان اهلها هربوا ؛ وبعضها كان اسراء نحو الثلاثمائة . اما العدد الضخم ؛ فيمكن ان يكون من مصدرين : نواب السلطان في الثغور البحرية ؛ الذين كانوا يشترون من القراصنة اسراهم ؛ ورجال جند النصارى ؛ الذين الفوا ان يتلاعبوا بملوك المغرب ؛ ويشغلون وظيفة طابور خامس ضخم متوغل في عروق الدولة : ومئات رجال من باعة الضمائر « الحناشين » وهم اصناف وطبقات . فلما اراد الله سبحانه ان يطهر الاطر المغربية من البعثة التي تنخر قلب المغرب، والتي اتخذت في انسجته واوردته مكانا لسرطانها وبث سمومها ؛ سلط الله عليها مولاي اسماعيل ؛ لان الله يسلط رسله على من يشاء . فما هي الا جولاته الحرة حتى بدلت الاحوال غير الاحوال . وعاد مولاي اسماعيل الى السياسة المغربية التقليدية **الحقيقية** ، فوصل ما كان انقطع من تسلسل سياسة الشعوبية ؛ السياسة التي اختارها المغاربة لانفسهم ؛ حينما بايعوا مولاي ادريس الداخل ؛ دخول التتويج ؛ المقدم لعرش من قبل اصحاب البلاد ؛ وسموها الفاتح لان فتحه كان فتحا مبينا : فكانت جحافله التي جلبها من المشرق يبلغ عددها رجلين : ادريس زائد راشد . ولم يذكر التاريخ اسما ثالثا : فهذا هو جيش الاحتلال الذي يشدد به بعض الاوربيين ؛ مدعين ان السياسة الادريسية قائمة على اساس الحديد والنار . وانها لاسطورة ما لها مثيل : فانما كان الفتح الادريسي خيرا وبركة ؛ رددته القلوب والالسنة المغربية ؛ طيلة الازمنة الذي اعقبت هذا الحادث الذي نقل المغرب من امة تابعة تبعية طال امدها بحيث لم يعهد فيما قبل ادريس ان هذه الامة المسلمة العظيمة الشأن كان لها تاج وعرش ؛ حتى وهبهما الله اياها على يد هذا

الفاتح الكبير . وكانت سياسته مسلمة عربية ؛ وحتى لما جاء خصم آل البيت موسى ابن ابي العافية المكناسي، فانه انما عمل لنقل السلطان من يد الادارسة الى العبيديين حينا والمروانيين حينا ، وهو ءاخذ في ذلك كله بسياسة عربية مسلمة ـ اسلام الخوارج ـ : وانتزع التاريخ من يد الادارسة التاج والصولجان ، ووضع في نفوسهم عز الحب والاكبار والاجلال ، فظل سلطانهم دائما الى يوم الناس . وجاء المرابطون والموحدون وهم مغاربة اقحاح ، وكان في وسعهم ان يدعوا اية دعوة عنصرية تطابق اهواءهم، فكانت عنصريتهم ودعوتهم انهم مسلمون دينا ، عرب لغة وسياسة . واقتضى رأي ابي العلاء ادريس الموحدي ان ينحرف عن الجادة، فتبرا من ءابائه ورايهم في المهدوية والمهدي، واتخذ له في المغرب جيشا من النصارى ، وبنى لهم كنيسة في مراكش ، ولكنه لم يدع الى عنصرية ولا شعوبية ، وبقي له من مغربيته اخذه بسياسة عربية مسلمة بعد ان حرفها ومسخها بعنصر جعل نصيب من الحكم لليد الاجنبية المخربة .

يمكن ادريس الموحدي من خلق جو من الميوعة في البلاط المغربي ، عدت عدواه على الذين جاؤوا من بعده ؛ حتى بلغ الامر باعقاب الوطاسيين الى ان نصبوا على مدينة فاس عاملا يهوديا من بني وقاصة، ثم جاء الاشراف السعديون من بني زيدان ، فصاحبهم العنصر التركي وشاركهم حكم البلاد ، وما استطاعوا الابقاء على استقلال المغرب الا بعد عرق القربة ـ وهذه احدى حسنات المنصور الذهبي ـ لكن بابا الشيخ المامون اكثر منهم في جيوشه بفاس ـ ومنهم ابناء طلحة ـ فما استطاع المنصور ان يجاهرهم بالعداء ، وطمع في استجلاب بابا المامون عسى ان يعمل على التخلص منهم ، لكن المامون زادهم قربا ليهدد اباه ، ويجعله يحجم اذا اراد ان ينقله من فاس الى الدار الآخرة ـ وعادة السعديين ان يرسلوا بمنازعيهم في المملكة الى احضان الموت ـ. وفي ايام السعديين ازداد امر استخدام جند النصارى والاتراك ، وقوي سلطان اليهود . وكانت ظاهرة عتو الصهاينة من الاسباب الكبرى في قيام الدولة العلوية الشريفة من اعقاب الحسن الداخل رضي الله عنه وعنهم : فان قصة ابن مشعل اليهودي ، وعبثه بشؤون الاسلام والمسلمين في شرق البلاد كانت الحافز لمولاي محمد واخيه مولاي راشد على استغلال هذه المهنة ، فبطشت اتباعهم بابن مشعل واخذوه اخذ عزيز مقتدر : فلما جاء مولاي اسماعيل عاد بالمغرب الى مغربيته وعروبته ، ورد اليهود الى قماقمهم ؛ وحتى الذين يتظاهرون منهم بالاسلام فرض عليهم ان يتخذوا شعارات خاصة تبين انهم كانوا يهودا وحتى الذين لهم دكاكين تقسم ابوابها الى فوق وتحت ، فانهم يوقفون الشق العلوي بقصبة، في حين ان المسلمين القدماء في الاسلام كانوا يرفعونها بالخشب والعصي ؛ وحتى هوادج الاعراس والعماريات كانت موقوفة على المسلمين ذوي السبقية، ويمنع من ذلك المسلمون الجدد ، لان اسلامهم ـ في راي مولاي اسماعيل ـ كان على حرب .

واتخذ مولاي اسماعيل دواوين تسجيل اعراق الناس : فالشرفاء الاقحاح لهم دواوين، والمستشرفة لهم دواوين ، وذوو الاحساب الكريمة غير ءال البيت كانت لهم دواوين ، ولعبيد البخاري دواوين . بحيث اصبح الناس معروفي الاصول والفصول . وعمل مولاي اسماعيل بالوصية العربية المقدمة الى عمر بن عبد العزيز بان يستعين بذوي الاحساب !

لعلنا لو بحثنا تاريخ ملوك المغرب لا نجد عبقريا يمثل ابطال « نيتشه » كمولاي اسماعيل ، الذي كان لا يخاف النقد ، فقد ابلغته جواسيسه ان الفقيه سيدي احمد اليحمدي يقول : انه هو الذي علم مولاي اسماعيل علوم الدين . فما كان من مولاي اسماعيل الا ان قال : ان قال الفقيه اليحمدي ذلك فقد صدق، انه هو الذي عرفني ربي وشؤون ديني. هذا هو البطل الذي لا يعاقب لاجل رايه في سلطانه ، لكنه يعاقب من يتناول شؤون الدولة ، حتى ولو كان افضل ابنائه ، فقد قتل ولده مولاي محمدا العالم ، لانه خشي انشقاق الدولة ، وافتتان اهل « تارودانت » بالعبقري العالم ابن الملك : قتله مولاي اسماعيل وهو احب بنيه اليه ، وقد كلفته قتلته حزنا طويلا ، وجرت الاحداث بعد ذلك على مولاي اسماعيل فلم يقتل ـ بعد ذلك ـ احدا من اهل بيته ؛ بينما كان الامر في عهد الاشراف السعديين يسير سيرة الخلفاء العثمانيين ، في افتتاحهم عهد الخلافة بحز عدة رقاب من ءال بيتهم . ونظن ان كف مولاي اسماعيل عن قتل الاشراف عامة ، انما هو راجع لقتله ولده مولاي محمدا العالم . ولما جاء ابناء مولاي اسماعيل واحفاده سلكوا مسلك الصفح عمن ينازعهم الملك ، حتى قال مولاي سليمان رحمه الله ورضي عنه في حق اخيه مولاي هشام ، بعد قيامه عليه : انما يطالب بملك ابيه. ووجهه الى تافيلالت بعد عفوه عنه .

ونجد خلق الاشراف ايضا في مولاي اسماعيل ـ على نظرية نيتشه ـ في عظم نفسه وشعوره بهذه العظمة شعورا حمله على القول لجيشه الاسود :

«لنكن انا وانتم عبيدا لسيدي البخاري» يعني للصحيح من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . والا فاي سلطان يمكن ان يتلفظ بانه عبد من جملة عبيد الله ؟ فان الشك في العظمة ، واحتياج السلطان الى سيادة لفظية ، يخلق فيه مركب الشعور بالنقص ، فيستنكف ان يعترف بالعبودية لله سبحانه، فضلا عن ان يجعل نفسه من جملة العبدان الذين اشتراهم بماله ، وحشر نفسه معهم في عبارة واحدة « انا وانتم عبيد البخاري» قالها مولاي اسماعيل لانه واثق من شخصيته مطمئن الى عظمة نفسه ، فلن يضره مع ذلك شيء في ان يتكلم بدون تحفظ ، وان يترك نفسه على سجيتها ، وثوقا بانه لن يتصرف الا تصرفا يؤكد شخصيته العبقريــــة .

ولعل اندفاع مولاي محمد بن عبد اللـه فـي الانتصار لنشر النصوص الحديثية ، وتحمله لعبء التاليف في السنة النبوية ، واعتمادهـا في الاخـذ بالاحكام الاسلامية ناشيء عن التربية العائليـة : فان اقوى فروع مولاي اسماعيل هو ولده مولاي عبد اللـه واقوى فروع مولاي عبد الله هو سيدي محمد بن عبد الله ، ثم تدرجت هذه الصورة من الفرع الملكي : ذلك لان الملك العلوي لم يكن يشترط فيه الا الانتماء لهذه الاسرة العتيدة ، اما باقي المرجحات فمرجعهـا الى الكفاءة الشخصية ، وانتصار اعيان الحاشية ، وهذا ما جعل الاختيار يجتاز مراحل صعبة من الامتحان والاختبار والدربة . وكان مولاي اسماعيل رجلا قويا ، تعجبه القوة في كل شيء ــ والمومن القوي احب الى الله من المومن الضعيف ــ ولعل مـولاي اسماعيـل ــ رغم كونه لم يكن واسع الاطلاع في العلوم المتداولة ، لكنه فكر في ان اعتماد اقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وسنته ، خير من الاستناد لمجرد اقوال الفقهاء التي تنقل عنهم دون استشهاد بنصوص قرءانيـة او احاديث نبوية . وبدافع الشعور او اللا شعور او كليهما جعل شعاره صحيح البخاري ، ثم اتى مـولاي محمد بن عبد الله بن اسماعيل فعكف على الحديث عملا وعلما ، وتاليفا ونقلا ، ومذاكرة وتعليما . ثم جرت بعد ذلك مجالس ملوك الدولة العلوية على مدارسة الكتب الصحاح ، حتى وصل الامر الى انشاء « دار الحديث الحسنية » .

ولا ننسى ان صحيح البخاري كان يسرد كلـه بمجالس مولاي احمد المنصور الذهبي في شهر رمضان من كل سنة ــ على الطريقة التي ذكرها مؤرخو هذه الدولة العلوية السعدية الشريفـة . ثم لا ننسـى ان الموحدين كانوا يفضلون اعتماد كتب الحديث على كتب الفقه ، رغم ان عمل الاندلس ــ وهي العقـد المغربـي الاكبر لنشر الثقافات العربية . ومعنى هذا ان المغرب يحيد دائما الاخذ عن الكتب الحديثية ويرجحهـا على كتب الفقه . وبعبارة اصح ، كان ملوك المغرب يفضلون ان يسموا اهل حديث عن ان يسموا اهل فقه ، لكن علماء القرويين والقيروان وقرطبة ــ الذين كانـوا مهيمنين على الحياة الروحية لغرب العالم العربي ــ كانوا يتشددون للفقه ويتصرون لائمة المذاهب ، الا ما كان من مدرسة الظاهرية التي اثارت حربا عوانـا على اقوال الفقهاء التي لا يصحبها دليلها من الكتـاب والسنة . واستمر الامر على هذا حتى كانت ايـام مولاي سليمان بن محمد بن عبد الله بن اسماعيـل ، فانتصر للحديث لكنه لم يعترض طريق الفقهاء .

ومن هنا فانه يجوز ان يكون الخلاف الحقيقي بين مولاي اسماعيل وسيدي عبد السلام جسوس رحمهما الله يرجع الى تصلب الفقيـه جسوس فـي موقفه ، الذي يعارض سياسة الدولة التي هي سياسة مولاي اسماعيل في تاميم الملونين بالمغرب ، في حين ان تخطيط مولاي اسماعيل كان يهدف لحماية الدولـة والاسلام في هذا القطر الذي يتحمل ــ اكثر من اي قطر ءاخر ــ واجب مجابهة الحروب الصليبيـة في جبهتها الغربية . وانف الفقيه جسوس ان يتراجع عن رايه ، حتى كلفه ذلك القتل وسط الشـارع : فاثبت جسوس ان عصر مولاي اسماعيل كان عصر النبـوغ المغربي : فقد انتج ملكا نابغة ، وانتج عالمـا نابغـا ، وانتج اولياء نابغين من طراز سيدي محمد بن عيسى ومولاي التهامي بن محمد الوزاني في جملـة مـن رجالاتنا الذين يكونون لوحة الشرف في هذه الفترة من النضال العنيف دفاعا عن استقلال المغرب وعروبته واسلامه ، واذا اختلفت الآراء فان الهدف واحد وهو تكوين مغرب قوي ذي شخصيات لا يمكن ان تفنى او تذوب . وكانت الامكانيات في صف مولاي اسماعيـل اكثر مما هي في جانب الفقيه جسوس .

ولعل مولاي اسماعيل تاثر من قوة شخصيـة الفقيه جسوس ، فكان موقفه اكبر من موقف لا يخلف اثره في نفس طيبة تقدر البطولة . وكم كان على مولاي اسماعيل ان يبيدهم ليحقق خطة موحدة وبرنامجـا موحدا ، وملكا مهابا ، فما اقام وزنا لمن هلكوا ، وانما اشتد تاثره من مصرع ولده مولاي محمد العالم ومن

مصرع الفقيه جسوس . ونحسب ان اعراض مولاي اسماعيل عن فاس ورجالاتها ، وصرف اهتمامه الاكبر الى بناء عاصمته بمكناسة الزيتون ، واعتماده على استشارة علماء الاقاليم — وعلى راسهم الفقيه اليحمدي — ، كان ذلك كله راجعا لموقف الفقيه جسوس ، وحتى الجياش مولاي اسماعيل الى كتاب البخاري ، ربما كان اثرا لماخذه على الفقهاء الذين عجزوا عن فهم موقفه ، وتسيير خطته ، وحتى توجيهه الخطاب الى الملونين من عبيد البخاري ، يفوح برائحة الاعتذار اليهم ، وانه لم يقصد استعبادهم ولا بيعهم ولا شراءهم ، وانما قصد به ان يخدم دين الاسلام كما صوره البخاري ، الذي لم تحوره اقلام الفقهاء في متنه، وانما تناولته في شروحها وتعليقاتها عليه . اما ان تراجع مولاي اسماعيل ، فان هذا تكليف للطبيعة بما ليس في وسعها ، فما خلقه الله للخلف ، وانما خلقه الله للامام ، وحتى اذا ظهرت فجوات في هذا الامام ، فانه سيواصل سيره فيه ، آخذا في الاستقامة .

ان لمولاي اسماعيل انواعا من السلوك يظهر انها متناقضة ، وليست بمتناقضة ولا متعارضة ، اذا راعينا قاعدة عمله وهي انه صمم واقتنع بصلاح الفكرة فلن يرده عن تطبيقها اعتراضات المعترضين حتى ولو كانت نواياهم حسنة ، فان صاحب الشخصية القوية يصاحبه في اغلب الاحيان قوة الخيال ، فاذا رأى الراي لا يراه كما يراه الرجل العادي ، بل انه لا يقبل تقليب وجوه النظر الا اذا بدا له عنها ناحيتها العملية ، وحتى يدرس نفسيا الطرق الموصلة الى تطبيق تلك النظرية ، وحتى يعيش فكريا في ثمراتها ونتائجها ، فان رزق مع ذلك قوة التعبير ، تمكن من اقناع معارضيه ، كما كان شان المنصور الذهبي رحمه الله في توسعه فيما وراء نهر النيجر ، اما اذا كان صاحب الهام يسمع اصواتا صادرة عن ضميره آمرة ناهية ، فانه لن يحتاج الى استعمال سلاح المناقشات وانما اذا عزم على الامر توكل على الله ونفذ ، فيكون موفقا في تنفيذ خطته . وقد قدم لنا تاريخ المغرب انواعا من النبغاء ، وكان ميدان نبوغ مولاي اسماعيل قدرته على التخطيط والتطبيق ، وقد يجوز ان تكون اصواته الداخلية الهمته نفس المعنى الذي تكشفت عنه عبارة نابليون « لا وجود لما يقال له المستحيل » . فاذا طبق النظرية ظهرت ثمرتها وفائدتها .

وقد يظهر موقفه متناقضا بين حبه للبناء والتشييد ، مع سلوكه في هدم قصر البديع بمراكش ، وهو بناء سلطان علوي سعدي عبقري ، رضي مولاي محمد بن عبد الله بن اسماعيل الكبير ان يقول عنه : المنصور الذهبي امامنا وبه نقتدي . وكان يترسم خطاه فياتي بمثلها ، ولا نقول انه كان يقلده فان مولاي محمدا الثالث اعانه الله فاسلم شيطانه المبدع التقليد ، وما كره الله اليه شيئا مثل كراهيته لوصمة التقليد الاعمى ، لكن الاخذ بالهدي الصالح سمة الاحرار .

لو كان مولاي اسماعيل يبغض المنصور الذهبي لورث ذلك عنه مولاي محمد الثالث لكن مولاي اسماعيل كان لا يكره احدا ولا يبغضه ، الا اذا كان ذلك حبا وبغضا في الله وفي خدمة صالح الاسلام ، ولكنه هدم قصر البديع آية من آيات مخلفات الملوك السعديين . وهو عمل صادر عن ارادة صالحة قطعا ، اما شعوريا واما لا شعوريا .. فما هو هذا الدافع المنطقي ؟.. هذا سؤال محرج كسائر الاسئلة التي يصعب الجواب عنها ، ولكنه لن يكون الا تصرفا هادفا قطعا ، بحيث لو كان كما يدعي من يرون في سلطاننا العظيم انه طاغية من الطواغي يفعل ما يخطر بباله ، وانه لما عجز عن الاتيان بآية فنية كالبديع الصقه بالتراب ، لو كان ذلك محتملا لدلك « مقابر الملوك السعديين » فان شهادتها اصح من شهادة البديع كما تدل على ذلك عمليات البحث عن انقاضه ، لابراز محاسنه — وهو (الكشف) عما يقوم به وارثو مجد وشهامة جدهم العظيم مولاي اسماعيل —.

انما هدم مولاي اسماعيل « البديع » ليسجل — بخط عريض وحروف بارزة — غضبه على تصرفات ابناء الذهبي ، الذين الحقوا بالمغرب من الخذلان وتمزيق وحدة البلاد ، والمجاهرة بالخيانة العظمى في بيع اطراف عزيزة من المغرب العزيز للامم المستعمرة. ويكفي ان نتصور في مولاي اسماعيل وما عرف عن طهارة ذيله لكي نثور ثائرته انه بلغه انه في هذا القصر عمد بابا عبد الله بن الشيخ المامون الى السكر وقلة المرض والدين حتى زنى ببعض محارم جده المنصور . ولقد سجل المؤرخون كل شيء عن مولاي اسماعيل ، وكان له من الخصوم ما لا بد منه في حياة ملك عظيم، فقالوا كثيرا عن ظلمه وجبروته ، ولكنهم لم يصفوه بشرب الخمر ، ولا بالتلذذ بالمحرمات . ان مولاي اسماعيل ثار للمنصور ، وغضب لله من سلوك الاطفال عندما تسلموا شؤون الدولة المغربية النقية الضمير ، فلم ير اهلا لتسجيل غضبه الا بجعله

هو هدم البديع . والمقتاد من الرجل الرزين الحليم انه اذا بلغ به الغضب غايته ، فانه يختار ان يكسر اعز قطعة فنية عليه ، لانه ان لم يفعل ذلك فلن يهدا غضبه الا بقتل كل من يحمل اسم « سعدي » . وهذا يعبر لنا عدم تتبعه بالتقتيل للاشراف السعديين ، وانما سلطه الله — والله يسلط رسله على من يشاء — على دعاة الانشقاق والمنحرفين من ابناء الاكابر . ونحن هنا فى تطوان كلما مررنا بالفرصة الكبيرة لتذكر مصرع السبعة رجال من حفدة المقدم احمد النقسيس ، صرعى ، لان سلامة اقليم تطوان ، وهو ثغر متاخم للعدو ، لا يصح ان يبقى به زعماء التجؤوا الى سبتة ثلاثة عشر عاما ، يحملون منه حاكم سبتة ، فكان الموت فى حقهم غطاء من ذهب — كما يقولون — . وعصم الله المجاهد المقدم احمد النقسيس من ذرية ربما حملها الطيش على الخيانة العظمى، والمساومة على تطوان — وهي المدينة التى ناضل من اجلها المغرب كله وتصدى لذلك المقدم احمد ، فحماها منفردا فى وقت كان فيه ابناء المنصور يبيعون مدن الشمال . وكان مولاي اسماعيل اذا بطش براس فتنة تورع عن استصفاء ماله ، لئلا يقال انه قتله طمعا فى تركته ، وعندما بطش بالنقاسسة السبعة وثامنهم عبدهم — فيما اظن — ابقى متخلفهم فى تطوان واحوازها ، حتى استقدم اليها ولدي سيدي العربي ابن الشيخ مولاي التهامي ، فاقطعهما املاك دار النقسيس كلها ، بما فى ذلك مقر عمالتهم . وهذا مثل ما فعله مع السادة اولاد ابن صالح ، وكبيرهم سيدي ابراهيم فى متخلفه ببلاد الريف — بني بطفت — . وقصد مولاي اسماعيل انه لن يبتر من المغرب عضوا الا خلفه بعضو او اكثر ، لئلا يبقى الفراغ بارزا ، وتبقى ديار المعاقبين بلاقع لا يتجرا احد على الدنو منها . فكان يقطعها الاشراف من ادارسة وغيرهم ، حتى تتحول الزعامات من افراد مغمورين الى سلائل علوية ، ترى فى مولاي اسماعيل كبير اسرتها ، وفى نفس الوقت ولي نعمتها . وفعلا فان هؤلاء الاشراف كانوا — ولا زالوا — للدولة العلوية خير الجند ، والبررة من ابناء العم .

وبهذه الطريقة من السلوك ساس البلاد المغربية، فخلقها خلقا جديدا ، وكونها بعد ان اشرفت على الهلاك . واصبح اسم المغرب يلمع كالذهب الابريز . ولكن وفاة مولاي اسماعيل التى قال عنها اماثل المغرب: بموت هذا الجبار ، بعرف الواحد القهار ، كانت ريحها عاصفة ، هددت ما بناه بالسقوط . وكما كانت اسوار مكناس مصابة بخدوش ، لكنها اصابت مثل الجبال الرواسي ، فلتعمل المعاول فى الهدم ما شاءت ، فانها على كل حال معاول ضعيفة ، وان بلغت من اعمال التخريب ما بلغت فلن تنال من البناءات الشامخة الا النزرا لا يذهب بعظمتها وشموخها وتحديها للمخربين . مثل هذه المباني كانت سياسته فى تدبير الدولة ، فانها تدابير بلغت الى الاعماق ، واستطابت البلاد المغربية طعمها من الهدوء والاستقرار، والاقبال على العمران والعكوف على العلم . وكان يود مولاي اسماعيل ان ابقت له اشغاله الوقت الكافي لدراسة سلوك اولاده ، ليختار منهم من يجعل له الامر من بعده ، ولعل ادمانه على الانصات لحديث البخاري وجهه توجيها غير ما كان يعرف عنه من مبادرات لمواجهة الاحتمالات والفروض التى يمكن ان تخلقها ظروف غير منتظرة : فالمنسجم من طبيعة مولاي اسماعيل ان يكون قد اوصى بالامر من بعده لاحد اهل بيته ، لكنه وقف يتامل طويلا فيما تتطلبه سياسة دولته من نبوغ كنبوغه او يقاربه ، وذلك امر لم يكن ميسورا اذ ذاك . لم يكن ميسورا لثقة مولاي اسماعيل بعظمته ، ولعدم اطلاعه على دقائق ابنائه من جهة ثانية ، ولعل مولاي اسماعيل لو اعتنى بدراسة شان بنيه ، لم يكن خامره شك فى ولده مولاي عبد الله .

اما العامل الثاني فى تأخره عن تولية العهد لاحد بنيه — رغم ان ذلك اكثر عادة الملوك عربهم وعجمهم ، فلعله الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث لم يرض ان يكون اقل ثقة لحسن صنع الله من سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام ، اذ قال : « وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم ، فلما توفيتني كنت انت الرقيب عليهم، وانت على كل شيء شهيد » . وما كان رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ان يكون احد احسن جوابا منه ، كما تفطن الى ذلك علي كرم الله وجهه . فقد كان مولاي اسماعيل يحمل روحا دينيا اكثر مما كان يظن به الظانون . وانما يعرف ذلك الذين علموا اهتمامه بشؤون الدين الى اي حد وصل : فقد بلغ به الامر انه كان يدير زاوية وزان ادارة مباشرة ، ويسال عن شؤونها وما تقوم به من نشاط ، سؤاله عن وزارة من الوزارات او اشد . وليست وزان وحدها هي التى تحمل هذه الشهادة ، تحملها فى تمهيد الاسباب ، وتخصيص النفقات ، واقامة المباني والحرمات ، وكف يد المستهترين بشان الدعاة الى الله .

ان الله الذى حمى الاسلام — بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم — بالهام الناس مبايعة ابي

بكر ءسخر لمولاي اسماعيل ما بارك به عمله ، وجعله عملا خالدا ، شان الاعمال الصالحة المتقبلة : فلما قام ابناء مولاي اسماعيل مقام والدهم ، دون ان تسبق لهم سابقة التدرب على مجابهة المسؤوليات العظمى ، ظهر عجزهم وعدم مقدرتهم — وذلك ذنب لا تغفره السياسة ولا تتجاوز عنه قواعد الملك الراسية. وهيأ الله مولاي عبد الله للوقوف في وجه الفساد الذى يحدثه اخوانه بسبب جهلهم بقواعد الدولة واسسها اللازم ان تكون قوية راسخة : فاذا قام احد عارضه مولاي عبد الله ، وكان النصر دائما حليفه ، ثم لا يلبث ان يقوم ءاخر وءاخر ، ومولاي عبد الله في كل ذلك شانه ان يقضي على الصبيان والصبيانيات : وكان في عمله هذا نابغة ، ينتج وحده. وكان عارفا بنفسية الشعب المغربي ، فلا يحتاج مولاي عبد الله لخيل ولا ركاب ، ولا مال ولا نوال ، فكانت اساليبه التربوية والخلقية سلاحا قضى به عن صعوبات الدولة ابان مراهقتها ، وكثيرا ما تسقط الدول في هذه المرحلة : فان تغلبت على العقبات الاولى انفتح امامها ميدان العمل على مصراعيه .

وقد عانى المغرب من الاعياص ما كان من الاسباب الرئيسية في تاخره ثقافيا بالنسبة لما كان عليه الامر في المشرق ، وفي بلاد الاندلس : فقد قضت فتن تهالك الاخوة على وجوه نشاط المغرب في عهد الادارسة ، وفي عهد السعديين . وها هي التجربة الاخيرة في عهد ابناء مولاي اسماعيل . وكان جيش البخارى وفلول الجيوش الاسماعيلية الاخرى مشتاقة ليد قوية في حكمة ، وحكيمة في قوة ، كما كان الامر في عهد امير المومنين مولاي اسماعيل الكبير . وجربوا ابناءه واحدا واحدا فلم يكن يقرب من طبعه في البطولة والكرم ما عدا ولده مولاي عبد الله . وفي عهده اتضح ان ترك الامر الى الجماهير شيء لا يتفق مع النفسية المغربية المغامرة ، القائمة على البطولة وحسن الاحدوثة ، وان حريتها حرية عريقة قائمة على التقدير والنية الحسنة ، وهذا ما يشهد له وقوف قبائل مكناسة وحتى جند البخارى ، في صف مولاي عبد الله كلما استصرخهم ، واستنصرهم (وقلب سرجه بطنه الى السماء) بين ايديهم — علامة الاستصراخ — ، ثم لا يلبث ان يبدأ حتى يقوم احد اخوته ، فيعيد الكرة مستعدا لها ، ومنتظرا لكل ضروب المفاجآت ، حتى انه كان لا يبيت بفاس ، وانما يكون استقراره في « دار الدبيبغ » ، التى كلها خالصة جنده ، وقد وضع ذهبه الوافر في اعدالها ، قصد نقلها باستمرار ، فكان بيت ماله راكبا متن دوابه .

وفي هذا الجو المليء بالمفاجآت ، العامر باحداث البطولة وكرم النفس ، نشأ مولاي محمد الثالث : فاكتسب خبرة بالرجال وقضايا البلاد ، وتعلم طريقة استعباد الاحرار بالاحسان ، ودرس سيرة جده وابيه واعمامه ، وتعرف الى عمال الاقاليم ، فكان في الحقيقة ولي عهد جده مولاي اسماعيل ، والفضل لمولاي عبد الله في تربيته على هذه الشيم الملوكية . ولعل مولاي عبد الله كان يتوسم في ولده سيدي محمد الثالث السلطان الذى يربط عهده بعهد اسماعيل الكبير . وهكذا عصم الله الدولة العلوية من ءافات تنازع الاعياص على عرش المغرب ، واجتاز من هذه المحنة امتحانها الثقيل بعلامة ممتاز جدا جدا . وما كاد ابوه مولاي عبد الله ينتقل الى رحمة ربه ، حتى كان المغرب كله — كلمة واحدة — ملتفا حول مولاي محمد بن عبد الله . الذى حاول اقامة نظام دستوري ، ودعا الناس الى المشاركة في تسيير شؤونهم بنفسهم ، فوجد ان المغربي القح ، راغب في قيادة موحدة صالحة اكثر من رغبته في استعمال سيطرته ونفوذه ، فاقتنع مولاي محمد بن عبد الله بوجوب القبض على زمام الدولة .

وفي عهد مولاي محمد بن عبد الله ، نشر القدر مولاي اسماعيل من مرقده بروحه — ويقطع النظر عن جسده — ، وابتدا من تاريخ الدولة العلوية تاريخها الوسيط وفي احشائه مغربنا الفتي الحديث . وادرك شهرزاد الصباح .

لقد حاولت الدولة العلوية كثيرا ان تجعل من المغرب دولة دستورية . وعند تجربة تولية الملك العادل، وترك الامر الى الجماهير ، وجد ان العبرة ليست في سيادة الفرد ولا في اعتماد نفوذ الجماعة ، وانما هي في القيمة التى يحملها اسلوب النظام القائم : فسيادة الفرد في عهد مولاي اسماعيل، ظهرت بمظهر الاستعلاء ، فبلغت ذروتها وءاتت اكلها ثمارا طيبة ، ادى المغرب ثمنها — واجب ثمن الامجاد — دمعا وعرقا ودما . ومن المجهود الوطني الشعبي وتفاني ملك عبقري في اعلاء شان امته ، باي ثمن كان استطاع المغرب ان يخلق الادارة الصالحة التى تناسب عقليته ونفسيته وتاريخه . وقد تنازل الملوك العلويون بعد مولاي اسماعيل — سيدي محمد بن عبد الله ، ومولاي سليمان ، وسيدي محمد الخامس — لشعبهم عن اكثر مما اشتملت عليه (الرسالة الكبرى)

تطوان — التهامي الوزاني

من مواقفهم النبيلة :

لتأييد الإسلام والمسلمين

وجدنا نسخة من ظهير الملك المرحوم سيدي محمد بن عبد الله في شان تأييد العثمانيين في حروبهم والدعاء لهم بالنصر على الدول الثلاث التي اعلنت الحرب عليهم ... ونص المقصود منه :

« الحمد لله . كتابنا هذا أسماه الله يتعرف منه اننا ورد علينا كتاب من عند أخينا السلطان عبد الحميد خان نصره الله . وكبراء دولته . اخبرنا فيه ان ثلاثة أجناس من اجناس النصارى دمرهم الله . اتفقوا على محاربة المسلمين . خيب الله سعيهم . وشتت شملهم . وجعل تدميرهم في تدبيرهم . بجاه المصطفى صلى الله عليه وسلم . وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين .. وأعلمونا بما هم عليه من التهيء لمحاربتهم ومقاتلتهم . وطلبوا منا أن نمدهم بسلاح الادعية . وسهام التوجه . في نصرة المسلمين . واعانتهم. وتدمير الكفرة وكسر شوكتهم . وها نحن متوجهون الى الله تعالى بالدعاء لهم في أهم الاوقات . ومواطن الاجابات . فنامركم ان تكونوا أنتم كذلك مجتهدين في الدعوات معلنين بها في المساجد . عقب الصلوات . ليعلم ذلك جميع الناس . فيبتهلوا الى الله تعالى في نصرة المومنين . واذلال المردة الكافرين . وجعلهم غنيمة للمسلمين . وهذا الامر الذي أمرناكم به هو من التعاون على البر المامور به في قوله تعالى : وتعاونوا على البر والتقوى . الآية .. وروى الامام أحمد والامام مسلم عن أبي الدرداء رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : دعاء المرء المسلم مستجاب لاخيه بظهر الغيب . عند راسه ملك موكل به كلما دعا لاخيه بخير قال الملك : ولك بمثل ذلك اهـ.

ولا شك ان تمالؤ المسلمين على الدعاء لاخوانهم بظهر الغيب مظنة الاجابة والقبول . والله سبحانه المسؤول في بلوغ المامول . ونطلب الله تبارك وتعالى ان يجعل لاخواننا المسلمين فرجا ومخرجا بجاه المصطفى وآل بيته الطيبين الطاهرين الذين أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ..

وأنتم حين يسلم الامام . ويقرأ الباقيات الصالحات يقوم بعد ما يحفظ هذا الدعاء فيدعو به . والناس يؤمنون على دعائه . والدعاء المذكور يذكره الامام بلسان فصيح ويقول :

اللهم انصر السلطان عبد الحميد وجنوده .. واكبت عدوه وحسوده .. وكن معه حيث يكون .. واسعفه بطاعتك في كل حركة وسكون .. وانزل السكينة والتاييد على المسلمين .. وثبت اقدامهم واجمع كلمتهم . حتى يكونوا يدا واحدة على عدوهم ..

اللهم لا ناصر لمن خذلته . ولا معز لمن اذللته . نتشفع اليك بجاه المصطفى صلى الله عليه وسلم ان يكون المسلمون منصورين .. واعداء الله مخذولين .. وان يكون المسلمون أعزة .. وأعداؤك المشركون اذلة . وان تثبت اقدام المسلمين وتلقي الرعب في قلوب المشركين . بجاه خاتم النبيئين . وامام المرسلين وقائد الغر المحجلين . الى جنات النعيم عليه افضل الصلاة وأزكى التسليم ..

والدعاء المذكور يذكره الامام جهرا بعد قراءة الباقيات الصالحات والناس يؤمنون عليه ... انتهى

(وزاد الناسخ : توبل باصله فماثله وعلى صحة المقابلة يشهدنا ناسخها عبد ربه تعالى ...) .



قبل وفاة المرحوم السيد محمد الزغاري ببضع ساعات ، قام بعيادته جلالة الحسن الثاني امد الله في عمره .

كان الفقيد رحمه الله يعاني سكرات الموت ، يقطع الالم الممض احشاءه لا تخفف من بلوائه الا غيبوبة كانت تعتريه من حين لآخر . منذ ايام كان موقنا بالمصير المحتوم ، فأشاح بوجهه عن الدنيا الفانية واقبل على الآخرة الباقية بنفس مطمئنة راضية شأن المؤمن الواثق بربه . ما كاد يشعر بأن ملك البلاد واقف على رأسه حتى افاق من غيبوبته ، وسرت البقية الباقية من الحياة في شرايينه ، واشرق وجهه ثم اندفع قائلا في صوت جهوري :

« اخوف ما كنت اخاف يا مولاي ان اموت دون ان اراك .. الحمد لله .. الحمد لله .. لقد شفيت الآن .. لقد برأت من كل مرض .. حفظك الله ورعاك .. »

لشد ما اندهش الاطباء والاقارب لهذا المشهد ، مشهد جسم هده السقم وهو يصارع الموت ، يهب فجأة كما لو بارحه الالم !.. ثم تعاوده الغيبوبة التي انتهت باسلام الروح الى بارئها .. الا ما كان من ومضات بين الفينة والاخرى ، كان المرحوم اثناءها يجهد النفس للنطق بالشهادة محاولا اجابة الاحبة المحيطين به وهم يرتلون آي الذكر الحكيم في انكسار وخشـــوع .

انها لحظة من لحظات الاشراق التي يحق ان يقف عندها الانسان ليجلي ما تبطنه من المعاني الخفية الدقيقة في هذا الظرف الذي تعز فيه المثل ويندر الوفاء وتضيع القيم . لحظة تشهد بما يمتاز به عاهل هذه البلاد من رعاية ونبل وبرور ، وترمز الى ما يكنه احد خدامه المخلصين من محبة واعزاز ووفاء .. حتى آخر رمق من الحياة .

ترى ما الذي دفع المرحوم ان يقول ما قال في الوقت الذي قضى وطره من الحياة ، وهو يصعد آخر انفاسه متوجها بوجدانه وكل مشاعره الى ربه ؟ انها العروة الوثقى التي تربط بين سيد هذه البلاد وبين احد النابهين من ابناء شعبه .. بل وعموم شعبه . انه الرباط الروحي الخفي الذي يؤلف بين راع وقف حياته لخدمة بلاده واسعاد امته وشعب يبادله المحبة والوفاء والاخلاص : « لو انفقت ما في الارض جميعا ما الفت بين قلوبهم .. » . انه شعور يدق عن الوصف ويتحدى كل تحليل .. شعور تمتزج فيه امجاد الماضي بكل وزنها وآمال المستقبل بكل ما تنبيء عنه من اشراق ونور .

تجمعت في شخص الحسن الثاني ذكريات ملوك عظام اقاموا كيان الدولة على اعمدة راسخة متحدين المخاطر والمهالك والازمات حتى اسلموا البلاد الى الجيل الحاضر وهي اشد مناعة واقوى مراسا . وتتمثل في شخص الحسن الثاني آمال جسام عقدها شعب باكمله على شاب المعي آتاه الله المعرفة والذكاء

ونبل الشمائل . وبالتالي ترمز تلك اللحظة الى ما اختص به الحسن الثاني من حكمة واستقامة وحسن سياسة اهلته ليكون اقوى ضمان للاستقرار الذي تتمتع به البلاد فتجعلها مضرب الامثال .

لم يتفق لبلادنا ـ الا في فترات قصيرة من تاريخها الطويل ـ ان نعمت بالاستقرار ، مثلما تنعم به اليوم . وليس ذلك من قبيل الصدف ، ولا من نتائج الغلبة والقهر كما هو الشأن اليوم في غير ما بلد في طور النمو . لكنه ثمرة ذكاء سياسي يستميل القلوب باللين والاقناع بدل العنف والاكراه ، وبالحلم عند المقدرة ، وبالموعظة الحسنة مقابل الجفاء ، دون ما تهاون في المبدأ او ضعف في الدفاع عن الحق .

اعترت بلادنا زوابع على غرار ما انتاب الاقطار المتحررة التواقة الى استبدال حالة التخلف بمصير اسعد ، وهبت رياح الثورة من الشرق والغرب تغري بكثير من الاماني الكريمة ، لكنها تبطن قدرا كبيرا من الحقد والعداء والشقاق في صفوف الامة الواحدة ، وبينها وبين امم اخرى تم تصنيفها حسب مذاهب دخيلة مفتعلة . فوقف الحسن الثاني ثابت الجنان وسط الزوابع يبشر بوحدة الصف ويدعو الى الوئام بين كافة الدول والشعوب على اختلاف نظمها . مما اكسبه محبة شعبه وفائق تقدير سائر الدول لجهوده الرامية لنشر الوفاق والوئام . لا يني في انجاز ثورته الناصعة البياض القائمة على اتحاد طبقات الامة وتعبئتها نحو النماء والتقدم والرفاه ، وتهييء فرص متكافئة للجميع ، لا فرق بين غني وفقير ، رفيع ووضيع .

ترتكز هذه الخطة ـ فوق كل شيء ـ على اصالة الشخصية المغربية ومتانة القيم المعنوية وعلى الطبيعة التي فطرت عليها النفس البشرية والتي لا محيد عن اخذها بعين الاعتبار في كل اصلاح يرتجى . اما الركيزة الثانية التي تستند اليها خطة العاهل فهي الارادة الحازمة في مواكبة التقدم الحضاري للاخذ باكبر نصيب من التطور في كافة الميادين بالسرعة اللازمة ، وعلى قدر الامكانات التي تتيحها موارد البلاد بغية اللحاق بقافلة الدول المتقدمة ، مع الحرص الشديد على السيادة الوطنية وعدم التنازل قلامة ظفر عن اي مظهر من مظاهرها لقاء منافع عابرة مهما كانت درجة اغرائها .

وهذا ما جعل المغرب طليق اليدين يقرر في قضاياه المصيرية بكامل الحرية ، ويتعاون مع اشقائه وجيرانه باخلاص ونزاهة ، ويفصح بصراحة عن رايه في القضايا التي تمس مصالحه من قريب او من بعيد ، ويحجم عن الخوض في المشكلات التي لا تعنيه وتتصارع في شأنها الكتل المتطاحنة على النفوذ والسيطرة ، الا ما كان من الدعوة الى الوئام والاشارة باسلم الحلول . مما جعله صديقا لهذا المعسكر وذاك ، ما دام يدا كريمة للجميع قصد التعاون والتآزر .

انها بعض معالم الخطة التي ينهجها الحسن الثاني في تسيير دفة الحكم داخلا وخارجا . انها نتاج ملك انبل ، وتربية قويمة في احضان عاهل عظيم ، وذكاء خارق ممزوج بادراك سليم واحساس مرهف . ان المواهب تتجلى اكثر مما تتجلى في المحن والشدائد . وقد برهنت الاحداث في غير ما موقف ان العاهل الكريم يظل في احلك الظروف شامخا كالطود ، لا تلين قناته ولا يطير لبه ، بل ينتصر عليها . «وما النصر الا من عند الله» .

الى هذا وذاك ، يتصف العاهل الكريم بالاوصاف التي طبعت اجداده كابرا عن كابر : معرفة لاقدار الناس مع وفاء للاقارب والاباعد ، فضل وحلم متناهيان الى غيرهما من مكارم الاخلاق . مما جمع شعبا بكامله على اعزازه ومحبته « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » .

انه السر في التجاوب الموجود بين العاهل وامته ، وفي الاجماع الذي نشهده حول الحسن الثاني . وهو ما انطق لسان المرحوم السيد محمد الزغاري بما نطق به حين كان يلفظ النفس الاخير . وهو في الحقيقة تعبير عن ضمير الذين حظوا بشرف العمل تحت ظل العاهل الكريم فخبروا اوصافه وخلقه العظيم ، اطال الله بقاءه وابلغه مناه .

الرباط ـ قاسم الزهيري



الخطة القاصدة

للأستاذ عبد اللطيف الخطيب
رئيس الديوان الملكي

تقارب مساحة المملكة المغربية في حدودها الحالية خمسمائة وثمانين الفا من الكيلومترات المربعة. ونحن اذا آثرنا مقارنتها باقطار القارة الاوربية وجدناها اكثر اتساعا من جميع بلاد هذه القارة اذا استثنينا ما يقع داخلها من اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية . ومن المتوقع ان يتضاعف مجموع سكان المملكة ستة خمس وستين وتسعمائة والف خلال عشرين عاما ، لان نسبة التكاثر عندنا قد بلغت 3,2 في المائة ، وهي من اعلى النسب المسجلة في الاقطار النامية .

واذا كان المغرب يقع عند ملتقى البحرين وتمتد شواطئه عليهما مسافة الفين وثلاثمائة كيلومترا توجد في معظمها اجود انواع الاسماك فان ارضه تجود بالخيرات ، ويزخر جوفها بالثروات . وضمان ظروف الاستفادة للمواطنين بدون تمييز او استثناء من مقدرات البلاد وامكانياتها اثناء الكفاية المسخرة والجهد المبذول والحاجة الملحة هو الهدف المبتغى لسياسة جلالة الملك الحسن الثاني المعظم .

لقد انصرمت ثمانية اعوام على حمله مسؤولية الامانة العظمى خلفا لوالده المغوار الخالد . ولم يقض هذه الفترة الا في ارساء قواعد الدولة ونشر نعمة الاستقرار على ربوع المملكة كافة لينصرف الى تعزيز الاستقلال بسلوك سياسة متبصرة رشيدة في مختلف المجالات والميادين وسط عالم يتميز عند ابتداء الثلث الاخير من القرن العشرين بتصارع المذاهب السياسية والاجتماعية وبتسابق الدول في مضمار الاقتصاد والعلم والاكتشاف. واول مرامي هذه السياسة الحكيمة اغناء الفقير دون المساس بالحقوق المشروعة للغني وتمكين الدولة من وسائل العمل على اشاعة الخير وتعميم النعيم دون ان تستميلها راسمالية بشعة او تستهويها اشتراكية جشعة كما احسن في تصويرها والتعبير عنها جلالة الملك المصلح باسلوبه الهادف النافذ .

ان المملكة تنعم بفضل السياسة الحكيمة بالاستقرار السياسي الذي تبحث عنه متحسرة كثير من الدول النامية في شتى اطراف الارض . وما هو الا وسيلة لتحقيق الاستقرار الاقتصادي الذي تتوق اليه الهمة الملكية الشماء ، وبجهد الحسن الثاني نفسه في ادراك آمالها الكريمة الكبيرة ضمن اقصر الآجال . وهي خطة فريدة تستهدف تكوين مجتمع ينبذ الظلم ويستبعد صراع الطبقات بتوثيق اواصر التعاون واحكام صلات المصلحة المشتركة بينها لخير الوطن والمواطنين جميعا .

وتستعين الدولة على تحقيق هذه الغاية المبتغاة بانتهاج سياسة الحياد الايجابي وايثار الوسائل السلمية في حسم الخلافات لتتفرغ للعمل الدؤوب والسعي المتصل لبناء الاستقلال واقامة العدل الاجتماعي بضمان تكافؤ المواطنين في الحظوظ والفرص والواجبات ، وتأمين حقوقهم وحمايتها من الجور والعبث على السواء . وهذا هو العدل الذي يقوم عليه

الملك والعمران ، ويقوى به جانب الدولة وتعظم هيبة السلطان .

فتكوين الاطر وبناء السدود وري الاراضي واستثمارها واستخراج المعادن وكفالة التعليم والعمل والسكن والعلاج للاجيال الصاعدة والمحافظة على شخصيتنا القومية وتقاليدنا الطيبة العريقة اهداف الدولة المسترشدة بتعليمات صاحب الجلالة والمهتدية بتوجيهاته السديدة . ذلك لاننا نريد للبلاد مستقبلا زاهرا لائقا بماضيها المجيد التليد ، ومصيرا مشرقا جديرا بعظمة الرسالة التى جاء بها الدين وبشر بها نبيه المرسل رحمة للعالمين .

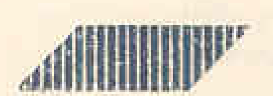
وما هذه الرسالة الا الامانة العظمى التي تضطلع في العصر الحاضر بالدولة الخيرة وتستند اليها مهمة اسعاد المواطنين بالقدر المستطاع والنسبة الميسورة في هذه الحياة الدنيا . وهذه المهمة الجليلة هي قيام الدولة باعداد المواطنين للكفاح المشرف في سبيل الحياة الكريمة الهنيئة وتمكينهم من جميع الوسائل التي تضمن لهم بلوغ هذه الغاية المرجوة وتيسر لهم تحقيق هذا الهدف المبتغى .

ان الدولة تسعى للتقليل من الفوارق بين اقاليم المملكة فيما يرجع الى مستوى تطورها ، كما تجتهد في التقريب بين مكاسب الطبقات الاجتماعية وجعل خيرات البلاد في متناولها بحظوظ لا يكون فيها تفاوت مجحف ، وبانصبة لا يلاحظ فيها خلل او استئثار او استثناء . وستتبلور هذه السياسة عندما تنجح الدولة في تامين المواطنين كافة من آفات المرض والفقر والجهل والبطالة ، وفي وقايتهم من شرور الحياة ومصائبها . وادراك هذه الغايات هو محور سياسة صاحب الجلالة ومحركها . وتحقيق هذه الآمال هو كنه هذا السعي الموصل والجهد المبذول منذ ان امسك الحسن العظيم بمقاليد هذه الامة فاخذ نفسه بتوفير سعادتها واحلالها المقام الامثل بين امم الارض .

ونحن اذا رجعنا بابصارنا الى المراحل التي قطعناها خلال الاعوام الثمانية المنصرمة عظم تفاؤلنا بحسن العاقبة فيما سنستقبل وصح عزمنا على اجتياز المراحل القادمة بحماس متزايد وتصميم متجدد . وزادنا في هذا الكفاح الصامت والجهاد الهادف ثقتنا بمقدرة جلالة الملك المعظم واكبارنا لعبقريته الفريدة وذكائه الفذ ، وعدتنا تجنيد طاقاتنا وتعبئة مواهبنا وبذل النصح والاخلاص والتمسك بالطاعة والتحلي بالامتثال في تنفيذ التوجيهات والاوامر الملكية والسهر على تحقيق الغايات المأمولة منها .

هذا هو التزامنا وقسم ولائنا لرائد امتنا في عيد عرشنا الذي هو معقد آمالنا . ونسأل الله العلي القدير بحق كتابه المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أن يحفظ ملك البلاد المفدى بالمهج والارواح ، ويمتعه بالصحة التامة الشاملة ويطيل عمره الغالي ويقر عينه بفلذة كبده سمو ولي العهد المحبوب ، ويكون له في سعيه المستمر وعمله الموصول لخير امته وليا ونصيرا .

الرباط : عبد اللطيف الخطيب



في تاريخ المغرب الدبلوماسي :

مراسيم تقديم أوراق الاعتماد في القصور الملكية على عهد الامبراطور السلطان المولى اسماعيل

للأستاذ : عبد الهادي التازي

لقد اشرت في حديثي الذي نشرته مشكورة كتابة الدولة في الشبيبة والرياضة بعنوان « جولة في تاريخ المغرب الدبلوماسي » اشرت الى بعض الترتيبات التي اصبحت منذ فجر الدولة العلوية من عادات المغرب المتبعة بمناسبة ورود سفراء الدول ، فلقد كانوا يقصدون المغرب في الغالب عن طريق مدينة طنجة بعد الاستئذان في النزول بالتراب المغربي ، وهناك تجري الاحتفالات الاولى باطلاق المدافع على نحو ماكان العرف عليه في تحية الدول ذات السيادة في البحار ، ثم تطير الاخبار الى سيد البلاد سواء كان مقيما بمكناس او فاس او مراكش ، وترحل البعثة تحت رعاية الحكومة المغربية وبعنايتها الى حيث يتم الاستقبال الملكي ... وقد كان الترجمان يقف عن يمين السلطان على مقربة منه ، بينما يقف اعضاء الحكومة عن يساره ، وعندما يحضر السفير الى الردهة الملكية بين اصداء الموسيقى المعروفة باسم « الخمسة والخمسين » ، يقدمه قائد المشور باسمه واسم الدولة التي اعتمدته سفيرا لها ، هنا يتقدم السفير بخطوات وئيدة نحو جلالة الملك مؤديا التحية الاولى ثم الثانية ثم الثالثة بثلاث ايماءات ... عندها يقف في المكان المحدد امام الملك ليؤدي الرسالة التي جاء من اجلها ...

. . . . .

وقد احببت ان اخصص حديثي اليوم لوصف بعض الاستقبالات التي تمت في القصور الملكية ، وسوف لا اتحدث عن ايام السلطان المولى الحسن الاول رحمه الله ، فقد عرفت المصادر التاريخية الحديث عن مراسيمها باسهاب منذ نزول السفير بالساحل المغربي الى وصوله للعاصمة ، من مظاهر الحفاوة والتكريم ، الى يوم الملاقاة

كما ولا نتحدث عن ايام السلطان سيدي محمد ابن عبد الرحمن الذي تحتفظ الارشيفات الوطنية في اوربا بلوحات لبعض استقبالاته ..

وسوف لا نعطي تفصيلات عن سفير ملك فرنسا لويس فيليب الذي استقبل يوم 22 مارس 1832 من قبل السلطان مولاي عبد الرحمن ، فقد تحدثت المراجع التاريخية عنها بل اخذ المصورون لها لوحات فريدة .. كذلك سوف نختصر الحديث عن ايام السلطان سيدي محمد بن عبد الله الذي عرفت ايامه بانها الايام الدبلوماسية للمغرب ، لان الكلام عنها ايضا مما تحدثت به المصادر الاجنبية ، فقد استقبل عشرات السفراء : السويد عام 1763 والبندقية عام 1767 والبرتغال عام 1773 وروسيا 1778 والطوسكان عام 1778 وصقلية عام 1782 والنمسا عام 1783 والولايات المتحدة الامريكية 1786 والدنمارك عام 1787 والعثمانيين .... وامارة ليبيا عام 1790 . لكنني اولر ان ارقى مباشرة الى ايام الامبراطور العظيم المولى اسماعيل ، الى ما قبل ثلاثة قرون من الزمن عندما استقبل بقصوره في مكناس سفراء عدد من الدول الاوربية ..

الحمد لله وحده — وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

خديمنا الأرضى الطالب عمر بن كاشر وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد
وصل كتابك بأن خديمنا عامل طنجة كتب لك بجواب كتابه الذي وجهته بأن الأمير ورد اصابه
المتكلم بحضرتنا الشريفة بأن ولد سلطان الموسكو ورد على بره فلاهر التوجه
لحضرتنا العالية بالله وذكر أن كلاهما عزم به يرجع أخرى وأنه ورد عليك
مع زوجته واستعملهم عن المعقود بوروده مع أنه ورد بقصد الجولان
أنه يريد زيارة جنابنا الشريف وأشرت فيما يليق بما يقابل به أبناء الملوك أمثاله
بعد وروده وتلقوه بالأعيان والعسكر وعامل البلد عند وروده حوله وهو بما ينبغي
أن يقابل به وأكرم هو وزوجته وطلب التوجه للجزائر على الزمور والنزول بالشط
والرباط وكتبنا لمن ذكر من أمرهم بمبرتهم وتكريمهم بكاتب لعمال الحياني المذكورة والقائد
الذي يمر عليهم بالكون على بال منه والقيام بشئونه مؤونة وعلفا وحراسة حتى يخرج
من إيالتهم ويتوجه بسلام والسلام في 27 صفر عام 1299

تشريفات زيارة الامير الروسي فيازيمسكي للمملكة المغربية ، لقد استقبل في اواخر صفر 1299 (يناير 1882) من لدن السلطان المولى الحسن الاول « بما يستقبل به ابناء الملوك » على حد تعبير الرسالة الملكية . وقد أنزله العاهل بعرصة التازي موخا بمدينة مراكش وكان السفير الروسي مصحوبا بزوجته .



السلطان المقدس المولى الحسن الاول يستقبل السفير الالماني اواخر عام 1310 هـ (1893 م) ونلاحظ المظلة التقليدية ويحيط بالملك كبار رجال الدولة ، وبينهم الوزير باحماد وقائد المشور الذي يتقلد في العادة سيفا يبدو طرفه من تحت برنوسه . الملك يتوجه بالخطاب للسفير الالماني الذي يحمل قبعته في يده بينما الترجمان يؤدي واجبه . لقد تم الاستقبال بمشور باب البوجات من مدينة فاس، ويلاحظ في الصورة جانب من جبل زالغ وبرج النور المشرف على المدينة .
تصوير بيركمان وهي محفوظة في الخزانة العامة بالرباط



السلطان الهمام سيدي محمد بن عبد الرحمن (محمد الرابع) يستقبل السفير البريطاني المستر جان هي درمنضوهي (1276 هـ 1859 م) . بعد وقف وقبعته في يسراه ـ يقدم اعضاء السفارة ونلاحظ عقيلة السفير وكريمته وقد استأذنتا في مشاهدة المشهد الفريد .
ابن زيدان : الاتحاف ، المجلد 3 ص . 366 ـ 367

لقد كانت مدينة مكناس كأي عاصمة في الدنيا معروفة لدى قادة العالم بقصورها المتعددة ومبانيها العظيمة وبساتينها الفسيحة وترتيبها المتقن ، تحدث عن هذا سائر الذين تمكنوا من زيارتها والمقام بها حديثا وصفيا واعطوا صورة صادقة للكيفية التي كان يتم بها استقبال السفراء الاجانب ، ونذكر على سبيل المثال الاحتفال الذي اقيم لاستقبال السفير الفرنسي سان اولون سنة 1662

لكن اهم من اعطى وصفا دقيقا لاحدى الحفلات التي تم فيها استقبال السفير البريطاني شارلس ستيوارت في بداية القرن الثامن عشر هو (جون وينداس) الذي كان مرافقا للسفير البريطاني الوارد على العاصمة : مكناس ، من اجل مهمة خاصة : تصفية قضية الاسرى الانجليز الذين كانوا في قبضة السلطان المولى اسماعيل بعد الحملة المغربية ضد الوجود البريطاني في طنجة ، وكذلك الاسرى المغاربة الذين وقعوا في قبضة البحارة البريطانيين .

عندما وصل سفير صاحب الجلالة جورج الاول ملك بريطانيا الى جبل طارق اتصل بالباشا السيد احمد بن علي الريفي عامل مدينة تطوان ليلتمس منه استئذان صاحب الجلالة اسماعيل في دخول الديار المغربية والالتحاق بعاصمة العلويين . وبعد ايفاد رجال البريد الذين يعرفون في المغرب باسم الرقاصة ، بعد ايفادهم لمكناسة الزيتون اعطى العاهل المغربي موافقته لمثول السفير البريطاني بين يديه ، وهكذا بعث عامل تطوان يخبر السفير ستيوارت بالترحيب به في بلاط المولى اسماعيل ، وحينئذ ابحر الدبلوماسي البريطاني من جبل طارق وحل بتطوان يوم الثلاثاء 9 رجب سنة 1133 هـ (6 ماي 1721) . وهنا اقام في ضيافة رجال السلطة بضعة عشر يوما ، بتعليمات خاصة من لدن السلطان المعظم ، حيث تمت بالضبط معرفة اهداف السفارة ودرست الامكانيات المتوفرة لارضاء مطالبها .. وفي عصر يوم الجمعة 17 شعبان من السنة (3 يونيه 1721) ودع السفير مدينة تطوان متجها الى مكناسة يصحبه علاوة على حاشيته وعلى الخصوص سكرتيره الخاص (جون ويندإس) ـ علاوة على ذلك ـ موكب هام من كبار الموظفين على راسهم عامل المدينة مع جريدة من الخيل وكوكبة من الحرس. وكانت تهيأ لهم افخر الخيام واحسن البيوت عندما تدركهم المراحل في الليل ، تكريما لهم باعتبارهم سفراء لجلالة الملك جورج الاول . ولم تزل السفارة توالي سيرها الى ان حلت القافلة مدينة مكناس قبيل شروق شمس يوم الاثنين 8 رمضان 1133 (3 يوليو 1721) هناك وجدوا عامل مدينة تطوان ـ الذي كان قد سبق الموكب عند المرحلة الاخيرة ـ في استقبال السفير وحاشيته .. وهناك تشكل وفد هام على احسن ترتيب وقصدوا دار الاستراحة التي كانت بالذات البيت الخاص لعامل تطوان ..

ولما كان الملك المعظم يدرك حاجيات السفراء الاجانب الذين نشأوا عادة في بيئات خاصة تتطلب نوعا من الحياة قد لا يتوفر عادة في الاستراحة الريفية ، لما كان ذلك اصدر تعليماته رحمه الله بانتقال السفير البريطاني الى دار اخرى للضيافة لانها كانت اوفق للسفارة واضمن لراحتها ، تلك هي دار احد تراجمة البلاط الاسماعيلي واحد امنائه في الوقت نفسه ابن عطار الذي كان على خبرة تامة بالوسط الانجليزي وحالته الاجتماعية والذي قام بعدة اسفار الى اوربا وخاصة بريطانيا .

. . . . .

لقد كان السفير البريطاني اشعر بان استقباله سيتم صباح يوم حادي عشر من رمضان (6 يوليه) وهكذا كان السفير على اتم استعداد هو واعضاء السفارة هذا الصباح ..

وكانت العادة تقتضي منذ ذلك التاريخ المبكر ان ياتي الحرس الخاص لمحل اقامة السفير لمرافقته الى رحاب الملك . وفعلا توجه السفير بمن في معيته ممن وردوا معه . ويذكر (جون ويندإس) ان الموكب الدبلوماسي الذي كان يمتطي جميعه عتاق الخيل واجود المراكب ، كان يتقدمه رجلان من الحرس الملكي في بزتهم الرسمية الجميلة بالاضافة الى لفيف من الفرقة الموسيقية العسكرية تصدع بنغماتها في اجواء شوارع مكناس المؤدية الى **باب السفراء (باب منصور العلج)** حيث يترجل السفراء لدخول القصور الملكية ، ويتبع الجوقة الموسيقية مباشرة سعادة السفير الذي كان يرتدي اللباس الرسمي وقد احدق به رجال حاشيته واتى من بعدهم من جاء في رفقته من الخدم والحشم .

كان موكبا رائعا وقف لمشاهدته الناس عن بعيد اذ كانت التعليمات الصارمة تقتضي افساح الطريق حرة في وجه السفراء المعتمدين لدى جلالة الملك . ولم يسمح لاحد بالقرب من الموكب باستثناء رئيس بعثة الشرف باشا تطوان . ومن الطريف ان نسمع عن نوع من المجاملة او نوع من التعبير عن الحالة



السلطان الهمام المولى عبد الرحمن ابن السلطان المولى هشام يستقبل بمدينة مكناس الكونت دومرسي سفير لويس فيليب ملك فرنسا يوم الاربعاء (20 رمضان 1247 هـ 22 مارس 1832 م)

ابن زيدان : الاتحاف ، 5 ص . 159



بسم الله الرحمن الرحيم

1202

بعث جورج واشنطن اول رئيس للولايات المتحدة الامريكية سفيره طوماس باركلي الى السلطان سيدي محمد بن عبد الله (محمد الثالث) يطلب اليه ان يبذل مساعيه الحميدة بين ليبيا وتونس من جهة وبين امريكا من جهة اخرى ، وهذا جواب العاهل المغربي على سفارة الرئيس الامريكي ، وهو بتاريخ 15 شعبان 1202 (17 غشت 1788) يعده بالتدخل وكان ممن حضر استقبال السفير الامريكي من المغاربة قائد طنجة الطاهر فنيش .

الحسنة التي يعامل بها الاسرى البريطانيون ، ذلك ان الملك امر بان يسير في مؤخرة موكب السفير البريطاني جميع الاسرى البريطانيين الذين كانوا بالحضرة المكناسية راجلين حتى يعطي البرهان على انهم يتمتعون باكثر ما يمكن ان يتمتع به الاسرى على ذلك العهد .

ولما وصلوا الى (باب منصور العلج) ترجل السفير وسائر من كان بمعيته من الركبان ، وبعد ان اديت لهم التحية بالباب المذكور تقدموا داخل المشور وبعد ان مروا على بضع براحات جلسوا على دكة كانت لهم في انتظار طلعة الملك ، وبعد ردح من الزمن سمع السفير اصداء « التحية الملكية » التي اعتاد الحراس تاديتها والتي ما تزال الى الآن التعبير المحبب عن الاخلاص والولاء ... وهذه التحية الظاهرة هي « الله يبارك في عمر سيدي » يهتف بها جماعيا .. سمع السفير تلك الاصداء فاعلم بخروج السلطان من بيته، وهنا وبعد برهة صدر اذن للسفارة بمقابلة الملك المعظم ، وصحبته الشريفات الى الردهة الكبرى حيث يستقبل السفراء الاجانب ، ولقد لمحت البعثة الدبلوماسية جلالة الملك ممتطيا صهوة جواده وعلى راسه مظلته التقليدية يحملها ويسيرها ببراعة فارس من الوصفان الاقوياء النشيطين كان يتبع الجواد حيثما مال لكي لا تنال الشمس من الملك الهمام ، ووراء جلالة الملك كبار الحراس وقد اصطفوا على صورة هلال في نصف دائرة ، وعلى كل واحد منهم بندقيته وسلاحه يحملونها على اكتافهم رؤوسها الى السماء وهم ملتزمون مكانهم كانما نبتوا هناك .. والى جانب هذا المشهد الرائع والجميل كذلك وقف ارباب الدولة واعضاء الحكومة مصطفين في ترتيب محكم صفان عن يمينه ؛ وصفان عن شماله . والجميع يلبس الزي الرسمي للدولة .. البياض .. هذا الى اصوات شجية تنبعث من هنا وهناك لمزيج من الآلات الموسيقية تردد اصداءها جنبات القصر الفسيح ..

ظل السفير يشاهد ويسمع طيلة اختراقه ممرات القصر نحو الرحاب الملكية ؛ ولما لم يبق بينه وبين الملك الا نحو من سبعين مترا ؛ صدرت اشارة لهم بالوقوف كما صدرت اشارة للجوق الموسيقي بالسكوت ، وهنا نزع السفير قبعته وتبعه اعضاء السفارة ، اذ ذاك نزل السلطان عن فرسه بخفة ولياقة اثارت انتباه الضيوف البريطانيين ، لكن الامر الذي لفت نظرهم اكثر هو ان الملك العظيم قبل ان ياذن لهم في الحديث توجه نحو القبلة ، فسجد سجود الشكر على ما اولاه الله من نصر وتوفيق ، ثم عاد فركب فرسا له ادهم لم يكن يبدي حراكا من تحته ؛ لقد كان فعلا من احسن الجياد واكثرها ادبا وتربية .

وقد وقف الى يمينه بعض الوصفان يلوحون في الهواء بالمنديل التقليدي الابيض كانما يكيفون الهواء من حوله ، كل هذا والمظلة فوق راسه لا يفارق ظلها ذات جلالة الملك على النحو الذي قدمناه .

لقد كان عمر الملك فيما يظهر يتجاوز الثمانين ومع ذلك فقد كان يحتفظ بجميع اسنانه ، وكان كامل النشاط بادي الحيوية ، وكان يتقلد سيفا قد غشي بالذهب ، بينما يلاحظ الى يسار السرج كابوس مفضض ، .... شيء رائع وعظيم حقا ... ولما امتطى صهوة فرسه قدم الترجمان ابن عطار سفير بريطانيا الى جلالة الملك بعد ان سماه باسمه « شارلس ستيوارت » ثم صفقنا امام السلطان على خط افقي ، يقول الدبلوماسي البريطاني : وادينا التحية الملكية « الله يبارك في عمر سيدي » واومانا له براسنا وقد رحب العاهل المغربي بالسفير البريطاني مرددا عبارات بونو بونو Bono-Bono

ثم تلطف جلالة الملك واذن للسفير بان يرد قبعته على راسه ، ويظهر ان السفير لم يبق بينه وبين العاهل الا نحو من خطوة او خطوتين لان مؤرخ الرحلة امكنه ان يشاهد اثر بعض التراب عالقا بجبهة المليك التقي العابد بعد ان ادى سجود الشكر لله ...

وهنا وبعد تبادل العبارات الودية قدم السفير ستيوارت الرسالة التي بعث بها الملك جورج الاول الى السلطان المولى اسماعيل وقد كانت ملفوفة في الحرير قائلا : « ان جلالة ملك بريطانيا العظمى شرفني بالسفارة لدى جلالتكم لاعبر لكم عن تحياته ومتمنياته ولاعرب لكم عن رغبته الصادقة في مصادقتكم وربط اواصر المحبة بين الدولتين .. مذكرا بان جلالة ملك بريطانيا يكن الكثير من التقدير لجلالة امبراطور المغرب ولذلك فانني ارجوكم — يا صاحب الجلالة — ان تقبلوا الهدية التي بعثها جلالة ملك بريطانيا الى جلالتكم كتعبير عما يتقصده من صداقتكم » .

وقد اجابه العاهل المغربي مقدرا عواطف عاهل بريطانيا حياله ، ومذكرا بانه سيسعده ان يستقبل هدية صديقه جورج الاول . ثم اشار للسفير في عبارات رقيقة بانه سيسعفه في الغرض الذي اتى من اجله » .

p. 51 120

between our countries to be maintained and conducted in a manner agreeable to your Majesty and satisfactory to all the Parties concerned in it.

May the Almighty bless your Imperial Majesty, our great and magnanimous Friend, with his constant guidance and protection.

Written at the City of New York the first day of December 1789.

Signed G. Washington

To our great and magnanimous Friend
His Imperial Majesty
The Emperor of Morocco.

The President of the United States hath read with attention the papers herewith returned relative to our affairs in Morocco: — and, as far as he can form an opinion without knowing the contents of Giuseppe Chiappe's letters of the 25th of April and 18th of July 1789 or translation thereof, very just approves the draught of the letter to the Emperor and Giuseppe and Francisco Chiappe and wishes, as the [illegible] [illegible] require it that they may be forwarded by the first good conveyance that offers.

December 1. 1789

To [illegible] Mr Jay

فقرات من الجواب الطويل الذي حرره جورج واشنطن يشكر وساطة الملك « ... لقد كان للبادرة التي تفضلتم بها جلالتكم اثر عميق في الولايات المتحدة التي تؤكد تقديرها لشجاعتكم وحكمتكم واريحيتكم ... » ومن المعروف ان هذه الوساطة اخرت الاصطدام بين الاسطول الامريكي والليبي حقبة من الزمن .

وبعد تبادل الخطابين جرى حديث بين الجانبين المغربي والبريطاني حول الاسرى .. **لقد ابدى العاهل المغربي اهتماما كبيرا بالاسرى المغاربة الذين ما يزالون فى بريطانيا سائلا عن احوالهم وظروف عيشهم** وقد اقترح باديء الامر ان يصنفوا صنفين : الضعاف والاغنياء ، اما الضعاف فان الدولة المغربية تفديهم ، واما الاغنياء فيتم الاتصال بذويهم لافتدائهم ولكن جلالة الملك استدرك على هذا بقوله موجها خطابه للسفير البريطاني وكانه يوحي اليه بحل آخر فيه مثالية اكثر وفيه تعبير اقوى عن الصداقة المتحدث عنها ... قال السلطان المولى اسماعيل : « ولكننا نعلم ان الانجليز لا يسمحون لانفسهم بالبيع والشراء فى الاسرى » وهنا افسح المجال للسفير البريطاني ليتمنى على جلالة الملك ان يفعل مثل هذا مع الاسرى البريطانيين ويمن عليهم بالرجوع الى اوطانهم قائلا : ان ذلك منكم سيكون تكرما عظيما .. وبينما كان جو الحديث يسير نحو انفراج اكثر ، واذا بكلمة تنفلت من السفير — **وكلام السفراء محسوب عليهم !** — عن غير قصد قطعا فتلبد المناخ بعض الشيء ... لقد قال السفير « ان التماسنا للافراج عن الاسرى البحرية ليس يهم ملك بريطانيا فان باستطاعته ان يفتدي مائة الف بحري كل عام لكن الباعث للسفارة هو ازالة العار عن بريطانيا ... »

ويحكي سكرتير السفارة ان الامبراطور المغربي ربما كره تحول اسلوب السفير من باب المجاملة والمكارمة الى المماحكة والمناقشة . ولهذا فان السلطان اوما للترجمان بضرب الصفح عما يقوله السفير حول هذا الموضوع .. وسرعان ما عادت المياه الى مجاريها واسترجع السفير انفاسه ليذكر المنهاج الذى كان عليه ان ينفذه فى هذا اللقاء ، وهكذا اخرج من حقيبته النصوص المقترحة للمعاهدة (المغربية البريطانية) قائلا انها مصادق عليها سلفا من جلالة جورج الاول ملك بريطانيا. فاجاب العاهل المغربي : « ان قولنا كخط يدنا ولذلك اذا اعطينا كلمة عملنا على انجازها » .. ثم وعده بدراسة الموضوع واخبر السفير البريطاني بان النية متجهة الى ارسال سفارة مغربية لدى الملك جورج لتكون بمثابة جواب على هذه السفارة ، وبمنزلة رد للزيارة ، وان البعثة ستكون برئاسة السفير الحاج عبد القادر بيريس ..

وقد كان من التقاليد تقديم التمر والحليب الى الضيوف السامين بيد انه نظرا لمصادفة الوقت لايام رمضان ، فقد فضل العاهل المغربي ان يقدم مفاجأة لضيفه تعوض ذلك التكريم ، ذلك انه اذن لضيفه ان يختار تسعة من الاسرى البريطانيين يصحبهم معه منذ اللحظة . وبعد تقديم آيات الشكر والامتنان لجلالة الملك كان الوقت قد حان للانصراف ، وهكذا استاذن السفير البريطاني ، وحيث ان قواعد البلاد تمنع من استدبار السلطان فقد رجعنا — يقول جون ويندلس — القهقرى مودعين الرحاب الملكية ..

• • • • •

وبعد انتهاء هذه المقابلة اذن السلطان المولى اسماعيل امينه وترجمانه ابن عطار بالقيام بجولة صحبة السفارة البريطانية فى القصور السلطانية ، فكانت جولة جد ممتعة للدبلوماسيين البريطانيين ليس فقط فى قصور السكنى ولكن ايضا فى مخازن السلاح ، وقد دهشت البعثة من ترتيبها وصيانتها فى اغشية خاصة بها حتى لا تتعرض للتلف ... وقد كان ابرز ما لفت نظر السفير البريطاني ورفاقه عرض ابواب مدينة العرائش التى اقتحمتها جيوش السلطان المولى اسماعيل مطاردة القوات الاسبانية عنها ... ومر الموكب بجوانب القبة الخضراء التى كانت تسكنها الاميرة الجليلة العالمة لالة خناثة بنت بكار ... ووقفوا على العربة التى يركبها الملك للتجول فى حدائق القصور ..

وعند رجوع الوفد من تجوله صادفوا العاهل المغربي وهو راكب على فرسه يتفقد مخزنا كبيرا للسلاح والرماح يكفي ان نعرف عدد القيمين عليه ثمانية وعشرون ، كانوا كلهم بالصدفة اسرى من اصل بريطاني .. ولما اقترب الوفد من موكب الملك المقدس حياهم بقوله « بونو ! بونو ! » وسالهم عن انطباعاتهم حول القصور العلوية ، وقد اشاد السفير البريطاني بعظمتها مؤكدا انها من احسن قصور بلاد الله ، فقال الملك العظيم « الحمد لله » وبينما العاهل المغربي **فى حديثه الودي** مع السفير البريطاني مر بجانبهما فريق من القيمين المذكورين ، وعلى العادة ادوا التحية الملكية المعهودة : « الله يبارك فى عمر سيدي » فسالهم السلطان المولى اسماعيل عن جنسيتهم فقالوا : انهم انجليز وكان السفير يسمع ... فكانت التفاتة اخرى من الملك العظيم .. لقد من عليهم جميعا بالافراج من الاسر واذن لهم فى مرافقة السفير على الفور .. فادى السفير آيات الشكر للملك على مبادرته الطيبة .



بعد سفارة تونس للمملكة المغربية ورد على المغرب السفير العميد الحاج عبد الرحمن آغا – مبعوثا من الباشا علي القرمانلي أمير ليبيا وجاء ليشكر بدوره المساعي الحميدة التي قام بها المغرب ، وقد اقيمت للعميد آغا مأدبة غداء كبرى بمدينة مراكش في منتصف رجب من عام 1204 هـ ربيع 1790 .

من توللي : عشر سنوات في طرابلس ص 31 – 533



السلطان العظيم سيدي محمد بن عبد الله (محمد الثالث) في جلسة ودية مع سفير الدانمارك الذي يتقدم اعضاء السفارة . وقد جلس الى يمين الملك بعض الوزراء والعلماء

من تاريخ القنصل هست 1195 هـ 1787 م



هذا هو الباب الذي كانت تؤدى فيه التحية للسفراء قبل ان يصلوا الى البراحات المؤدية الى الرحاب الملكي المخصص لاستقبال الدبلوماسيين ، هو باب المنصور العلج الذي يسترعي الى الآن انتباه زوار مدينة مكناس ، وهو فعلا عظيم رائع حتى لتتحدث الاسطورة انه من صنع العفاريت .



استقبال الامبراطور المولى اسماعيل سلطان المغرب لسفير فرنسا المسيو سان أولون سنة (1693 م) بقصور مكناس

وفي يوم 16 رمضان من السنة 1133 (7 يولية 1721) بعث اليهم جلالة السلطان قائد المشور من اجل القيام بجولة ثانية للوقوف على معالم جديدة . لقد وصلوا عند الساعة التاسعة صباحا الى معمل ضخم كان يزخر بالعملة من مختلف الاعمار . فيهم الرجال وفيهم الشباب وفيهم الاطفال كذلك . كان بعضهم منهمكا في صناعة السروج ، وبعضهم في صناعة البنادق ، والبعض الآخر في صناعة اغشية السكاكين والسيوف .. ثم بعد ذلك مروا ببناية عظيمة فخمة ولكنها غير مزخرفة وعلى ابوابها عدد من الوصفان .. وهنا قدمت اليهم اصناف من الفواكه ؛ فيها الطري وفيها المجفف وكان منها التمر والزبيب والتين .. واعتذر الوصفان بأن شهر رمضان كان يحول دون ايقاد النار لاجل احضار الطعام . ثم استأنفت السفارة جولتها فمروا بالخزينة المالية ثم بهري آخر للسلاح والدروع والمجنات .. وفي هذه المعدات ما اخذ من جنود دون سباستيان في واقعة وادي المخازن ومنها ما غنمه الجند في حملة السلطان المولى اسماعيل ضد جيوش الاحتلال التي كانت بالامس تربط على السواحل المغربية .. ثم زار الضيوف المكتبة الملكية التي كانت تتوفر على عدد مهم من المخطوطات في مختلف الفنون ، ثم قاموا بزيارة لبعض القباب الداخلية حيث شاهدوا سقفها ــ كما يحكي وبنداس ــ وقد اكتسى كله لونا ازرق وطرز بصور النجوم والكواكب بما في ذلك قرص الشمس حتى ليخيل اليك انك امام افق السماء ... وقد تطعم كل هذا بالذهب ، الامر الذي كان بحق شاهدا على المهارة والعظمة وقد وضعت في جوانب بعض القباب طائفة من العربات التي اهديت للامبراطور من ملوك اوربا ... وقد ارتاح السفير جدا عندما وقف على (ثريا البلور) الفخمة التي كان قدمها بالامس هدية من جورج الاول ، رآها وقد علقت في احدى القباب ..

هذا وفي اثناء المفاوضات حول الموضوع الذي ورد السفير من اجله للمملكة المغربية حدث ان استهدفت المحادثات لبعض الصعوبات الامر الذي كاد يقضي الى فشل المهمة لولا التجاء السفير البريطاني لامين السلطان وترجمانه الذي اشار عليه بأن يتوسل بالاميرة الجليلة لالة أم العز التباع التي كانت كالشأن في الاميرة العالمة حائزة على جانب كبيرة من الثقافة السياسية ... وهكذا حرر رسالة للاميرة يشرح فيها الامر . وكان ان توسطت الاميرة لدى زوجها السلطان المولى اسماعيل ثم كتبت الاميرة للسفير شارلس ستيوارت رسالة تبشره فيها بانها رفعت الامر لمولانا امير المومنين .. وقد تم يوم 28 رمضان (23 يوليه) استقبال كان كبيرا للسفير البريطاني بمناسبة استئذانه بالسفر وقد تمت المقابلة على نحو ما كان في المرة الاولى من ترتيب وتقليد .. وقد طلب العاهل المغربي من السفير ابلاغ سلامه الى جلالة الملك جورج الاول .

وقد كانت العادة الملكية ان تهيأ للسفير طائفة من الهدايا الرفيعة تقدم له بمناسبة استئذانه بالسفر تكون بمثابة وسام تقديرا له على ما بذله من مجهود ؛ وتخصص جانب من الهدايا لرئيس الدولة يصحبها معه السفير وكثيرا ما تكون هذه الهدايا من الانتاج المغربي: اقمشة رفيعة صياغة رائعة او جياد عتاق .. وفي بعض الاحيان كانت هدايا المملكة اسدا وربما ايضا قطيعا من النعام ، وفي بعض الحالات كان السفراء الواردون يوعزون برغبتهم في نوع معين من الهدايا ..

ولكن هل كانت التقاليد تعفي السفير من القيام بزيارات المجاملة لبعض الامراء والوزراء ؟ لقد كان على المبعوثين الدبلوماسيين ان يتعرفوا على اكثر عدد ممن من كبار رجال القصر الملكي ، ومن رجالات الدولة ، وهكذا نرى السفير شارلس ستيوارت يقوم بزيارة للامير مولاي عبد الله في قصره ضاحية مكناس حيث قضى معه وقتا غير قصير كان يقوم فيه بدور الترجمة والتعريب احدى الاسرى البريطانيين الذين تحرروا منذ بضعة ايام من لدن السلطان المولى اسماعيل .. وقد تحدثت بعض المصادر البريطانية عن انطباع ستيوارت ورفيقه حول هذه الزيارة ، التي ادخلت على الضيوف كثيرا من السرور حيث تمكنوا من الحديث مع الامير الشاب الكريم السخي وهو يتفرج على سبع كان عنده في حديقته .. لقد صادفت هذه الزيارة يوم عيد الفطر 25 يوليه 1721 وبهذه المناسبة فقد تناول السفير ستيوارت ما لذ وطاب من المشروبات والحلويات ...

وبعد زيارة الامير مولاي عبد الله كان على موعد مع الامير المولى علي الذي كان اعد احتفالا شيقا توديعا للضيف البريطاني ... وقد طاب المجلس الذي كانت تتخلله نوبات شجية من الآلة وحضر وقت العشاء فتناول الدبلوماسيون مختلف اشكال الطعام التي بلغت على حد تعبير شاهد العيان ازيد من عشرين نوعا من مختلف ضروب اللحوم وضروب الطيور ...

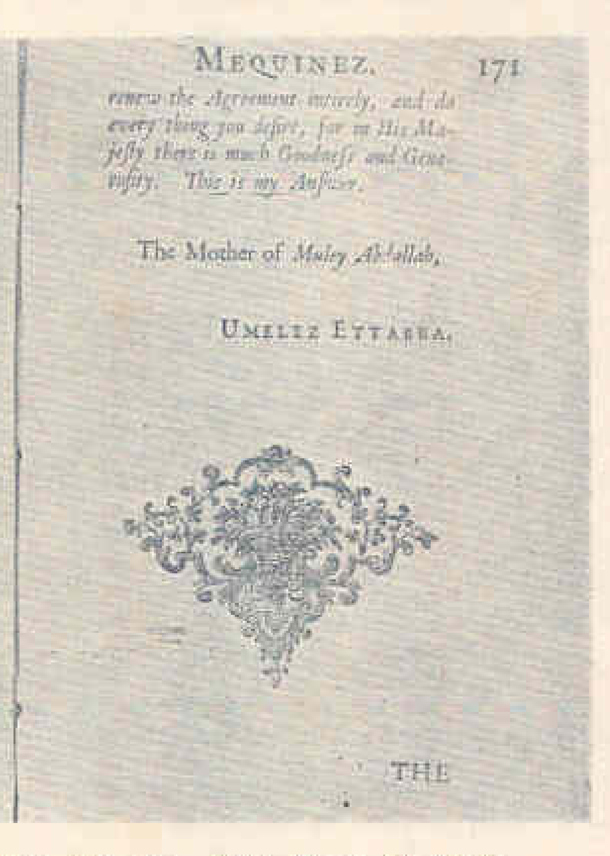


السفير البريطاني شارلس ستيوارت مبعوث الملك جورج الاول يؤدي التحية للامبراطور المولى اسماعيل يوم 11 رمضان 1133 (6 يوليه 1721) باحدى رحاب القصر الملكي بمدينة مكناس ، وقد وقف ابن عطار على يمين العاهل ليقوم بدور الترجمة . الرسم بريشة الفنان السيد صلاح جياد من مدينة (البصرة) .

170 *A Journey to*

rest that your Excellency says, you may be assured his Majesty will conform to your Inclinations, in every Thing that shall be proposed. I know well it is true, that his Majesty was not acquainted with the Particulars of the Agreement, and quantity of Powder, Brimstone, and the rest of the Things: Because my Master thought your Excellency only came hither to Confer with him, and then to return to Gibraltar *to consult with your People, before any thing should be concluded: That was the Thoughts of my Master.*

And concerning the Christians your Brethren, who are here Slaves, his Majesty knows not how many there were, because some of them had turned Moors, *and others were Dead. But now since your Excellency has declared your Design to me, there is no Occasion to apply to* Basha Hamet, *or any Body else, for I will speak to my Master (whom God preserve) to the End that he may renew-*



MEQUINEZ. 171

renew the Agreement intirely, and do every thing you desire, for in His Majesty there is much Goodness and Generosity. This is my Answer.

The Mother of *Muley Abdallah,*

UMELEZ ETTABBA.

THE

الفقرات الاخيرة من الرسالة التي بعثت بها الاميرة الجليلة ام العز التباع جوابا على رسالة السفير ستيوارت ، وهي تدل على الدور الذي كانت الاميرات المغربيات يقمن به في الميدان الدبلوماسي منذ زهاء ثلاثة قرون .
من (رحلة الى مكناس) لجون ويندايس .



خاتم السلطان العظيم المولى اسماعيل .. من التقاليد المعروفة ان الملوك يكتفون عن خطوط ايديهم بتتويج الرسائل بالخاتم الملكي . ولقد نقش في داخل الطابع توقيع (اسماعيل بن الشريف الحسني ايده الله) ونقش في الدائرة المحيطة الاية الشريفة (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا) .

والى جانب الامراء كانت تنظم للسفير حفلات تكريم على شرف السفير قبل عودته لبلاده ولم يغفل احد من السفراء الذين ترددوا على المغرب الكلام عن المائدة المغربية الشهية ، ولكثر ما كان الوزراء والقواد يتبارون في تكريم الضيوف كان هؤلاء يلاحظون أن المائدة المغربية دسمة باستمرار ، وانه لا يوجد فرق بين الاكل عند هذا او ذاك .. البسطيلة ، المشوي ، والدجاج ، والكسكس ، هو اكل كل البيوت في كل يوم ..

وبعد فذاك هو مغرب الامس باصالته وامجاده واعرافه ، وهو نفس المغرب اليوم لم يتاثر بالعواصف التي مرت من حواليه ، ولا بالزوابع التي ذهبت بكثير من معالم الآخرين وذلك هو السر الذي آثر الله به بلاد المغرب الذي تحدثت عنه الوثائق الاجنبية في تقدير واكبار وتحدثت عنه المصادر الوطنية في فخر واعتزاز .

بغداد ـ عبد الهادي التازي



مقدمة :

يمتاز النصف الاول من القرن الثالث عشر للهجرة بنشاط متزايد للاتصالات وتوطيد العلاقات بين المغرب الاقصى من جهة ، واقطار المغرب العربي والسودان الغربي من جهة أخرى ، وقد اسهم السلطان العلوي المولى سليمان بنصيب في تنمية هذا التعاون ، ومواصلة سيرة اسلافه في هذا الميدان ، واول بادرة منه في هذا الصدد : هي المعونة العسكرية التي قدمها المغرب الى ليبية ضد حصار مدينة طرابلس من طرف الاسطول الامريكي .

ففي عام 1217 هـ / 1803 وجهت امريكا اسطولها الحربي لحصار « طرابلس » التي كانت سفنها تضر بالسفن الامريكية آنذاك ، فهب المغرب لنصرة القطر الشقيق ، وسار الاسطول المغربي يسابق الرياح ، حيث كانت سفنه خفيفة ، جامعة بين الشراع والمجاديف ، وبهذا كانت قوة سيره مضاعفة ، فسبق الاسطول الجزائري ، وما كاد الاسطول الامريكي يصل الى طرابلس حتى اعترضه الاسطول المغربي فقطعه عنها وابلى بلاء حسنا ، فلم تمر الا هنيهة حتى صيره على وجه الماء ، ولما بلغ هذا مسامع امريكا بعثت عمارة اخرى الى طرابلس ولكن لقيها الاسطول المغربي ثانيا فبدد العمارة الامريكية (1)

وفي عام 1218 هـ/1803 — 1804 م — اوفد باي تونس حمودة باشا الى السلطان المولى سليمان سفارة برئاسة الشيخ ابراهيم الرياحي ، وكان كتاب السفارة يتضمن طلب الامداد بالميرة للامة التونسية التي كانت في مسغبة ، وامتدح رئيس السفارة السلطان المغربي بقصيدة مطلعها :

ان عز من خير الانام مزار
فلنا بزورة نجله استبشار

قال في « الاستقصا » (2) : فاعجب السلطان ومن حضر بها ، وامده بمطلبه من الميرة وبهدية جليلة ، وآب الشيخ من سفارته بخير مئاب .

وفي عام 1225 هـ /1810 م وفد على نفس السلطان الشيخ عثمان بن منصور التواتي سفيرا عن محمد الباقري امير آهر بالسودان الغربي، وقد اهتمت الرسالة السودانية — التي حملها السفير — باطلاع سلطان المغرب على حركة الجهاد القائمة في هذه الجهات ضد الكفار بقيادة الشيخ الامام عثمان بن محمد ابن عثمان بن صالح الفلاني ، وقد اجاب السلطان المغربي عن هذه الرسالة بكتابين : بعث باحدهما للامير الباقري ، والثاني للمجاهد الشيخ عثمان ، ويتضمن الكتابان تنويها حارا بما يتعاونان عليه من الجهاد ، وتشجيعا لهما على الاستمرار في هذه الخطة الاسلامية وجاء في اواخر الجواب السليماني للباقري : « ويصلك الطابع الذي بعثت عليه على الوصف الذي أشرت في كتابك اليه » ، ويحمل هذا الجواب تاريخ اواسط

1) من مقال للمؤرخ المغربي المرحوم محمد بن علي الدكالي نشره في جريدة المغرب « عدد ممتاز » رقم 346 ، السنة الثالثة .

2) ط . دار الكتاب ، ج 8 ص 118 ، وانظر « اتحاف اهل الزمان » لابن ابي الضياف ج 3 ص 39 ، ولا تزال نصوص مراسلات هذه السفارة غير معروفة .

جمادى الثانية ، عام 1225 ، وهو — تقريبا — نفس الواقع في جواب الشيخ عثمان ، المؤرخ في 18 جمادى الثانية من نفس العام (3) .

وفي عام 1226 هـ / 1811 م انعقدت مصاهرة بين المولى سليمان واحد اعيان عرب طرابلس من قبيلة الحنانشة ويعرف بسيف النصر ، حيث تزوج السلطان المغربي من كريمة سيف النصر ، بعد ما كانت اختها في عصمة السلطان اليزيد ، وقد احتفل امير ليبية يوسف باشا آتي الذكر في وفادة عروس المغرب ، ووجه معها عشرة من امراء البحر ، واثنين من فقهاء طرابلس برسم مباشرة العقد ، وجارية لخدمتها ، مع طائفة من الجواري المغنيات العازفات ، وكان سفرهم من مرسى طرابلس على طريق البحر ، ولما نزلوا بالعرائش كان معهم اثاث كثير للنساء فيه مال جسيم ولباس وفرش : حمولة 130 بغلة بعث بها سلطان المغرب للمرسى المغربية صحبة وفد الاستقبال برئاسة محتسب مكناس العاصمة الحاج الطاهر بادو، وفي 13 شعبان من نفس العام وصلت الاميرة الليبية لفاس فتلقاها جيش الوداية في زي عجيب ، واحتفى ابو الربيع بالوفد القادم مع العروس ، ووهب لكل من من امراء البحر والفقيهين مالا جزيلا ، واهدى لامير ليبية مركبا بحريا ، ثم شرع في تصميم بناء قصر فاخر بفاس الجديد لسكنى العروس القادمة (4) .

ومن مظاهر هذه العلاقات الاخوية في نطاق المغرب العربي ، ان المولى سليمان اهدى قطعا من الاسطول المغربي لكل من الجزائر وليبية حينما اضطر لحل هذا الاسطول عام 1233 هـ (5) .

وفي عام 1234 هـ/1818 م وقع اعتداء الاسطول الانكليزي على الجزائر ، وفي هذا الصدد ندب نفس السلطان نجله الامير ابراهيم ان يبعث الى باي القطر الشقيق كتاب مواساة في هذا الحادث ، وكان الذي باشر انشاءه هو الاديب الشهير ابو حامد العربي الدمناتي من اعيان كتاب البلاط السليماني (6) .

*

وبعد هذا نقدم ثلاث رسائل صادرة عن السلطان المولى سليمان لامير ليبية يوسف باشا ، الذي صار واليا عليها من اواسط عام 1210 هـ / 1796 م ، الى ان تنازل لاكبر اولاده علي بك اوائل عام 1249 هـ ، وهو من اسرة آل « قره مانلي » الذين تداولوا ولاية طرابلس وما اليها ، وكان آخرهم علي بك آنف الذكر، وقد استطرد ذكر يوسف باشا هذا محمد بن عبد السلام الناصري في رحلته الصغرى (7) ، واثنى عليه بالحزم والضبط ، ونعته بمحبة اهل الدين ، وقمع الاشرار المعتدين .

ويلاحظ ان هذه الرسائل ظلت مجهولة فيما وقفت عليه من المصادر المغربية والليبية التي تؤرخ هذه الفترة ، وقد استمرت دفينة في كناشتين اثنتين ، حيث وردت الرسالة الاولى اثناء كناشة — غير مرقمة — للامير المولى عبد السلام بن السلطان المولى سليمان الذي اثبتها بخطه ، وترك بها بياضا في موضعين « المكتبة الملكية رقم 4001 » بينما احتفظ بالثانية، والثالثة الاديب المغربي العربي الدمناتي اوائل كناشته الغير المرقمة ايضا ، والمحفوظة بنفس المكتبة تحت رقم 3718 ، وقد كتبهما — معا — بخطه الدقيق المدموج ، مع التصريح عند تقديم الرسالة الثانية بانها من املائه ، ولاشك ان هذا — ايضا — شان الثالثة ، حيث تتشابه مع سابقتها في اسلوبها ، وتتحد معها في بعض فقراتها .

وتتناول هذه الرسائل تقرير اواصر المودة بين الطرفين ، والحديث عن المهادات ، مع اعلان استعداد

---

3) لا تعرف الرسالة السودانية الا بواسطة الجواب المغربي عنها ، وقد ورد الكتابان السليمانيان معا في « انفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور » للسلطان محمد بيلو ، طبعة مصورة عام 1951 — ص 178 — 181 .

4) « تاريخ الضعيف الرباطي » عند حوادث عام 1226 هـ ، مخطوطة خاصة .

5) « الاستقصا » ج 8 ص 133 .

6) الكتاب السليماني يوجد بخط منشئه ابي حامد الدمناتي في « كناشته » بالمكتبة الملكية بالرباط رقم 3718 ، وانظر عن هذا الاعتداء « كتاب الجزائر » للاستاذ احمد توفيق المدني ، الطبعة الاولى — ص 42

7) مخطوطة المكتبة الملكية رقم 121 ، وانظر عن ترجمته « المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب » تأليف احمد بك النائب الانصاري الطرابلسي ، نشر مكتبة الفرجاني ، طرابلس الغرب — ليبيا ، ص 328 — 354 ، وانظر عن ترجمة المولى سليمان « الاستقصا » ج 8 ص 86 — 174 .

المغرب لمواصلة العون العسكري مهما اقتضى الحال ذلك ، وفي هذا الصدد ورد في الرسالة الثانية : « لا نالوا جهدا في صلة نصركم ، واعزاز امركم ، واتساق سعدكم ، واسعاف قصدكم » ، وتبرز الرسالة الغاية من قطع هذا الوعد وتقول : « وقصدنا بهذا ان يعلم اعتناؤنا بامركم ، وعملنا على نصركم ، واهتمامنا بشانكم، ليقصر شاو عدوانها، وينضاءل طائر طغيانها» وفي هذا تلويح لمحاصرة الاسطول الامريكي لمدينة طرابلس ، وقد سبق ذكر بعض تفاصيل الحادث في صدر هذه المقدمة .

وورد في الرسائل الثلاث ذكر اغراض تطلب ليبية من المغرب انجازها دون تحديدها ، وقد تكون داخلة في نطاق الاسرار التي لا يباح للمراسلات افشاؤها ، اكتفاء بشرحها مشافهة من طرف القائمين بالسفارة .

وقد كتبت هذه الرسائل باسلوب حسن ، ومتفاوت بالنسبة للرسالة الاولى مع باقي الرسائل ، وجميعها غفل من تاريخ صدورها ، حيث لم يكن يهم الناقلين لها ، ونستطيع ان نتوصل الى تاريخ تقريبي لزمن كتابتها ، وهو الذي استندت اليه في ترتيبها ، فقد ورد في الرسالة الاولى : « ولقد جددتم من خالص المحبة القديمة عهودا .. اقتداء باسلافكم الكرام » ، ولم ترد هذه الفقرة في الرسالتين التاليتين ، فاستنتجنا من هذا أن هذه هي الرسالة الاولى بين الجهتين في العهد السليماني ، ثم جاء في الرسالة الثانية التلويح لحصار مدينة طرابلس من طرف الاسطول الامريكي ، وقد عرفنا ان هذا الحصار كان في عام 1217 هـ ، فتكون هذه الرسالة بعد هذا التاريخ قريبا منه ، وتكون الرسالة الاولى قبل هذا التاريخ : بين اواسط عام 1210 هـ حيث ابتدات ولاية الباشا يوسف ، الى عام 1217 هـ وهو تاريخ الحصار الامريكي ، اما الرسالة الثالثة فقد جاء في أواخرها الاعتذار عن ارسال الميرة الى ليبية بالغلاء الواقع في المغرب ، وشأن هذا الغلاء ان لا يكون في هذه الفترة قبل عام 1226 هـ/1811 — 1812 م، حيث أخذت الفتن تترادف على المغرب الى نهاية العهد السليماني (8) ، ومن المعروف ان الاضطراب يتبعه ارتفاع الاسعار .

وقد أثبتت نصوص الرسائل كما ورد في مصدرها دون ادخال اي تعديل عليها ، بما في ذلك بعض الاعداد التي لم تعرب في الرسالتين الاخيرتين ورسمت بشكل الارقام المغربية ، وهناك بياض وقع في الرسالة الاولى في موضعين ، وخرق طرا على ثلاثة مواضع من الرسالة الثالثة ، وقد أثبتت ذلك كما وجد ، ونبهت عليه في التعاليق ، كما نبهت على بعض عثرات وردت في الرسالة الاولى ، والله — سبحانه — ولي التوفيق .

— الرباط : محمد المنوني —

نصوص الرسائل

الرسالة الاولى :

« نحمد اللهم حمدا يطلق الالسنة ، ويوقظ القلوب من السنة ، ونوالي بالصلاة والسلام على سيد ولد آدم ، وعلى آله وأصحابه ما تشرف الامد بهم وتعاظم، وما جددت الرسائل من عهد تقادم . اما بعد : فهذا جواب من عبد الله المتوكل على الله سليمان بن محمد ابن عبد الله الحسني ، أحسن الله عقباه ، وشمله لطفه ورحماه ، الى الهمام المقدام المظفر، الشهم الكمي المجاهد الغضنفر ، ركن الدولة العثمانية ، وحامي حمى الثغور الاسلامية ، من ثبتت محبته في جانبنا بالتواتر والاجماع ، واقرت بذلك ضمائرنا فارتفع النزاع، الكفيل بنصر الملة والدين ، وزعيم أمراء الموحدين ، الحائز قصب السبق بتعظيم آل بيت المصطفى ، وكفى بانحياشه اليهم عزا وشرفا ، القائم بوظائف الجهاد عاما فعاما وشهرا فشهرا ، امير الثغر الطرابلسي وما والاه من الاقطار برا وبحرا ، السيد الكريم ، والخاقان العظيم ، ابو يعقوب (9) يوسف ابن علي باشا ، لا زال عزكم دائم الزيادة لا يبيد ولا يتلاشى، ولا زال ثغر هذا الدهر في وجوهكم (10) باسم ، وارجاؤكم — ابدا — معطرات النواسم ، وايامكم كلها اعياد ومواسم .

هذا وانهي لكريم علمكم ، وجميل حلمكم — مع تحيات تفاوح نسمات الروض المسطور ، وتسليمات تصافح افنان فنون الزهور ، ورحمة الله التامة ، وبركاته العامة — ان قد وصلتنا رسالتكم الرائقة الغراء ، فاقصمت (11) اسماعنا حسنا ، واعيننا

---

8) انظر « الاستقصا » ج 8 ، ص 114 وما بعدها .

9) كذا .

10) كذا .

11) تصحيف عن افعمت .

سحرا ، مع ما اشتملت عليه من لطائف الاشارات ، ومحاسن الكنايات ، كل سطر منها معمور اسرارا ، موصل للمحمول له اوطارا ، تبين بدائع الفاظها عن بيان سحبان ، وتفسر (12) بفصاحتها عن احسان حسان ، ولقد جددتم من خالص المحبة القديمة عهودا ، وتلدتم في نحر هذا الدهر منها عقودا ، اقتداء باسلافكم الكرام ، الذائدين عن بيضة الاسلام ، فهم لكم خير سلف ، وانتم لهم خير خلف ، وجوهركم مع جوهرهم في سلك واحد قد انتظم ، وعلى منهج العدل القويم ، والصراط السوي المستقيم ، يسلكه من تأخر منكم ومن تقدم .

فمايك من خير اتوه فانمـــا
توارثه آباء آبائهـم قبــل

وهل ينبت الخطى الا وشيجه
وتغرس الا في منابتها النخـل

ثم طلع علينا صحبة هذا الكتاب المرفع ، الذي بفرائد الفوائد مرصع ، السيد الجليل .. (13)
سيدي عبد السلام الاسمر، فاكتحلنا باثمد منظره عيناء وشنفنا بمحاسن حديثه اذنا ، فنعلم البريد هو والسفير ، وحبذا الصاحب الخفير (14) ...

وما وجهتم — بارك الله فيكم — من هديتكم فالكل قد وصل ، وحل من نظرنا احسن محل ، وما استصغرتموه منها فليس عندنا بمستصغر ، بل ذلك اجل ما يقتنى لدينا ويذخر ، وما ذكرتم في كتابكم من اقلاع السحاب الغر في هذه السنة عن ذلك القطر ، فانا نتوسل الى الله بمن يستسقى بوجهه الغمام ، عليه افضل الصلاة وازكى السلام ، ان يخصب لنا ولكم ما بيننا من البطاح والاكام ، وان لا يعدمنا رغد العيش ، وسعة الايام ، فانه اهل لذلك والقادر عليه ، وان لا ملجأ منه الا اليه ، ثم انزلتموه بساحتنا ، ورجوتم قضاءه من جانبنا ، فجميع اغراضكم — على وفق مرادكم — ان شاء الله تقضي ، وسفيركم الوافد علينا لا جرم يرضى ، وهيهات أن ندع اعانتكم أو نبدي في ذلك عذرا ، ولا سيما وقد قطعتم من المهامه الفيح نجدا وغورا ، ومن البحار الطامية لجاجا خضرا ، اذ الحر للحر معوان ، والمومن للمومن كالبنيان ، لا زالت اعلامكم منشورة ، وسيوفكم على اعدائكم مقصورة ، ولا برحتم في هناء وسرور ، مطمئنين البال في حاضرتكم الشاهقة القصور آمنين في ظل راحتكم من الاكدار والشرور ، ولا زال هذا المجد مخلدا فيكم وفي عقبكم الى يوم ينفخ في الصور ، آمين ، والسلام .

الرسالة الثانية :

(المقام الذي طاب ثناؤه ، وطرزت صحف الحمد انباؤه ، واشتهر بالمكارم اعتناؤه ، وتعددت مكارمه والآؤه ، مقام حبنا الذي بره محتوم الوجوب ، وحبه مرسوم في اسرار القلوب ، ومآثره تشهد بها صفوف المحارب ومصاف الحروب ، ذو المناقب الفاخرة ، والحب الذي نفعه الله بمحبة آل بيت الرسول في الدنيا والآخرة ، المرابط المجاهد ، والمتحلي بحلى القانت الزاهد ، السيد يوسف باشا ابقاه الله وقواعد عزه راسخة راسية ، ومعالم فضله عالية سامية ، وعناية الله له كالية ، وفواضله لديه متواترة متوالية ، سلام كريم ورحمة الله التي لا تبرح ولا تريم .

وبعد : فقد علم وتحرر ، ووضح وضوح النهار لمن استبصر ، ما عندنا من الود الذي تالق نوره ، وثبت في صحف الخلوص مسطوره ، وخلصت من الشوائب بحوره ، وتحلت بجواهر الصفاء نحوره ، فهو على الايام يخلص خلوص الابريز ، وتضفو حلاه مونقة التطريز ، وكيف لا وقد ثبت لدينا من محبتكم الينا تشيع واضحة مذاهبة ، ووداد كريم شاهده وغائبه ، وخلوص اشرقت في سماء الصفاء كواكبه ، ولم لا وودادكم قد احكم سلفنا — رضي الله عنهم — معاقده ، واوضح في مرضاة الله موارده ، واقام على التعاون في سبيله سبحانه قواعده ، فهو يتأكد على الايام ويتجدد ، حتى لو استطعنا لا تمر ساعة الا في مكاتبة بيننا وبينكم تتردد ، اغتباطا بولائكم وارتباطا الى مصافاة اخائكم .

---

12) تصحيف عن تسفر .
13) بياض مقدار ثلاث كلمات تقريبا ، ولاشك ان الساقط هنا اسم السفير الذي هو من ذرية الشيخ الشهير سيدي عبد السلام الاسمر دفين زليتن حوز طرابلس ، والمتوفى عام 981 هـ ، ولم اعثر على اسمه ، وانما جاء في الرحلة الناصرية الكبرى ان ذرية هذا الشيخ لا تزال بقيد الوجود زمن هذه الرحلة الواقعة عام 1196 ، حسب مصورة خ ، ع ، د 2651 — لوحة 169 .
14) بياض مقدار 12 كلمة تقريبا .

وقد ورد علينا كتابكم على حال اشتياق لوارده ، وظما لموارده : حائزا فى ميدان الاعتراف بمحبته آل بيت الرسول مزية التقديم ، واحلى سبب البر الحديث والقديم : مصحبا بالهدية والمقاصد الودادية ، وصالح الادعية المتكملة — ان شاء الله — بنيل الامنيـــــة ؛ فقابلنا مقاصدكم بالثناء والاستحسان ، وشكرنا مـــا لاخوتكم الفاضلة من المزايا البرة والسجايا الحسان ، وحضر بين ايدينا خديمكم الرايس فلان . كتــب الله سلامته ، ووالى كرامته ؛ فالقينا اليه من تشكر مقامكم ما لزم ووجب ، وجلونا عليه ما عجز عن ادراكـــــه واحتجب ، اذ قدركم عندنا اجل ، وذكركم بالجميـــل يملى فلا يمل .

والى هذا سدد الله امركم ، ورفع قدركم ، فقد تقرر — جبلة مطبوعة ، وسنة متبوعة — ان المهادات تغرس المحبة وتثبتها ، وتؤكد المودة وتثبتها ، لاسيما اذا وردت على ضمائر أصفى فى ذات الله من نطـــف الغمام ، واصون من درر الازهار فى سدف الاكمام ، وقلوب متعاقدة على مرضاة الله والاسلام ، ولها قوى العزم والاغتباط ، وكنتم — رعاكم الله — اهل جهـــاد ورباط ، هاديناكم بثمانية افراس : « 4 » ذكور ومثلها اناث ، جيادا عتاقا ، وجردا تسبق الصريخ استباقا ، تنظم بها البشرى — ان شاء الله — عقود ، وكيف وقد اخبرنا الصادق المصدوق ان الخير فى نواصيها معقود ، حبيناكم باهدائها ، وسلكنا بها سبيل الملوك مـــع اودائها .

وجددنا اليكم هذا الكتاب عقدا لاخاء كمالكم ، واستطلاعا لما يسر — ان شاء الله — من متزايدات احوالكم ، عملا على شاكلة الود الكريم ، والاعتقاد السليم ، والرعي لما سلف من الود القديم ، فمن الله نسأل ان يجعله فى ذاته ، وذريعة الى مرضاتــــه ، وبلادنا لكم ولسلفكم محراب مناجاة ، وســـــوق بضائعكم غير مزجاة ، وجهتنا هذه كجهتكم فيما يعرض من الاغراض ؛ والقلب لما تاملون مبتهج وراض ، ومقامكم لدينا بالتعظيم مخصوص ، ومحكم حبكم لآل البيت فى كتاب قلوبنا منصوص ، لا نالوا جهدا فى صلة نصركم ، واعزاز أمركم ، واتساق سعدكم ، واسعاف قصدكم ، وقصدنا بهذا ان يعلم اعتناؤنا بامركم ، وعملنا على نصركم ، واهتمامنا بشانكم ، ليقصر شاو عدوانها ، ويتضاءل طائــــر طغيانهـــا (10) ، والله — سبحانه — يصل لنا ولكم عوارف آلائه ، ويحملنا من مرضاته على ما يضاعف مواهب نعمائه ، ويحسن الظن فيكم من الدفاع عن دينه وجهاد اعدائـــــه ، والقيام بسنن الجلة من خلفائه ، وهو — سبحانه — يحفظكم فى كل الاحوال ، ويسدل عليكم عصمته الوارفة الظلال ، ويطلعنا من انبائكم على ما يبهج النفـــوس ويشرح الصدور ، ويمهد الجهات ويصلح الامور .

الرسالــة الثالـــــثة :

الحب الذي طاب ثناؤه ، وطرزت صحف الاخاء انباؤه ، واشتهر بحب على جنابنا اعتناؤه ، وتعددت مكارمه والاؤه ، والاخ الذي الذي بره محتوم الوجوب ، وحبه مرسوم فى أسرار القلوب ، ومئاثره تشهد بهـــا صفوف المحاريب ومصاف الحروب ، المرابط المجاهد ، والفاضل الماجد ، السيد يوسف باشا ، وصـــل الله علاءه ، ونشر بالنصر على اعداء الله لواءه ، سلام كريم بر عميم ، ورحمة الله التي لا تبرح ولا تريم .

وبعد فانه ورد علينا كتابكم فاستجلينا منه حلة بيان رقمتها البراعة ، وروضة احسان سقتها بنان البراعة ، ولجة ود للسان فيها سبح طويل ، ومحجة فضل للاقلام فيها نص وذميل ، ناطقا بلسان الفضل الذي املاؤكم معدن نضاره ، ومطلع انـــواره ، جاريا فى ميدان البر الى اقصى مضماره ، عرفتمونا فيه بما انتم عليه من صلاح الامور ، فانتج انشراح الصـــــدور ، وعرفتمونا بمقتضى ما لكم فى علي جنابنا من الحـــب الذي مضاربه ان شاء الله لا تفل ، وعراه الوثيقة لا تفصم ولا تحل ، وصل الله اسباب ودكم ، وشكر وفي عهدكم ، ونحن ان ذهبنا الى تقرير ما عندنا من حبكم الذي اياته محكمة ، ومقدماته مسلمه ، فلا يعترض منها رسم ، ولا ينازع فيها والحمد لله خصم ، لم يتسع نطاق النطق لاداء معلومها ، ولا وفى المكتوب ببعض مكتومها ، حتى لو استطعنا لا تمر ساعة الا عـــن مكاتبة بيننا وبينكم تتردد ، وذمام كريم يتاكـــد ، اغتباطا بولائكم ، وارتباطا الى مصافات اخائكم ، ومن المعلوم ان القلوب ينبيء بعضها بعضا بما تجـــن ، والنفوس تجنح الى اشكالها وتحن ، جعلـــه الله فى ذاته ودا وثيقا ، وينهج الى ما يرضيه طريقا، وقد حضر لدينا خديمكم الرايس عمورة يسر الله مرامه ، وجمل

---

10) الضمير فى هذه الجملة وسابقتها يشير الى دولة أمريكا التي قامت بحصار مدينة طرابلس على ما تكرر ذكره فى المقدمة .

الفتح خلفه وامامه ، ووصل ما وجهتم لحضرتنا العلية صحبته من الهدية كثر الله خيركم ، وتولى شكركم ، والهدية وان كانت سنة ماضيه ، وشريعة بازدياد الود آذنة وقاضية ، فلدينا من كريم الاخاء ما لا يحتاج لتاكيد ولا تكرير وترديد ، والله على كل هذا رقيب وشهيد ، ونحن وان ثبت لدينا من اخائكم ما قرره الحب وسنه، فلا غرو فى الاستئذان بخصال الشريعه والسنه ، فيصلكم منا 3 افراس : 2 لركوبك ان شاء الله ، وواحد لنجلكم السيد على انمر الله غرسه ، وزكى ذاته ونفسه .

وقصارى الامر ومنتهى المرام ، ان تكون (16) مضمن قوله عليه السلام : 7 يظلهم الله بظله ويدخلهم تحت كنف كرمه وفضله ، ولم نال جهدا فى اعانة خديمكم الرايس ، والشاوس فى باور (17) جنابكم بعون الله ملحوظ فى كل ما تريدون من اعانة فى جهاد ، او التماس ارغاد ، اللهم الا ما كان من امر الميرة فما اخالكم تخفى عليكم احوال هذا القطر مما به من الغلاء وارتفاع الاسعار ، فلو فتحنا بابا على الخلق ، لاتسع الخرق ، ولكمال ودكم تقبلون المعاذير وتراعون (18)

والمقادير ، ونحن ان شاء الله على ما يجب لاخوتكم من التعظيم والاجلال ، والثناء بما لكم من الشيم الكريمه والخلال ، وهو سبحانه يبلغ الجميع من مرضاته غايه الامال ، فهو ولي الاجابة وملجا السؤال .

الرباط — محمد المنونى

---

16) موضع البياض خرق طرا على الاصل
17) خرق فى الاصل
18) خرق .



المولى محمد بن عبد الله العلوي :
العالم المفكر مفخرة المغرب

للأستاذ : محمد الطنجي

تتناول في هذه الكلمة جانبا من حياة المولى محمد بن عبد الله العلمية ـ عقيدته السلفية ـ وموقفه من الاشاعرة وعلم الكلام عموما ـ مساواته بين ائمة المذاهب دون مغالاة اتباعها ـ اختياره مذهب مالك في المعاملات ـ نظره في احاديث تكفير الذنوب لا تتناول الكبائر ولا تتناول حقوق العباد ـ احتياطاته في المعاملات في حقوق الضعفاء ـ تضلعه في العلم ومدارسته للحديث وجلبه مسانيد الائمة الثلاثة الى المغرب .

ان تاريخ الامم في الواقع هو تاريخ عظمائها وابطالها والمصلحين فيها ، وقد تحصل غفوة امة من الامم فتطول مدة الغفوة او تقصر ، وما مدة غفوتها الا رهينة في حياتها بنابغ ينبغ فيها او عظيم يحول مجرى تاريخها فتجدد حياتها وتصير في برهة وجيزة غيرها بالامس القريب .

وان حياة امير المومنين المولى محمد بن عبد الله ابن اسماعيل العلوي قدس الله روحه تعد في طليعة هذا الرعيل العظيم جدد الامة المغربية من الناحية العسكرية والاقتصادية والادبية والدينية على السواء فاخرجها من الفوضى الى النظام ، ومن الاضطراب في الانتاج والمحصول الى الاستقرار ، ومن العقم الادبي الى الانتاج والخصب الفكري ومن البلبلة الاعتقادية وتعدد المذاهب والبدع الى وحدة العقيدة السلفية ومن المناقشات البيزنطية العقيمة النتيجة ومن تعدد النظريات في المعاملات الى طريقة عملية تكفل المساواة بين جميع الطبقات مع مراعاة الاحتياط لحقوق الضعفاء والمعوزين .

كيف اهلته نشأته وتربيته الفذة لهذه المهام

ان طيب الاعراق واصالة البيت الطاهر ومشاهدة القدوة الصالحة جدير كل هذا بتنمية المواهب ورفع مستوى الهمم الى المقام الارفع وهذا ما حصل للمولى محمد بن عبد الله رضي الله عنه فقد ولد سنة 1133 ثم تربى في احضان الفقيهة الصالحة السيدة خناثة بنت الشيخ بكار المغفري جدته رحمها الله ورافقها وهو ابن عشرة اعوام في رحلتها الى حج بيت الله الحرام حيث كان لحجها دوي في المشرق والمغرب اذ صحبت معها من التحف والهدايا ما يجل عن الوصف كما رافقها فطاحل من جلة العلماء والكتاب وسجلت هذه الرحلة باسلوب شيق حيث امر السلطان كاتبه الاسحاقي بتدوين اخبار هذه الرحلة فكتب في ذلك ما خلد ذكراها وابقى على الايام شذاها (كما قال محدث المغرب المرحوم سيدي المدني بن الحسني) فكان لانطباعات هذه الرحلة اثر كبير في نفس عظيم المغرب المولى محمد بن عبد الله .

ولعل فقه وصلاح السيدة خناثة مع سمو البيت العلوي اقترنا فانتجا هذه العبقرية الفذة التي تجلت في حفيدها المولى محمد بن عبد الله فقد كانت لبني مغفر صلة كبيرة بالبيت العلوي منذ عهد المولى اسماعيل وكان قاضي البراكنة عبد الله صديقا حميما للمولى محمد بن اسماعيل المعروف بمحمد العالم يرد عليه الى مكناسة الزيتون كثيرا حتى قال مرحبا به :

ومن جهة اخرى يذكر تعظيم اتباع الائمة الاربعة وان كل فريق يرى فضل امامه وترجيحه على غيره ثم يعقب على ذلك بقوله : « وانا اقول قد صدق الجميع فى ائمة الهدى المذكورين اعاشنا الله على هديهم وطرقهم بجاه النبي وآله الا فى كلمة واحدة وهي كلمة الترجيح لان اعتقادي فى الائمة الاربعة انهم على هدى وكلهم على التساوي لا يرجح احدهم على الآخر » (انتهى) .

ويقول رحمه الله فى كتابه (الفتح الرباني) : « وانا فى نفسي اتبع الائمة الاربعة فى ابواب العبادات لا غير ولا نفرق بين احد منهم فيها واما فى غير ابواب العبادات كالنكاح والطلاق والبيوع والحبس والهبة والعتق وغير ذلك فلا اتبع الا مذهب الامام مالك لانني مالكي المذهب حنبلي الاعتقاد مع اني موقن بان الامام احمد على اعتقاد الائمة الثلاثة وانهم كلهم على هدى من ربهم ثم تابع كلامه بقوله قال مؤلفه رضي الله عنه : ومن ارتكب رخصة فى ابواب العبادة قد افتى فيها بعض العلماء الذين يعتمد عليهم لاجل ضرر به فلا تلحقه تهمة فى ذلك ، اذ ابواب العبادة هي لله فلا تهمة فيها وغيرها فيه حقوق المسلمين فمن ارتكب رخصة فى مسالة قد رخص فيها بعض الائمة الاربعة فى غير ابواب العبادة مثل الطلاق والنكاح والبيوعات وغيرها من حقوق العباد فانه دخل بابا من ابواب التهم وربما نسب لغرض فيه شهوة نفسه فلا ينبغي لمن كان على مذهب أن يتخطاه لغيره من المسائل التى فيها حقوق العباد . وان نزلت بنا مسالة مستوية الطرفين فى حقوق العباد انتقل عنها واتركها الى المسالة التى وقع فيها الاتفاق والاجماع وهذا اعتقادنا والحمد لله » (انتهى) وكان رحمه الله يحتاط لحقوق العباد اتباعا لما ورد فى الاحاديث فيحمل احاديث واردة فى الفضائل وتكفير الذنوب على غير الكبائر وعلى غير حقوق العباد فقد نقل فى كتاب الفتح الرباني قاعدة كل مامور يشق على العباد فعله سقط الامر به ، وكل منهي يشق عليهم اجتنابه سقط النهي عنه ، ثم قال : وهذا فيما كان من حقوق الله تعالى على قول سحنون ، واما ما كان من حقوق المخلوق فلا يسقط النهي وان كان فيه اعظم مشقة ثم ذكر تفصيل المشاق عند الفقهاء وعقب على ذلك بقوله ، ثم اعلم ان القاعدة المذكورة صدرها مسلم لقوله صلى الله عليه وسلم اذا امرتكم بامر فاتوا منه ما استطعتم واما عجزها وهو فعل المنهي اذا كان فى تركه مشقة فلا بد من تقييدها بما اذا كان ذلك فى حق الله تعالى واما فى حق المخلوق فلا يسقط النهي وان كان فيه اعظم مشقة . قال مؤلفه رضي الله عنه فان حق المخلوق لا بد من ادائه فى يوم القيامة . وان كنت فقيها لبيبا من اهل الحديث فتفطن لما اذكره لك ؛ انظر بعض الادعية ، « اللهم ما كان لك فاغفره وما كان لخلقك فتحمله عني » ، وهذه المسالة تتحير فيها افكار دهاة العلماء ، انظر الى قوله عليه السلام : « حتى تقتص الشاة الجماء من الشاة القرناء يوم القيامة » ، وانظر الى قوله تبارك وتعالى : (ما يبدل القول لدي وما انا بظلام للعبيد) ، هذا قوله . ثم ساق رحمه الله معنى الحديث الوارد فى هذا الموضوع حيث قال : والدواوين ثلاثة : ديوان لا يغفر لصاحبه والعياذ بالله وهو الشرك ، وديوان لا يترك منه شيء وهو حقوق العباد بعضهم لبعض ، وديوان فيما بين الادمي وربنا تبارك وتعالى هو فى مشيئة الله ان شاء عذبه وان شاء غفر له ، وهذا ملخص ما حضرنا فى المسالة ومن اراد مراجعة المسالة فليراجعها فى كتب الاقدمين » (انتهى) .

ولا بأس بملاحظة على صدر القاعدة التى نقلها ايضا وهو أن بعض المشقات لا تسقط ولو كانت فى المرتبة العليا وذلك كبذل الجنود نفوسهم فى سبيل الله وفى سبيل حماية الدين والدفاع عنه.

وكذلك يقيد المؤلف الحديث الذى اخرجه الامام مالك فى تكفير الوضوء للخطايا جريا على ما تقدم فيقول فى تكفير الوضوء لما تبطشه اليد قال مؤلفه رضي الله عنه ما لم تكن يداه بطشت كبيرة من الكبائر، فان كانت فيما بينه وبين الله فلا يكفرها الا التوبة ، وان كانت من حقوق العباد فلا يكفرها الا القصاص او العفو كما تقدم . (انتهى) .

تحرياته فى المعاملات واحتياطاته لحقوق الضعفاء

وللمولى محمد بن عبد الله اختيارات املاها عليه الاحتياط لحقوق الضعفاء من جهة والرغبة فى صيانة الاموال وتقليل الخصومات من جهة اخرى منها كما ذكر الحافظ المدني بن الحسني منع توكيل المراة لزوجها وجعل الحكم عند تساوي القولين بما يثبت

مكناسة الزيتون فخرا اصبحت
تزهو وترفل في ملاء اخضر
فرحا بعبد الله نجل محمد
قاضي القضاة ومن ذؤابة مغفر

قال في كتاب الوسيط وبنو مغفر قبيلة كبيرة في نواحي فاس وهم اخوال ملوك المغرب اذ امهم اي ملوك المغرب السيدة خناثة بنت الشيخ بكار العالمة المشهورة ذكرها صاحب « الاستقصا في تاريخ المغرب الاقصى» وذكر ان لها حواشي في هامش نسخة من كتاب الاصابة لابن حجر بخطها انتهى .

وقد كان مكوثه الطويل في الملك ثلاث وثلاثين سنة مما ساعده على تنفيذ كل المشاريع التي رسمها للنهضة بالمغرب فكان له في جميع المجالات مفاخر ومكارم. واذا كان المفكرون يقولون ان من يطالع التاريخ يضيف اعمارا كثيرة الى عمره لان الحياة تجارب والمطلع على كثرتها كانه عاش ضمن ابطالها فان المولى محمد بن عبد الله قرا كثيرا وطالع كثيرا واكتسب خبرة عملية في الحياة مع مباشرته لمسؤوليات جسام قبل اضطلاع بالملك فصادف تحمله لاعباء الملك شخصية فذة هامت بالمثل العليا الاسلامية فاتى في حياته المثلى بنتائج تلفت النظر الى ما تاتي به الشريعة الاسلامية في حياة الامة اذا وقع تطبيقها لا فرق بين الصدر الاولى من حياة المسلمين وبين غيره .

وساقتصر في كلمة اليوم عن جانب من ناحيته العلمية والاعتقادية .

ومما تجدر الاشارة اليه تنبيه الدارسين بدار الحديث الحسنية الى ان حياة المولى محمد بن عبد الله جديرة بأن تكتب حولها الاطروحات فقد توجه البعض من هؤلاء الى بحث نواح في اطروحاتهم دون هذا المستوى بكثير .

عقيدته السلفية :

من المعلوم ان عقيدة الامام ابي الحسن الاشعري وطريقته في الرد على المعتزلة شاعت في المغرب منذ قرون قبل مجيء الدولة العلوية وكان المرشد المعين الذي سار على نهج الاشاعرة شائعا في المغرب مثل ام البراهين للسنوسي وغيره الى جانب رسالة الامام ابن ابي زيد القيرواني . الا ان امام المغرب محمد بن عبد الله اختار الاقتصار على عقيدة الرسالة وسجل مختارات منها في كتابه الذي سماه « الفتح الرباني فيما اقتطفته من مسانيد الائمة وفقه الامام الحطاب ورسالة ابن ابي زيد القيرواني » واذا كان اختيار المرء قطعة من عقله كما يقال فان المولى محمد بن عبد الله في تآليفه الحديثية والفقهية له اختيارات من النوعين واجتهاد في احيان اخرى ورد على الفقهاء فيما لا دليل عليه من الكتاب والسنة وعمل الائمة .

ويظهر ان تآليفه كان يحصل عليها اقبال لان الناس على دين ملوكهم كما قيل ، وزيادة على وسائل شيوعها وانتشارها بواسطة السلطة والوسائل الاخرى.

ولنستمع الى ما يقوله عن انتشار كتابه « بغية ذوي البصائر والالباب في الدرر المنتخبة من تآليف الامام الحطاب » قال رحمه الله لما برز جوهره النفيس للعيان ، وسارت به في الآفاق الركبان ، وانتفع الناس به ولله الحمد في سائر الاقطار والبلدان ، امعنا فيه نظرنا بعد مرور سنة من تآليفه كل الامعان فراينا الفرض انما يكمل باتمام الكلام على قواعد الاسلام الخ ..

وذكر رحمه الله في آخر تآليفه الفتوحات الالاهية فصلا في بيان قوله المالكي مذهبا الحنبلي اعتقادا لئلا يفهمه بعض الناس على غير وجهه فقال ان الامام احمد « ثبت الله المسلمين بثبوته » سد طريق الخوض في علم الكلام ، قال : ولا يفلح صاحب الكلام ابداولا ترى احدا ينظر في علم الكلام الا وفي قلبه مرض ثم ذكر هجران الامام احمد للحارث المحاسبي لتصنيفه كتابا في الرد على المبتدعة . وقال المولى محمد بن عبد الله والى ذلك ذهب الشافعي ومالك وسفيان واهل الحديث قاطبة ..

ويقول والزموا الناس السكوت عن علم الكلام الى ان نبغ الامام الاشعري فاشتغل يرد على المعتزلة اقوالهم الفاسدة فاتبعه المالكية على ذلك وسموه ناصر السنة وهو ومن اتبعه على صواب في اعتقادهم السنة والكتاب لا في الخوض مع الخائضين والتصدي لذكر شبه المبطلين وتخليدها في الاوراق الى يوم الدين .

واما الحنابلة فانكروا ذلك عليه ، وقالوا له : كان ينبغي أن تسكت كما سكت الائمة قبلك الخ ..

وعلى هذا فهو يرى اعتقاد الاشعري واتباعه في السنة والكتاب صوابا، وخوضهم في علم الكلام نهجا معابا ، لا يريد بأي حال ان يتبعهم على ذلك .

الحق للمسكين خوفا من الميل الى الاقوياء ومنع من البيع على الغائب والمحجور ثم جوز ذلك على ان تشتري الاحباس او بيت المال المبيع ليمكن للمبيع عليه استرداده وامر بجعل الصداق ناجزا كله وحصره في اربعين مثقالا تسهيلا للزواج واشترط بحث القاضي بنفسه عن الملك المراد شراؤه وتسليمه لملكيته وسلامته من نزاع الشركاء والشفعاء والمستحقين والجوار واداء الثمن بمحضره كما منع من الافتاء والحكم بشراح مختصر خليل المتاخرين والزم القضاة بكتب احكامهم والاشهاد عليها .

تضلعه في العلم واقباله على التاليف

اما تضلعه في العلم واقباله على التاليف فقد ذكر في مقدمة كتابه «الفتوحات الالاهية» قوله : فحين شرعت في المقصود يسر الله تعالى في مسندات الائمة الثلاثة وردت علينا من الحرم الشريف والحمد لله مسند الامام ابي حنيفة ومسند الامام الشافعي ومسند الامام احمد والحال ان المسانيد الثلاثة المذكورة لم تدخل المغرب قط حتى كان دخولها على ايدينا والحمد لله شرعنا في مسند الامام ابي حنيفة حتى ختمناه والحمد لله واخذنا منها ما قدرنا على حمله من الدرر النفيسة .

ثم اخذنا من درر موطا الامام مالك ايضا مثل ذلك ثم اخذنا ما اتفق عليه الامامان البخاري ومسلم واضفنا الدرر المذكورة بعضها الى بعض ثم سقناها على هذا النسق الابدع والنظام الارفع الخ ..

وعلى هذا فكتاب الفتوحات الالاهية بذل فيه المولى عبد الله دراسات وافية ومجهودا كبيرا من الوقت رغم قيامه باعباء الملك وتنظيم مهام الدولة في مختلف الميادين وعاكس تيار علماء الكلام في وقته باختياره للمذهب الحنبلي في العقيدة مع اختيارات اخرى في الاحكام ونزعات اجتهادية رفعه اليها نبوغه وكثرة اطلاعه وعمق تفكيره ورغبته الصادقة في الاصلاح الديني والاجتماعي مما يجعله في طليعة العظماء والمفكرين رحمه الله واثابه

ملاحظة على هفوة :

ذكر بعض الباحثين المتخصصين في ترجمة المولى محمد بن عبد الله أن كتب الحديث الرائجة في المغرب يومئذ هي صحيح البخاري ومسلم وموطا مالك، أما الكتب الاخرى فلم تكن معروفة، لان المغاربة قبل سيدي محمد بن عبد الله كانوا لا يعرفون من كتب السنة الا هذه الثلاثة فلما تولى سيدي محمد بن عبد الله الامامة العظمى بدا يجتلب كتب الحديث الموجودة في المشرق فذكر المسانيد الثلاثة للائمة ابي حنيفة والشافعي واحمد بن حنبل ، وهذا الكلام من الباحث الجليل سبق قلم قطعا وفي الكتب المتداولة ما يبين ان التاريخ العلمي للحديث النبوي في المغرب كان له شان فقد ذكر المؤرخ عبد الواحد المراكشي في كتابه المعجب في ترجمة يعقوب الموحدي عنايته بكتب السنة فقال رحمه الله : « وامر جماعة ممن عنده من العلماء المحدثين بجمع احاديث من المصنفات العشرة الصحيحين والترمذي والموطا وسنن ابي داود وسنن النسائي وسنن البزار ومسند ابن ابي شيبة وسنن الدارقطني وسنن البيهقي في الصلاة وما يتعلق بها على نحو الاحاديث التي جمعها محمد بن تومرت في الطهارة فاجابوه الى ذلك وجمعوا ما امرهم بجمعه فكان يمليه بنفسه على الناس وياخذهم لحفظه، وانتشر هذا المجموع في جميع المغرب وحفظه الناس من العوام والخاصة فكان يجعل لمن حفظه الجعل السني من الكسا والاموال » (انتهى بنصه)

فهذا ما صنعه ابو يوسف يعقوب الموحدي بالمصنفات العشرة الضخمة في السنة النبوية وهو ما يشرف تاريخ نشر السنن النبوية في المغرب وما نظن الباحث المنصف الكريم الا موافقا على هذه الملاحظة حفظه الله .

الرباط ــ محمد الطنجي



للأستاذ أبي بكر القادري

كل من كتب له ان يتعرف الى محمد الخامس نور الله ضريحه ، لايستطيع ان ينكر ما منحه الله من مواهب ، وما وجبه من جاذبية ، وتاثير . وهذه الجاذبية وهذا التاثير لم يكونا مصطنعين ، ولم تكن دوافعهما راجعة الى ما يحيط الملوك به انفسهما عادة من هالة وفخفخة وتظاهر بالعظمة ، وانما هي منحة منحه الله اياها ، وعطاء خصه الله به . فلقد كان الجميع يشعر وهو جالس يتحدث اليه ان له من التاثير على محدثيه ، وفرض الاحترام والتقدير له ، ما لا يصل اليه الا القلة القليلة من العظماء ، فكلماته ولو كانت قليلة ، تنفذ الى القلب ، وابتسامته المشرقة الوضاءة تكسو الحديث حلاوة وثقة واطمئنانا ، ولقد اتصل به الخصوم والاصدقاء فخرجوا من ملاقاته مقتنعين بقوة تاثيره ، وفعالية جاذبيته . وعندي ان ذلك يرجع اولا واخيرا الى ايمانه وصدق يقينه ، وثقته بربه واخلاصه في اداء رسالته

فلقد كان محمد الخامس من اصدق الملوك ايمانا ، وهذا الايمان كان يتجلى في جميع تصرفاته رحمه الله كما كان يتجلى في جميع الظروف الحالكة التي كانت تعيشها بلادنا ، كما كان يتجلى في اهتماماته الخاصة بالقضايا الاسلامية على العموم وحرصه الشديد على ان يبقى شعبه الوفي متمسكا باهداب دينه الحنيف سائرا في نهجه السوي الرشيد .

ولقد سبق لي ان قابلت جلالته بعد اداء فريضة الحج للمرة الاولى سنة 1957. فالتمست منه ان يزيد في اهتمامه بالحياة الدينية ، ويعطي اوامره لوضع تخطيط ، يعيد لمجتمعنا المغربي حياته الاسلامية الصحيحة ، وينير السبيل امام الحائرين والمنحرفين ، فطلب مني قدس الله روحه ان اقدم له ما عبرت عنه شفويا في شبه تقرير مكتوب حتى يعمل على تطبيق محتواه ، ويزيد من عنايته بالحياة الدينية بهذه الديار .

ولقد رايت بمناسبة صدور العدد الخاص من مجلة « دعوة الحق » ان انشر هذا التقرير تعميما للفائدة ، واشادة بذلك الرجل الذي وهب حياته لبلاده ودينه :

ان المغرب في عهده الجديد يجتاز مراحل مباركة في بناء مستقبله السعيد وهو سائر على النهج القويم فيما يتعلق باسس ثابتة لبناء هذا المستقبل .

ورغما عن الصعوبات التي وجدها امامه والتي خلفها نظام استعماري كان يهدف لصالح جالية اجنبية دون غيرها ، فانه برهن على انه كفء للتغلب على هذه الصعوبات والقضاء على كل العراقيل ، وذلك يرجع لتوجيهات صاحب الجلالة الحكيمة وعمل حكومته المخلصة وتضامن مختلف الطبقات الشعبية .

ولكن جانبا من الحياة المغربية لم يلق لحد الساعة الاهتمام الذي يستحقه ، ولم تعط له العناية الكافية ونخشى ان نحن اهملناه وتقاعسنا على العمل لفائدته ان نندم ، ساعة لا ينفعنا الندم . وهذا الجانب هو الجانب الديني في الشعب المغربي فالمغرب كان امة لها ذكر في التاريخ ، لتمكن العقيدة الاسلامية من قلوب ابنائه واستماتته في الذوذ عن هذه العقيدة ، وعمله على نصرتها والوفاء لها . . والمغرب استطاع ان يتغلب على عصبيته الجاهلية ، ونعرته القبلية ، عندما تمكنت عقيدة الاسلام من قلوب ابنائه وخالطتها بشاشة الايمان ، فاصبحت هي المتحكمة في نفوسهم ، الموجهة لهم ، المسيرة لاعمالهم . وهكذا راينا ابطالنا في التاريخ من ملوك وعظماء يعدون في طليعة من

هبوا لنصرة الاسلام وبث مبادئه والاهتداء بهديه والتمسك بسننه .

وهذا التمسك بالاسلام والتمكن من العقيدة هو الذى حمى المغرب من الاغارات القاتلة المتكررة التى كانت تقع عليه من خصومه وجعلته يحتفظ طيلة الاحقاب التاريخية بكيانه وصولته واستقلاله ، بل يدافع عن جيرانه ويحمي اشقاءه واخواته من اغارات خصومهم الذين كانوا يتربصون بهم الدوائر .

وعندما وطئت اقدام الاستعمار هذه التربة المباركة اتجهت اول ما اتجهت لتحطيم المقومات الاسلامية ، والحط من سمعة الاسلام فى صفوف ابنائه ليسهل عليها ابتلاعه والقضاء عليه ؛ ان زال من طريقها هذا السد المنيع الذى يحميه ؛ ولسنا بحاجة للتدليل على ما قلناه ، فنظرة بسيطة لبرامج التعليم ومحاكم القضاة وكل ما يمت الى الاسلام بصلة توضح لنا ماذا كان يقصده الاستعماريون فى اعمالهم وبرامجهم وما يبيتونه من مكر وخديعة للاسلام والمسلمين بهذه الديار .

ولولا ان شعبنا والحمد لله ، شعب متدين بطبعه ، متمسك بعقيدته لكانت العاقبة غير محمودة ولكان المصير محزنا، ولكنامع ذلك لانستطيع أن ندعي ان الاستعمار واعوانه لم يستطيعوا ان يؤثروا فى بعض الطبقات القليلة التى لم يسعدها الحظ بالاطلاع على تعاليم الاسلام ولم يستضيء قلبها بنور الايمان ، هذه الطبقة اصبحنا نراها تنظر الى الاسلام نظرة ان لم يكن فيها ازدراء ، فهي على الاقل نظرة اللا مبالاة وعدم الاهتمام والاعتبار ، بل ربما تجاوز الامر عند بعضها حتى صارت تعتبر الدين قضية لا تهم الدولة والامة فى شيء ، وانها قضية شخصية لا ينبغي ان نعيرها اي التفات، متصورة ان الاهتمام كل الاهتمام ينبغي فى الاول والاخير ان يعطى للتقدم المادي والحضارة الميكانية ، حتى يستطيع المغرب ان يسير فى ركاب الامم المتحضرة ويتدارك ما فاته من وسائل واسباب النهوض .

اننا مع هذه الطائفة من ان الواجب يقضي علينا ان ناخذ من الحضارة الغربية المادية كل ما يعرج بأمتنا فى ميدان الرقي ، وييسر لنا اسباب التقدم ، ولكننا فى الوقت نفسه لا نود ان نرتمي فى احضان هذه الحضارة المادية فنقع فيما وقع فيه الغربيون من تجرد عن كل ما ليس بمادي ، ونفقد كما فقدوا كثيرا من المزايا الخلقية التى تعلو بالانسان الى مراتب الكمال . اننا لا نود ان تصبح لدينا افكار الخير والحق والعدل والتسامح مثلا عبارات تلاك بالالسن ، ولا تنم عن حقيقة واقعية ، وانما يقصد بها التضليل والدعاية بل اننا بالعكس من ذلك نريد ان نحتفظ لهذه الكلمات بمدلولاتها . ولا يمكننا ذلك الا اذا حرصنا كل الحرص على تثبيت الوازع الديني فى النفوس وتركيزه فى القلوب وصيانته من عبث العابثين .

اننا يا مولاي منذ هيأنا الله لخدمة شعبنا وملكنا جعلنا من جملة اهدافنا الاساسية ومبادئنا العالية التى عاهدنا الله على الوفاء والاخلاص لها : الدفاع عن ديننا ونصرته بكل ما نستطيعه من حول وقوة ، اذ كنا نعتقد ولا زلنا ان ديننا الحنيف دين تهذيب للنفوس ورفع لقيمتها ، كما انه دين حضارة وسياسة ونظام وعمل .

ورغما كما كنا نصادفه فى طريقنا من الحواجز والاشواك من طرف الاستعمار ، كنا نعمل ما نستطيع للدفاع عن كياننا الروحي ، ونتطلع الى ذلك اليوم الذى نصير فيه احرارا فى بلادنا اعزاء فى ديارنا ؛ لننشيء دولة جديدة تتمثل فيها تلك الصور الحافلة من ماضي الاسلام، وما كان له من عز وقوة ونظام ، وما ساعد عليه من حضارة وعمران، وما عمل عليه من رفع من مكانة البشرية ، والسمو بها الى العلياء . ونعمل على الاهتداء بهدي القرآن ، فنعرض عليه جميعا احكامنا وتشريعاتنا ، لنرى هل نحن ناهجون نهجه ، مهتدون بهديه ، أم ان حظنا من الاسلام هو فى مجرد الانتساب اليه ، والادعاء اننا من اتباعه .

ان الاسلام الذى ندعو الى التمسك به، والسير على هديه ، ليس كما يفهمه خصومه الملحدون ، او محاربوه الجامدون ، وانما هو الاسلام الذى اتى به القرآن، والذى كان العامل الفعال المؤثر فى حياة الامة العربية وغيرها من الامم ، يدفعها دائما الى جلائل الاعمال، ويهذب نفوسها ويدعوها للعمل واستخدام ما وهبها الله من عقل وتفكير فيما يعود بالخير على العباد .

اننا نرى من واجب الامانة لهذا الشعب النبيل وملكه العظيم ان نرجو من جلالتكم باعتباركم امير المومنين ، وراعيها الامين ان تلتفتوا التفاتة خاصة لهذه الناحية التى تتطلب الاصلاح والتوجيه ، فتضيفوا حسنة تضاف لحسناتكم التى تلقون جزاءها عند ربكم ويشعر الجميع ان هذا القطر قطر مسلم قولا وعملا الى ان يرث الله الارض ومن عليها ، وان تامروا اسركم المطاع بوضع تصميم يكون من شانه تثبيت اركان الاسلام وعقائده بهذه الديار وتوجيهها توجيها

تفسير ابن عطية

الذي أمر أمير المؤمنين جلالة الحسن الثاني بطبعه.

للأستاذ أحمد عبد الرحيم عبد البر
من علماء الازهر

قد امر مولانا امير المؤمنين الحسن الثاني — ادام الله تأييده بالحق والتوفيق — بطبع كتاب (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) للامام ابي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الاندلسي المغربي الغرناطي. فتألفت لجان من خيرة العلماء للاشراف على اخراجه والتعليق عليه ؛ والعمل سائر بنشاط وجد فاردت ان اعطي اخواني القراء صورة واضحة ومقدمة شارحة عن هذا الكتاب وعن كتب التفسير بالمأثور نتيجة لكثرة قراءتي لهذه الكتب حتى يزيد شوق طلبة العلم لتفسير ابن عطية بالذات .. ويعرفوا مأخذ الكتاب واسلوبه. ومن اين اخذ ؟ ومن الذي سلك مسلكه من بعده ؟ ولندرك جميعا حسن اختيار سيدنا امير المؤمنين لهذا الكتاب ليخرج للناس في ضبط واتقان وذلك يقتضي أن نعرف تاريخ التفسير بالمأثور من عهد الصحابة رضوان الله عليهم الى الف سنة من الهجرة .. فقد بدا الصحابة يتلون كتاب الله عبادة . ويعملون به تشريعا وقانونا ويسألون الرسول صلى الله عليه وسلم عما اشكل عليهم فهمه ثم يسأل بعضهم بعضا — بعد الرسول — وكان فيهم متخصصون في تأويل القرآن وفهمه مثل ابن عباس وابن مسعود وعلي بن ابي طالب .. وتتلمذ التابعون على الصحابة واخذوا عنهم .. وتخصص من التابعين كثيرون مثل مجاهد وقتادة وغيرهما ثم بدا التدوين الفني لتفسير القرآن وصار مع الزمن يزداد اتقانا شأن كل فن ويأخذ المتأخر عن المتقدم ويزيد عليه من فروع الفن كالاعراب .. مثلا

ولنذكر كتب التفسير بالمأثور اجمالا ثم نتبعها بشيء من التفصيل لنعرف مكانة ابن عطية من هؤلاء ومشربه وطريقته ..

1) جامع البيان لابن جرير الطبري .. في القرن الثالث الهجري . ولد سنة 224 هـ وتوفي سنة 310 هـ .

2) بحر العلوم لابي الليث السمرقندي المتوفى سنة 373 هـ .

3) الكشف والبيان لابي اسحاق الثعلبي المتوفى سنة 427 هـ .

4) معالم التنزيل لابي محمد الحسين البغوي المتوفى سنة 510 هـ .

5) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية المتوفى سنة 546 هـ

6) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير المتوفى سنة 774 هـ .

7) الجواهر الحسان في تفسير القرآن لعبد الرحمن الثعالبي المتوفى سنة 876 هـ .

8) الدر المنثور في التفسير بالمأثور لجلال الدين السيوطي المتوفى سنة 911 هـ .

وفي هذه الفترة ظهرت كتب التفسير بالرأي . والتفسير الصوفي ؛ وتفسير الاشارات الباطنية .. وتفسير الشيعة في حلقات متتابعة ؛ وسنترك الكلام عليها الى فرصة أخرى .. ان شاء الله .

هذا وابادر فاقول ان هذا البحث مرجعه كتاب (التفسير والمفسرون) لفضيلة الاستاذ الشيخ محمد حسين الذهبي من علماء الازهر .

اسلاميا صحيحا يقضي على الالحاد والزندقة من جهة وعلى الجمود والتخريف من جهة اخرى ويرتكز الوازع الديني في النفوس وينشيء الجيل الجديد تنشئة اسلامية صحيحة .

اننا لا نحتاج الى تاكيد ما يفعله الوازع الديني في النفوس من حب للخير ، وابتعاد عن الشر ، وتعلق بالمبادىء المثلى ونضال في سبيل السعادة الانسانية وخير المجموع ، فان العظماء الذين خبروا الحياة وامتحنوها واقاموا الدول واسسوها ، قدروا ما للعامل الديني من اهمية في تكوين الشعوب وتماسكها وضمان تقدمها . ويكفي للتدليل على ما نقول الاتيان بكلمة فاه بها مؤسس الدولة الامريكية العظيمة جورج واشنطن في خطابه الوداعي حيث قال :

« اذا نظرنا في الميول والعادات التي تقود الى النجاح السياسي، وجدنا الدين والاخلاق اكبرها شأنا، واشدها لزوما ، لذلك النجاح . وانه لا يستحق ان يوصف بوصف الوطنية من يحاول ان يهدم هذه القمة العظيمة للسعادة الانسانية ، هذه الدعائم التي تسند سلطان الواجبات بين الناس والمواطنين فالسياسي والرجل الصالح كلاهما ينبغي ان يحترم هذه الدعائم ويحافظ عليها . الى ان يقول : اين يوجد الضمان للناس في ملكهم وسيرتهم وحياتهم اذا اختفى روح الوازع الديني من الايمان التي هي ادوات البحث في محاكم العدالة ! وهنا سمحنا لانفسنا ان نفترض انه يمكن المحافظة على الاخلاق من غير الدين ، فمهما يكن تاثير التربية التثقيفية على بعض العقول فان المنطق والتجربة يمنعاننا ان ننتظر ان يسود سلطان الاخلاقية القومية بدون المبادىء الدينية »

هذا ما يقوله جورج واشنطون في الدين المسيحي فكيف نقول في الدين الاسلامي الذى اعترف الجميع انه اكثر مرونة ومسايرة للحياة كما انه صالح لكل زمان ومكان .

لقد لاحظت يا مولاي اثناء زيارتي لبعض الاقطار الاوربية أن القوم مهتمون اشد الاهتمام بقضايا دينهم ، عاملون على تثبيت قواعده واصوله ، رغم ما نسمعه عنهم من تعال عن الاشتغال بقضايا فات وقتها . وآخر ما رايته اثناء زيارتي لروما تنظيم مؤتمر للشبيبة العاملة المسيحية شاركت فيه عدة آلاف من الشبيبة المسيحية من فتيات وفتيان ممثلة لكل الهيآت المسيحية في العالم ولقد درست في هذا المؤتمر قضية مواجهة الافكار الالحادية وما تتطلبه المسيحية من تجديد واصلاح للمحافظة على روحها ودرء الاخطار المهددة لها . هذا في الوقت الذى تنظم فيه الدعاية الاستعمارية ضد الاسلام بدعوى انه لم يبق صالحا لركب الحضارة العصرية ، وان التقدم والتطور يتطلبان الانسلاخ النهائي من افكاره الرجعية العتيقة .

ان الاسلام يا مولاي يعتبركم راعيه الامين بهذه الديار واننا نعتقد مخلصين انكم احد اولئك المجددين المخلصين الذين اشار اليهم جدك في حديث صحيح من ان الله يبعث على راس كل مائة سنة من يجدد لهذه الامة امر دينها فسيروا ايها الامام العظيم في نهجكم وسيرتكم المثلى وبلغوا الرسالة التي حملكم الله اياها من التمسك بشريعة جدكم الاعلى ، واعتقدوا ان الله الذى عودكم النصر والتوفيق سيكون اكبر عون لكم في اداء رسالتكم وسيكون معكم ولن يتركم اعمالكم .

انني اقترح على سيدنا المنصور ان يغتنم فرصة هذا المولد الشريف فيلقي خطابا يذكر فيه شعبه بامجاده ويدعوه الى اتباع سنن اسلافه ، ويحض شباب هذا البلد بنوع خاص على دراسة الاسلام والتعرف الى اسراره كما يامر العمال والنواب وكل المسؤولين بالسير في النهج القويم والضرب على ايدي المخالفين والمستهترين وان يامر بتاسيس مجلس يضم خيرة من الشباب المثقف المسلم الغيور يكون تابعا لوزارة الاوقاف مثلا وتكون مهمة هذا المجلس موجهة ومرشدة من جهة ومتتبعة لكل المخالفات والمصادمات التي تقع ضد الاسلام من جهة اخرى كما تدرس الوسائل التي من شانها ان تنهض بالروح الاسلامية بهذه الديار وتبلغ الجميع لسيدنا المنصور لياخذ فيه رأيه ويعمل فيه واجبه باعتباره الراعي الاول لهذه الامة المحظوظة بوجوده حفظه الله ونصره.

ان سيدنا اذا فعل ، سيكون قد احتاط للامانة التي طوقه الله اياها وسيقضي ان شاء الله على كل مظاهر الانحلال الخلقي ويجعل من امته امة صالحة وسطا، يباهي بها الامم الصديقة وغيرها وتمتاز عن غيرها بانها استطاعت بوجوده ان تحافظ على مقوماتها ، وتعمل لدينها كما تعمل لدنياها . وما ذلك على همة ملك مخلص مومن بعزيز .

وفق الله مولانا الامام وحفظه في ولي عهده الشهم الهمام وجميع انجاله الكرام وعلى تمام الطاعة والولاء والسلام .

سلا ـ ابو بكر القادري

1 ــ جاء أول القرن الثالث الهجري فنبغ عالم كبير من طبرستان هو محمد بن جرير الطبري المولود سنة 224 هـ ــ ورحل في طلب العلم وهو ابن 12 سنة الى مصر والشام والعراق واستقر في بغداد الى أن توفي سنة 310 هـ ــ وكان شافعي المذهب . وفيه تشيع لال البيت الاطهار ــ فكان الطبري اول من توسع في انصاف اقطار لدائرة التفسير بالمأثور . وكانت طريقته ان ينقل المأثور عن الرسول اولا ــ ثم عن الصحابة والتابعين ــ ويرجح بين اقوال الصحابة ويختار ــ ويرجح بين اقوال التابعين ويؤيد بعضها . ويستنبط ويوجه الاقوال بعقل وبحث حر ويذكر الاعراب .

وجد الكتاب في حيازة امير من نجد مخطوطا فطبع وانتشر وانتفع به كثير من المسلمين .

قال النووي : أجمعت الامة على انه لم يصنف مثل تفسير ابن جرير .

فهو اول في الزمن نسبيا . واول في الفن والصناعة ــ يعتمد على السند ما دام موجودا . ولا يأخذ بالراي ، ويرد على الروايات الضعيفة ، ويناقش المعتزلة ويرد عليهم ، ويأخذ بالاجماع ، ويدخل في مسائل علم الكلام ويرد على القدرية .

ويذكر القراءات وينزلها على المعاني . ويذكر أسانيد الاسرائيليات ثم يتعقب كثيرا منها بالنقد ، ويترك ما لا فائدة فيه كنوع طعام المائدة التي طلبها أصحاب عيسى ويرجع الى اللغة عند كثرة الروايات كما قال في لفظ التنور في قصة الطوفان ويستشهد بالشعر القديم على صحة المأخذ للمعاني . ويذكر مذاهب النحويين في الاعراب .

2 ــ وابو الليث السمرقندي هو نصر بن محمد بن ابراهيم السمرقندي الحنفي .. يأخذ بالمأثور عن السلف ولا يذكر السند ولا يعقب ولا يرجح بين الاقوال . يذكر القراءات بقدر . ويحتكم الى اللغة أحيانا ، ويشرح القرآن بالقرآن ، ويقلل من ذكر الاسرائيليات ، ويروي عن الكلبي والسدى ، ويفسر بالرواية والدراية ويغلب الجانب النقلي على العقلي ويوجه الاشكالات ويجيب عليها .

ولكنه لا يتحرى دقة الرواية ، فلو قرأت في كتابه المنسوب اليه (تنبيه الغافلين) لادركت انه يذكر احاديث ضعيفة او موضوعة في بعض الاحيان .

3 ــ كتاب الكشف والبيان لابي اسحاق الثعلبي احمد بن ابراهيم الثعلبي النيسابوري المقرىء المفسر الواعظ ــ وكتابه هذا فيه كثير من المعاني والارشادات وكلمات لارباب الحقائق غامضة ــ وفيه اعراب وقراءات . يحذف السند . ويذكر النحو بتوسع ويستشهد بالشعر ويذكر الاحكام الفقهية بالتفصيل . ويذكر الاسرائيليات ولا يعقب عليها مع ما فيها من الغرابة والبعد . ولو قرأت كتابه المسمى (العرائس في قصص الانبياء) لعرفت أنه لا يتحرى ــ وهو يروي عن السدى الصغير عن الكلبي ويذكر الاحاديث الموضوعة في فضائل السور ــ قال ابن تيمية انه حاطب ليل .

4 ــ كتاب معالم التنزيل لابي محمد الحسين البغوي : وهو شافعي محدث مفسر تلميذ القاضي حسين وهو صاحب كتاب المصابيح في السنة مبارك مقبول يفسر بالمأثور عن الصحابة والتابعين ويجمع الصحيح من الاقاويل فهو خال من الشبه ، كله سنة واحكام شرعية .

ولكنه يأتي فيه بالقصص الغريبة وباخبار عن الماضين اشد غرابة ــ فهو وان اختصر تفسيره من تفسير الثعلبي الا انه لم يذكر فيه الاحاديث الموضوعة والاراء المبتدعة ــ وقد قال الشيخ الكتاني ان هذا الكتاب قد يوجد فيه من المعاني والحكايات ما يحكم بضعفه او وضعه ــ وهو لا يذكر السند بل يقول : قال ابن عباس .. قال مجاهد .. قال عطاء . وقد يروي عن الكلبي وغيره من الفقهاء ، وتراه يذكر القراءات ويتحاشى ذكر الاعراب والبلاغة . ويذكر الاسرائيليات ولا يعقب عليها . ويذكر الخلاف ولا يرجح بين الاقوال .

5 ــ كتاب المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ، وسنعرف الكلام عنه بالتفصيل بعد المقدمة .

6 ــ كتاب تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير البصري الدمشقي الشافعي .

اخذ عن ابن تيمية وفتن بحبه وامتحن بسببه . سمع كثيرا وجمع وصنف فهو زعيم ارباب التأويل ، وكتابه يعد الكتاب الثاني بعد ابن جرير ــ يفسر القرآن بالقرآن ثم يذكر الاحاديث ويتحرى الصحة ، ثم يذكر اقوال الصحابة والتابعين والسلف ويرجع لبعض الاقوال ويصحح

ويعدل وينبه على الاسرائيليات ويحذر منها ، وينقل عن ابن جرير وابن عطية ويدخل فى المناقشات الفقهية . فكتابه سهل العبارة حلو المأخذ مبارك مقبول متداول — ولم يؤلف على نمطه مثله .

7 — كتاب الجواهر الحسان فى تفسير القرآن لعبد الرحمن الثعالبي : الجزائري المالكي ، المغربي ، رحل من الجزائر لطلب العلم فى آخر القرن الثامن الى بجاية ثم تونس ثم الى مصر ، وقد جمع المهم من تفسير ابن عطية وزاد عليه . وأخذ من كتاب ابن جرير الطبري..

ونقل من كتاب ابن عطية الكلام فى فضائل القرآن ، وفضل تفسير القرآن واعرابه . ومراتب المفسرين وما قيل فى الجراة على تفسير كتاب الله . واختلاف الناس فى شرح حديث (انزل القرآن على سبعة أحرف — وما قيل فى الالفاظ الاعجمية فى القرآن)

ونشهد ان الثعالبي جمع ورتب وزاد اثرا فكريا ضئيلا — يتعرض للقراءات احيانا وللاعراب لقواعد النحو — ويذكر النص ولا يذكر السند . ويذكر الاسرائيليات ويعقب عليها وكتابه متوسط لا حشو فيه يخل ولا تطويل فيه يمل ، والكتاب مطبوع فى الجزائر .

8 — كتاب الدر المنثور فى التفسير بالمأثور لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي الشافعي ..

وكان السيوطي الف كتاب (ترجمان القرآن) وذكر فيه السند . ولكنه اختصره وحذف السند وسماه الدر المنثور فى التفسير بالمأثور. وهو هذا الذي نتكلم عليه .

وكان السيوطي الف كتاب (مجمع البحرين ومطلع البدرين) للتفسير فى كتاب يشبه تفسير الطبري وجعل له مقدمة هو كتاب (الاتقان فى علوم القرآن) .

فكتاب الدر المنثور هذا كتاب جامع فقط يسرد الروايات ولا يعقب عليها فهو مغرم بالجمع وكثرة الرواية ، ولم يتحر الصحة فيما جمع مع تفوقه فى فن الحديث . فالكتاب يحتاج الى تصفية فقد علمت ان الكتاب كله مأثور ولا راي للسيوطي فيه .

اما ابن عطية فهو ابو محمد عبد الحق بن غالب ابن عطية الاندلسي المغربي الغرناطي الحافظ القاضي، ولي القضاء بمدينة المرية بالاندلس — فتوخى الحق وعدل فى الحكم — ويقال انه قصد مدينة مرسية بالمغرب ليتولى قضاءها فصد عن دخولها وصرف عنها الى مدينة لرقة بالمغرب . وكان مولده سنة 481 هـ وتوفى بمدينة لرقة سنة 546 هـ . قال ذلك ابو حيان فى البحر المحيط ج 1 ص 9 .

وفى كتاب الديباج المذهب فى معرفة اعيان المذهب ص 174 قال : هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمان ابن عبد الرؤوف بن تمام بن عطية بن خالد بن عطية بن خالد بن خفاف بن اسلم بن مكرم المحاربي يكنى ابا محمد — من ولد زيد بن محارب بن حفصة بن قيس ابن غيلان — من مضر .

وفى كتاب بغية الوعاة فى طبقات النحاة للسيوطي ص 295 ذكر هذا النسب ببعض تغيير بالحذف من أسماء الجدود .

وفى كتاب كشف الظنون عند التعريف بكتاب المحرر الوجيز لابن عطية قال : هو ابو محمد عبد الحق ابن ابي بكر بن غالب بن عطية الغرناطي — وقال ايضا: هو ابو محمد عبد الله بن عبد الحق .. وهذا الخلاف لا يفيدنا فى موضوعنا الذي نحن بصدده .

مكانته العلمية : نشأ القاضي ابو محمد ابن عطية فى بيت علم وفضل . **فابوه** ابو بكر غالب بن عطية امام حافظ وعالم جليل رحل فى طلب العلم وتفقه على العلماء ، **وجده** عطية رزق اولادا كثيرين لهم قدر وفهم وفضل . فلا عجب اذن ان يشبه الفرع أصله .

وكان ابن عطية غاية فى الفهم والذكاء وحسن التصرف شغوفا باقتناء الكتب .

كان على مبلغ عظيم من العلم فقيها جليلا عارفا بالاحكام والحديث والتفسير لغويا اديبا شاعرا مقيدا ضابطا فاضلا . وصفه صاحب قلائد العقيان بالبراعة فى الادب والنظم والنثر وذكر شيئا من شعره .

ووصفه ابو حيان فى مقدمة البحر المحيط بانه اجل من صنف فى علم التفسير وافضل من تعرض فيه للتنقيح والتحرير . ج 1 البحر المحيط ص 9 .

وقد عده ابن فرحون فى الديباج المذهب من اعيان المالكية ، كما عده السيوطي فى كتاب بغية الوعاة من شيوخ النحو واساطين النحاة . فهو عالم له شهرته العلمية فى نواح مختلفة .

فلا غرابة اذا جاء كتابه (المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز) فريدا فى بابه فهو تفسير له قيمته العالية بين كتب التفسير وعند جميع المفسرين .

وذلك راجع الى ان مؤلفه اضفى عليه من روحه العلمية الفياضة ما اكسبه دقة وثقة ورواجا وقبولا .

قال ابن خلدون في مقدمته ص 491 " وقد لخص ابن عطية مؤلفه من كتب التفاسير بالمنقول كلها وتحرى ما هو أقرب الى الصحة منها ووضع ذلك في كتاب متداول بين اهل المغرب والاندلس فهو كتاب حسن المنحى .

والحق ان ابن عطية برع في هذا التفسير واحسن حتى طار صيته في كل مطار وصار اصدق شاهد لمؤلفه بامامته في العربية وغيرها من النواحي العلمية المختلفة . ومع هذه الشهرة الواسعة لهذا الكتاب فانه لا يزال مخطوطا الى اليوم .

اسلوب الكتاب : ان ابن عطية — رحمه الله — يذكر الآية ثم يفسرها بعبارة سهلة ويورد من التفسير المأثور ويختار منه في غير اكثار . وينقل عن ابن جرير الطبري كثيرا ويناقش المنقول عنه احيانا . وينقل عن غير ابن جرير ويناقش ويرد .. وهو كثير الاستشهاد بالشعر العربي ويعتني بالشواهد الادبية للعبارات ويحتكم الى اللغة العربية عندما يوجه بعض المعاني ويهتم بالصناعة النحوية ويذكر القراءات وينزل عليها المعاني المختلفة .

قال ابو حيان في مقدمة تفسيره البحر المحيط ج 1 ص 10 يعقد مقارنة بين ابن عطية وتفسير الزمخشري : وكتاب ابن عطية انقل واجمع واخلص . وكتاب الزمخشري الخص واغوص .

وقال ابن تيمية في كتاب الفتاوي ج 2 ص 194 يعقد مقارنة بين تفسير ابن عطية وتفسير الزمخشري وتفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشري واصح نقلا وبحثا وابعد عن البدع . وان **اشتمل على بعضها ،** بل هو خير منه بكثير ، بل لعله ارجح هذه التفاسير .

كما قال ابن تيمية ايضا في مقدمته في اصول التفسير ص 23 : — وتفسير ابن عطية وامثاله اتبع للسنة والجماعة واسلم من البدعة من تفسير الزمخشري . ولو ذكر كلام السلف الموجود في التفاسير المأثورة عنهم على وفرته لكان احسن واجمل ، فانه كثيرا ما ينقل عن تفسير ابن جرير الذي هو من اجل التفاسير واعظمها قدرا — ولكنه لا يعقب بما عقب به ابن جرير في الترجيح او الرد — وتراه ايضا يقول : قال المحققون .. وانما يعني بهم طائفة من أهل الكلام الذين قرروا اصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة اصولهم — وان كان اقرب الى السنة من المعتزلة .

ونرى ما اشار اليه ابن تيمية واضحا في تفسير سورة يونس عند قول الله تعالى (للذين احسنوا الحسنى وزيادة ..) قال ابن عطية ما نصه :

قالت فرقة هي الجمهور : الحسنى هي الجنة، والزيادة النظر الى الله عز وجل ، وروي في ذلك حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم رواه صهيب . وروي هذا القول عن ابي بكر الصديق وحذيفة وابي موسى الاشعري .. ثم يقول :

وقالت فرقة : الحسنى هي الحسنة ، والزيادة هي تضعيف الحسنات الى سبعمائة كما روى في حديث مضاعفة الحسنات وكما في قوله تعالى (والله يضاعف لمن يشاء) في سورة البقرة . قال : وهذا قول يعضده النظر ولولا عظم القائلين بالقول لترجح هذا القول ثم ياخذ في ذكر طرق الترجيح للقول الثاني . وهذا يدلنا على انه يميل الى ما تميل اليه المعتزلة — او على الاقل يقدر ما ذهب اليه المعتزلة في مسألة الرؤية وان كان يحترم مع ذلك راي الجمهور — ولعل مثل هذا التصرف من ابن عطية هو الذي جعل ابن تيمية يحكم عليه بحكمه السابق .

وكذلك عند تفسيره لقول الله تعالى في سورة يوسف (ولقد همت به وهم بها لولا ان رأى برهان ربه) .. لقد ذكر اقوالا متعددة في الهم من الطرفين ونزل الى اسرائيليات لا تقال الا ممن يبغضون الانبياء وكان الاولى به ان ينزه كتابه عن مثل هذا وان كان يعقب بذكر الراي المختار ولكن القارىء قد يأخذ الادعاء ويتناسى نقضه .

ولكن الذي طمأنني كثيرا هو ان سيدنا أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني أدام الله نصره قد اصدر أمره الكريم بتأليف لجان من مشايخنا اصحاب الفضيلة العلماء الاجلاء الاعلام الراسخين في العلم لمراجعة هذا الكتاب قبل طبعه وللتعليق عليه بتأييد القول الصحيح والاشارة الى الاقوال الضعيفة بما يجعل القارىء على بصيرة نيرة ومأخذ سليم . وسيكون هذا العمل الجليل مأثرة من مآثر سيدنا تضاف الى

مراجعات درس جلالة الحسن الثاني :

الحسنيان : الملك والحكمة

للعميد الأستاذ : محمد عزيز الحبابي

ان علاقتي بالفلسفة (هواية وهوى واحترافا) اكسبتني حساسية خاصة بلوينات الانتاج الفكري المختلفة ، اكثر من طاقة الانفعال بالقطاعات المنتجة الاخرى .

فتقديرنا للحسن الثاني ينبثق عن اعجابي بالرائد الذي يضيء المشى الثقافي والروحي لمغرب اليوم. لقد اتاه الله « الملك والحكمة » ، وعلمه من تاويل الاحاديث، مما بواه الصدارة في النبوغ المغربي . لقد اظهر جلالته، في الاحاديث الرمضانية : اصالة واتساع معرفة وعمقا . فاذا كان ذلك موضوع اجلال ، فالتقدير الاضخم يذهب الى الحسن الثاني المفكر الاسلامي الذى ابى الا ان يجند ثقافته ، بازدواجيتها، لانه « اذا فتح الله قلب الانسان وبصيرته مكنه ان يدلي ولو بنصيب قليل فى تعريف الاسلام وفى تفهيم الاسلام بطريقة عصرية واضحة » (1).

ذاك هدفه نصرة الله. اما المنهج، فهو «الاجتهاد» على منوال السلف الصالح : كما هو جدير بكل مفكر اسلامي اصيل ، يدعو الى الصراط القويم : « قل هذه سبيلي ادعو الى الله ، على بصيرة ، انا ومن اتبعني » (قرآن : 12، 108) ، وهل البصيرة الا الدليل الواضح ، بطريقة واضحة ؟ فالعالم الحق هو كما يعرفه صاحب الجلالة « من يحاول ان يستنبط من احاديث النبي (صلعم) ومن آيات كتاب الله الفوائد العصرية الفقهية التى من شانها ان تجعل من مجتمعنا مثلا للحضارة يقدم تلك الحضارة ، لا مجتمعا راكدا » .

فـ « الاجتهاد » ، اذن مبدا ومنهج يفتحان الآفاق على التقدم الحثيث ، اذ « لا خير فى فقيه اذا لم يعرف اسباب التشريع واذا لم يعلم بروح المشرع ونية المشرع » . فالاجتهاد ، كما فى هذا المعنى ، التزام ، فكريا واخلاقيا .

* * *

الهجرة بداية تاريخ الاسلام ورمزه . انها تعني ، اصلا، الانتقال من وسط لآخر ، («وسط» هنا فى معنى اوسع من محيط جغرافي) . الهجرة استبدال مواطنة معنوية وروحية باخرى . « انما الاعمال بالنيات ، وانما لكل امريء ما نوى : فمن كانت هجرته الى الله ورسوله ، فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها ، او امراة ينكحها ، فهجرته الى ما هاجر اليه » (حديث) .

يريد الحسن الثاني مهاجرين فى مسيرة المصير المزدوج ، المصير المعنوي ، داخل عالم يبحث عن سبيله فى معمعة المشاغل التقنية عساه يبلور معايير وقيما جديدة ، والمصير الحضاري الذى يزحف على التخلف ، ليتغلب عليه الانسان المغربي فيكون خلفا لله فى الارض : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض ، كما استخلف الذين من قبلهم » (قرآن : 24، 55) . فهل من

(1) الاستشهادات من درس صاحب الجلالة فى رمضان 1388 — 1968 .

فضائله الجمة وافضاله الكثيرة التي لا تحصى ومظهرا من مظاهر غيرة أمير المؤمنين على الدين الحنيف والنهوض بالشريعة الاسلامية بصورة نقية واسلوب يساير العصر وفقه يتفق وجلال القرآن وسعة فى الفهم الصحيح وحرية فى البحث العقلي مع الاستنارة بالمأثور من القول السليم والفهم المستقيم كما عهدناه فى أسلوب جلالته حفظه الله عندما يلقي الدرس الديني فى رمضان . ففي الحق ان جلالة الملك تحقيق لوعد الرسول صلى الله عليه وسلم اذ يقول : ان الله يبعث على راس كل مائة سنة من يجدد لهذه الامة امر دينها . أعز الله به الاسلام والمسلمين وجمع الله به كلمة المسلمين على الحق وحقق الله الامل بسيدي محمد ولي العهد المبارك وجعله الله قرة العين لوالديه وللاسلام والمسلمين .

الرباط — أحمد عبد الرحيم عبد البر

من علماء الازهر



تمجيد للانسان الواعي لانسانيته اعظم من ان يكون خليفة الله في الكون ؟ نعم ، استخلفنا الله في الارض ، الا ان « منا من احسن الاستخلاف ، ومنا من أساء . ومن الدول التي سبقتنا من احسنت الاستخلاف ، ومنها من اساءت » .

يريدنا الحسن الثاني مؤمنين بـ « الامانة » واهلا لتحملها : تلك الامانة التي عرضها الله « على السماوات ، والارض ، والجبال ، فابين ان يحملنها واشفقن منها ، وحملها الانسان » (قرءان : 72،33) .

* * *

انه لن يعصمنا اليوم من امور العصر وكوارثه الا « الاجتهاد » ، اي الجهد المزدوج الذى عبر عنه نبي الاسلام « اعمل لدنياك كانك تعيش ابدا ، واعمل لآخرتك كانك تموت غدا » .

هذه الثنائية لا تكتمل الا بتآلفها مع عامل ثالث هو الذوق او القلب . بهذا الثالوث (العقل والروح والقلب) تتلاحم وتتناغم البنيات (التحتية والفوقية) داخل المجتمع الصالح (2) ، فى عصر اصبح مشكل القلق الاكبر ، بالنسبة لمجموع شعوب الدنيا (وعلى الخصوص العالم الثالث) هو ما عبر عنه (هامليط) : « ان تكون ، او لا تكون ، ذاك هو المشكل » !

وما القلق الا « ما بين السيف وغمده ، ما بين السرج وجسد الفارس » (3) : انه بالنسبة للفرد ، عدم الانسجام ، داخل المجتمع . بيد ان هنالك مصدرا لقلق اكبر واشمل، هو التواجد الشكلي بين شعوب متخلفة (فكريا واقتصاديا) مع امم صناعية كبرى ، فى هذا الثلث الاخير من القرن العشرين الجبار ، حيث اكتسح العلم الزهراء والقمر . فالوسيلة الناجعة هي ان نومن بـ « الاجتهاد » والا بقينا نفكر فى عالم مضى و « نعيش » (حضورا ولكن غير مساهمين) فى عالم يتجدد بلا انقطاع . وبالمقابل ، ودون انقطاع كذلك ، تنتاب شعوبنا المتخلفة غصة فظيعة ، تقلصهم فى غربة ساحقة . فالعصاب ليس مرضا خاصا بالفرد ، بل قد يصيب كذلك الشعوب ، اذا هي رضيت بحياة مفككة الاوصال بين مطامح تتناقض مع الامكانيات الضحلة ، العاجزة .

قديما تحدث الحكماء عن مدينة السعادة ، وعن المدينة الفاضلة ، وعن مدينة الشمس .. فصاح آخرون : « تلك احلام ! نعم ، ولكن احلام امس قد اخذت اليوم طريقها نحو التحقق فلابد من «الاجتهاد» الذى هو سلاح فى «الجهاد» ضد التخلف ، اذ به سنذهب ، توا ، نحو تحقيق اهداف العصر بالوسائل التى يفرضها الوضع . ان الاجتهاد جهاد ، فى ميدان الدين وفى ميدان الدنيا : « لكل امة رهبانية ، ورهبانية هذه الامة الجهاد » (حديث) . فالجامع بين الجهاد والاجتهاد هو الجهد المنظم والمنظم الذى يهيمن على مجموع فعاليات الكائن البشري ـ الكل ذى الابعاد المادية والمعنوية والروحية : « رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر ، **جهاد النفس** » (حديث) . حقا ، لا رهبانية فى الاسلام ولكن لا تشتت فى المغامرات المادية : « ورهبانية ابتدعوها ، ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله ، فما رعوها حق رعايتها » (قرآن : 57،27) .

* * *

قلنا ان « الهجرة » رمز لـ « بنية » من بنيات هيكل الاسلام، وتشير الى بنية ثانية، هي «الوسطية»، ان صح هذا التعبير . يصرح القرآن ، مخاطبا المسلمين : « وكذلك جعلناكم امة وسطا ، لتكونوا شهداء على الناس » (قرءان : 2 ، 143) و«الوسط» بمعنى العدل والتعادل ، فالامة الاسلامية بين الشرق والغرب، بين الافراط والتفريط فى كل المواقف ، بين عقلانية ثلجية لا ترحم برودتها، والعفالية انطوائية تجر الى الزهد والقطيعة مع الحياة اليومية ، بين فكر منقب محلل بسانده حدس مشع ، وبين حياة القشر والتبذير ، بين بخل مقيت ، او زهد مرضي يعطل الوجود الطبيعي السوي ، وبين اندفاع جموحي وراء اشباع الغرائز .

وتتجلى «الوسطية» فى الحاح الاسلام على الالتزام ، داخل التاريخ العام ، رفضا للحياة الهامشية : « لتكونوا شهداء على الناس » ، والشاهد ملزم بمعرفة دقائق القضايا ، وبمحبة الحقيقة واحترام الواقع . هذا الالتزام ، هو ما يسميه الحسن الثاني بـ « المسؤولية » ، يؤكد جلالته على جانبها الالتزامي الواقعي ، بقوله : فمسؤوليتنا ليست المسؤولية

(2) البنية : فى مقابل اللفظة العلمية المستعملة اليوم Structure

(3) لسان العرب .

الميتافيزيقية التي نسمع عنها ولا نراها ، بل هي مسؤولية مجسمة لا يمكن ان يتهرب منها اي احد ، اللهم الا اذا كان مجنونا . اما اذا كان الانسان عاقلا ويستطيع التفكير الا وبامكانه ، بل من واجبه ، ان يحتفظ ، في الحين ، بمسؤوليته الخاصة ، ثم بمسؤوليته العامة » .

وتقع المسؤولية ، بنوعيها ، تحت مراقبة الله ، ما دام الله تعالى طرفا في عملية الشهادة ، اذ هو الحكم الاعلى الذي لا استئناف عليه : « لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا » ، والنبي الرسول شهيد ، طبقا لوحي من الله ومعايير وقيم .

تلك الوسطية تلزمنا بان نحدد ابعاد « علم كلام » جديد ينغمس في تاريخ الحضارة الانسانية ، تفهما واسهاما ، مع وعي للصيرورة . فنقطة التلاقي بين البعيد والقريب هي الـ « هنا » ، و « الهنا » ليس ظرفا ، بل تأليف متحرك يضم المكان الى الزمان . فعندما ننطق بهذه القضية مثلا : « الانسان يحيا » ، نقصد ان الانسان يسبح بين الماضي والمستقبل معا ، في وقت واحد ، ان الانسان حيوان واكثر : انه يعي الزمان ، كبعد من ابعاد الحياة البشرية ، تتابع انماطه دونما انقطاع . فمنذ (اينشطاين) تغيرت النظرة العلمية الى الزمان ، فلم يعد زمانا خطيا .

ان مسؤولية المسلم تتجذر في صميمية كينونته ، اذ يجد نفسه ملتزما لارتباطه الطبيعي بالنوع البشري ، طبقا لمعاهدة بين الله وآدم ، ابي البشر : « واذ اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم ، واشهدهم على انفسهم : الست بربكم ؟ قالوا : بلى ! » قرءان : 7 ، 172) .

* * *

تلك مجرد ايحاءات من درس الحسن الثاني ، الملك الذي يشرف الفكر الاسلامي المعاصر ، بالاجتهاد والواقعية . انه منهج قويم « يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام » (قرءان : 5 ، 16) .

نصر الله ملكنا المفكر المجتهد ، ووفقه في خدمة العروبة والملة الاسلامية .

الرباط ـ العميد محمد عزيز الحبابي





للأستاذ عبد القادر الصحراوي

لسنا هنا بصدد كتابة ترجمة مفصلة للمولى اسماعيل رحمه الله ، ولا بصدد كتابة ترجمة مفصلة لمعاصره العلامة الكبير الحسن اليوسي ، فقد يكون لكل ذلك مجال آخر غير هذا المجال .

وانما نحن هنا بصدد الحديث عن بعض رسائل الحسن اليوسي الى المولى اسماعيل ، ومع ذلك ، فان المقام يقتضينا أن نسطر هنا بعض الخطوط العريضة في حياة كل من الرجلين ، وبعض الصفات أو الاحداث التي تساعدنا في القاء بعض الاضواء على ما ورد في الرسائل التي نريد أن نخصها بهذا الحديث .



لقد عمر المولى اسماعيل ثلاثا وثمانين سنة ، قضى منها في مركز السلطة والمسؤولية اربعا وستين سنة ، منها سبع سنين قضاها عاملا لاخيه المولى الرشيد على اقليم مكناس ، ومنها سبع وخمسون سنة قضاها ملكا مستقلا بالحكم ، منفردا بالسلطان .

ونحن لا نشك في ان هذا العمر المديد الذي كتبه الله لهذا الملك العظيم ، وهذه المدة الطويلة التي قضاها في الحكم ، وخصوصا منها مدة ملكه ، وهي سبع وخمسون سنة ، كل ذلك — الى جانب مواهبه الذاتية — كان من العوامل المساعدة له على انجاز الاعمال العظيمة التي انجزها ، سواء في ميدان العمارة والتشييد ، أو في ميدان السياسة والحكم ، أو في ميدان العمل من اجل تحقيق الوحدة الوطنية من جهة ، ومن أجل تحرير الثغور المغربية من جهة اخرى.

ان المولى اسماعيل ، هو الذي وطد بحق ، أركان الدولة العلوية الشريفة وارسى دعائمها ، وقضى على كل منافسة لها في الداخل، وفرض احترامها وهيبتها في الخارج .

ومن شأن الرجال الذين تنتدبهم الاقدار للقيام بمثل هذه المهمات التاريخية ، ان يكونوا على جانب كبير من العزم والحزم ، ومن شدة المراس .

وقد كان المولى اسماعيل كذلك بالفعل ، ولعل هذا هو الانطباع الاول الذي تتركه قراءة سيرة حياته ، في اي كتاب من كتب التاريخ .

*

ولكن المولى اسماعيل كان الى جانب كل ذلك ، يمتاز بصفات اخرى ، قد تكشف تجليتها على جوانب اخرى من شخصيته .

والعظماء عادة تتعدد جوانب شخصياتهم، ويصدر عنهم من الاعمال والتصرفات او يقفون من المواقف ، ما قد يبدو متناقضا لاول وهلة ، وليس في الامر من تناقض ، وانما هنالك تعدد لجوانب الشخصية ، يطغى جانب منها في موقف ، ويطغى جانب آخر منها في موقف آخر .



من ذلك ان المولى اسماعيل رحمه الله ، كان يخفض جناحه للعلماء ويترفق بهم ، ويستشيرهم في اموره ، ويعترف لهم بالفضل ، ويقبل منهم النصح ، ولو جاء هذا النصح احيانا في صورة شديدة، كما هو الشأن بالنسبة لبعض رسائل الحسن اليوسي اليه ، تلك الرسائل التي نعقد من اجلها هذا الفصل .

صحيح ان المولى اسماعيل قد امتحن بعض علماء عصره ، ولكننا عند النظر في ذلك سنجده يتعلق بعامل اساسي في سياسة الدولة ، كتكوين جيش عبيد البخاري ، ذلك الجيش الذي كان يراه المولى اسماعيل ضروريا على الصورة التي تم عليها تكوينه ، ليتاح له بذلك ان يستغني عن الاستنصار بالقبائل ، وبالتالي ان يجردها من السلاح ، لما كان يرى في ذلك من ضمان للوحدة الوطنية ، ولاستتباب الامن وسيادة النظام .

ثم انها قضية قد ينفسح فيها الباب للاجتهاد ، وللاخذ والرد ، ولعل المولى اسماعيل بعد أن تم له الاقتناع بصواب مسلكه في ذلك، حمل موقف العلماء الذين خالفوه فيه ، على انه مجرد معارضة لا تستند الى اساس قوي غير قابل للمناقشة ، خصوصا بعد ان وافقه على ذلك بعض العلماء ، وسكت عنه بعضهم الآخر ، فلم يؤيد ولم يعارض .

وفيما عدا هذه الحالة أو شبيهاتها ، فان المولى اسماعيل ، كان على ما ذكرنا من خفض الجناح للعلماء ، والترفق بهم ، واستشارتهم ، والاعتراف لهم بالفضل ، وقبول النصح منهم ، وسنسوق فيما يلي بعض مواقفه التي تؤيد ذلك ، وتكشف عن هذا الجانب الآخر من جوانب شخصيته .

*

من ذلك، ما كان يردده من بعد، السلطان العالم مولاي سليمان ، « وهو ان المولى اسماعيل لما ايقن بالموت ، دعا وزيره وعالم حضرته ، الكاتب ابا العباس اليحمدي وقال له : « اني في آخر يوم من ايام الدنيا ، فأحببت ان تشير علي بمن اقلده هذا الامر من ولدي ، لانك اعرف مني باحوالهم » فقال له : « يا مولانا لقد كلفتني امرا عظيما ، وانا اقول الحق ، انه لا ولد لك تقلده امر المسلمين ، كان لك ثلاثة ، المولى محرز ، والمولى المامون ، والمولى محمد ، فقبضهم الله اليه » فقال له السلطان : « جزاك الله خيرا » وودعه ، وانصرف ، ولم يعهد لاحد » .

وعلى ذكر ابي العباس احمد اليحمدي هذا ، نذكر ان احد أبناء المولى اسماعيل ، حاول مرة أن يفسد بينه وبين والده ، فمضى الى المولى اسماعيل يقول له : « يا مولانا ، ان اليحمدي ينتقصك ، ويزعم انه هو الذي علمك دينك » فقال له المولى اسماعيل : « والله — ان كان قال ذلك — انه لصادق ، فانه هو الذي علمني ديني ، وعرفني بربي » .

ويعلق بعض المؤرخين المغاربة على ذلك قائلا : « وهي منقبة نجيبة للمولى اسماعيل ، في الخضوع للحق ، والاعتراف به ، رحم الله الجميع » .

*

ومما يذكر في هذا الباب ، ان المولى اسماعيل كان في البداية يسيء الظن بالشيخ احمد بن محمد بن ناصر الدرعي ، وكان من اعلام عصره علما وعملا ، فاستدعاه الى مكناس ، فلما كان الشيخ احمد بظاهر مكناس ، تقدم اليه المولى اسماعيل بنفسه ، وصافحه واختلى به ساعة ، خرج بعدها من عنده ، وهو يثني عليه ، ويرفع صوته بالنداء في الناس يدعوهم الى زيارته .



ولعل مما يتصل بهذا الباب ايضا ، باب احترام العلم ، وتقديس السنة ، والخضوع لها ، ما هو معروف من سبب تسمية جيش عبيد البخاري بهذا الاسم ، وذلك ان المولى اسماعيل عندما تم له تكوين هذا الجيش ، جمع ضباطه ورؤساءه ، وأحضر نسخة من صحيح البخاري ، وقال لهم : « انا وانتم عبيد سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشرعه المجموع في هذا الكتاب ، فكل ما امر به نفعله ، وكل ما نهى عنه نتركه ، وعليه نقاتل » .



ولا ينبغي أن ننسى هنا ان المولى اسماعيل كانت له زوجة أثيرة لديه ، هي السيدة خناثة بنت بكار أم ولده مولاي عبد الله ، وجدة المولى محمد بن عبد الله ، وكانت كما يقول عنها المؤرخ المغربي أبو عبد الله اكنسوس : « صالحة عابدة عالمة ، حصلت العلوم في كفالة والدها الشيخ بكار » .

وقد ذكر اكنسوس نفسه ، انه راى خطها على هامش نسخة من الاصابة لابن حجر .

ووصفها صاحب الاستقصا ، فقال عنها : انها كانت فقيهة اديبة ..

وذكرها الاستاذ عبد الله كنون في كتاب «النبوغ» فقال عنها : « كانت فقيهة عالمة ، بارعة اديبة ، خيرة دينة ، لها كتابة على الاصابة في معرفة الصحابة لابن حجر ، وكان لها كلام وراي وتدبير مع السلطان ومشاورة في بعض امور الرعية ، فانها كانت له وزيرة صدق وبطانة خير كما قال الوزير الاسحاقي في رحلته .. » .

ونحن لا نكاد نشك في ان هذه السيدة العالمة الفاضلة ، كان لها دور مهم في حياة المولى اسماعيل فيما نحن بصدده ، فان من سعادة المرء وحسن توفيقه ان يرزق بزوجة صالحة مثلها ، تكون له وزيرة صدق وبطانة خير .

❋

ويتصل بهذا الباب ايضا ان الحسن اليوسي في ختام رسالته « ندب الملوك الى العدل » يتحدث عن المولى اسماعيل وان لم يصرح باسمه ، فيقول : « وقد حمدنا الله تعالى اذ كنا في دولة سلطان هاشمي علوي فاطمي ، يستمع الحق ، ويطلبه ، ولا يانف منه ، ولا يستفزه كبرياء ، ولا اشر ، ولا بطر ، فهذا من فضل الله علينا ومنته لدينا » .

وهي شهادة على جانب عظيم من الاهمية ، لان الشخص الذي صدرت عنه ، وهو الحسن اليوسي ، لم يكن سهل الانقياد ، ولم يكن منافقا كذابا ، ولم يكن من الذين يبيعون دينهم بدنياهم ، بل كان على العكس من ذلك ، رجلا شديدا في الحق ، صريحا الى ابعد حدود الصراحة ، لا يتأخر عن ان يقول كل ما في نفسه ، وان يقوله بطريقة واضحة لا غموض فيها ولا ابهام ولا التواء ، وفي مراسلاته مع المولى اسماعيل نفسه ، ما يشهد بذلك ويؤيده ويؤكده .

ونحن نعتقد ان الحسن اليوسي انما قال ذلك في حق المولى اسماعيل ، بناء على تجاربه الشخصية معه ، وبناء على ما رآه وسمعه من المواقف والاخبار المؤيدة لذلك والدالة عليه .

❋

هذا ما دعت الحاجة الى ايراده هنا من احوال المولى اسماعيل ، فماذا عن الحسن اليوسي ؟

يرتبط اسم الحسن اليوسي ارتباطا كبيرا بالزاوية الدلائية ، وهي ذلك المركز العلمي الكبير ، الذي كان قائما بناحية تادلا ، الى ان استصفاه — لاسباب سياسية — ورحل القائمين عليه ، المولى الرشيد ، اخو المولى اسماعيل ، وسلفه المباشر على العرش .

لم يكن الحسن اليوسي من ابناء الزاوية الدلائية ولكنه كان من اشهر واذكى وانبغ تلامذتها وعلمائها ، واكثرهم وفاء لها .

وقد رحل اليها في الواقع ، وهو على جانب مهم من العلم ، يؤهله للمناظرة ، ولمناقشة فطاحل العلماء فاستكمل بها دراسته ، ومكث بها نحوا من عشرين سنة ، طالبا اولا ، ثم استاذا من اساتذتها الاعلام بعد ذلك .

وعندما استصفى المولى الرشيد هذه الزاوية كما اشرنا الى ذلك ، كان اليوسي من علمائها الذين نقلهم الى فاس .

ولم يلبث اليوسي الا مدة يسيرة بفاس ، حتى لمع اسمه ، كعالم كبير ، واستاذ متضلع ، ومؤلف مكثر .

❋

وكان اليوسي موضع حفاوة كبيرة من المولى الرشيد ، الذي يذكر عنه ، انه كان يحضر بنفسه احيانا مجالسه العلمية بجامعة القرويين .

وتوفي المولى الرشيد ، فخلفه على العرش اخوه المولى اسماعيل ، وقد حرص المؤرخون على ان يثبتوا اسم اليوسي في قائمة علماء فاس الذين بايعوه على اثر وفاة اخيه .

وقد ظل اليوسي موضع حفاوة واحترام من المولى اسماعيل كما كان شأنه مع اخيه من قبل ، الى ان توفي اليوسي سنة 1102 هجرية ، في اواسط عهد المولى اسماعيل .



وقد خلف لنا اليوسي مؤلفات كثيرة ، معظمها لا يزال مخطوطا ، والبعض منها سبق ان طبع بالمطبعة الحجرية القديمة بفاس ، ولعله لم يطبع منها طباعة

ويبدو ان اليوسي قد حرر هذه الرسالة ، في أعقاب ما كان المولى اسماعيل قد اقدم عليه من تجريد القبائل من السلاح والعدة الحربية ، بما في ذلك الخيل ، وذلك بعد أن تم له تكوين جيش قوي عتيد ، وبعد ان اقتنع اقتناعا كليا بمقدرة هذا الجيش على ضمان الوحدة الوطنية ، وعلى حماية الحدود والثغور ، وعلى خوض الحروب من اجل تحرير بعض المدن الساحلية المحتلة من طرف الاجانب ، كالعرائش واصيلا وطنجة وما الى ذلك .

ولسنا ندري على وجه التحقيق ، ما اذا كان الذي حرك اليوسي لكتابة هذه الرسالة، هو عدم استساغته لتجريد القبائل من الخيل والسلاح ، وخوفه ان يكون في ذلك اضعاف للمسلمين أمام ما قد يتعرضون له من الغزو الخارجي ، باعتبار ما كان سائدا من ان المسلمين جميعا مسؤولون عن الدفاع عن حوزة الاسلام ، أم انها مجرد رسالة عامة ، لا ترتبط بحادثة معينة ، او بسبب محدد بالذات .

وقد تباينت في ذلك آراء بعض المؤرخين الذين تحدثوا عن هذه الرسالة ، فرأى اكنسوس أن الذي حرك اليوسي لكتابتها انما هو عدم فهمه للمصلحة الحقيقية التي ينطوي عليها عمل المولى اسماعيل . وبعد ان شرح اكنسوس هذه المصلحة ، قال : « وهذا القدر الذي اعتذرنا به عن السلطان ظاهر غاية الظهور ، ولعله خفي على الشيخ اليوسي ، حتى كتب اليه برسالته المشهورة » .

ولكن الناصري في الاستقصا يرد على اكنسوس، فيقول : « ان ما فعله السلطان المولى اسماعيل رحمه الله من ذلك ، ظاهر المصلحة ، لا يخفى على أحد وجه استحسانه ، وقوله ان ذلك الاعتذار خفي على اليوسي ليس على ما ينبغي ، لان الشيخ اليوسي رحمه الله ، ما تكلم مع السلطان في أمر اولئك القبائل ومن في معناهم ، وانما كلامه معه أمور ثلاثة :

— الاول ، في جباية المال من وجهه وصرفه في وجهه .

— الثاني : في اقامة رسم الجهاد ، وشحن الثغور كلها بالمقاتلة والسلاح .

— الثالث : في الانتصاف من الظالم للمظلوم ، وكف اليد العادية عن الرعية » .

ثم اورد الناصري بعد هذا الكلام النص الكامل للرسالة .

ومهما يكن ، فان الذي يبدو من قراءة نص الرسالة ، هو أن كلام اليوسي في حض المولى اسماعيل على الابقاء للقبائل على سلاحها وخيلها ، لا يشمل جميع القبائل ، وانما يتعلق بصورة خاصة بسكان الثغور والسواحل البحرية .

وفي ذلك يقول اليوسي في صلب هذه الرسالة : « فعلى سيدنا ان يتفقد السواحل كلها من قلعية الى ماسة ، ويحرضهم على الجهاد والحراسة ، بعد ان يحسن اليهم ، ويعفيهم مما يكلف به غيرهم ، ويترك لهم خيلهم وعدتهم ، فهم حماة بيضة الاسلام ، ويتحرى فيمن يوليه تلك النواحي ، أن يكون اشد الناس رغبة في الجهاد ، ونجدة في المضايق ، وغيرة على الاسلام ، ولا يولي فيها من همته ملء بطنه ، والاتكاء على اريكته ، والله الموفق » .

ويستشهد اليوسي في رسالته هذه ، على وجه الصواب في الابقاء لسكان السواحل والثغور على سلاحهم وخيلهم وعدتهم الحربية ، ببعض سماعاته ومشاهداته ، فيقول : « وقد حضرت بمدينة تطاوين أيام مولانا الرشيد رحمه الله ، فكانوا اذا سمعوا الصريخ تهتز الارض خيلا ورماة ، وقد بلغني اليوم أنهم سمعوا صريخا من جانب البحر ذات يوم ، فخرجوا يسعون على ارجلهم، بايديهم العصي والمقاليع وهذا وهن في الدين ، وغرر على المسلمين ، وانما جاءهم الضعف من المغارم الثقيلة ، وتكليفهم الحركات واعطاء العدة كسائر الناس » .

وغير خفي ان هذه العبارة الاخيرة ، وهي : « واعطاء العدة » تعني ، كما نقول نحن بلغة العصر « تسليم السلاح » .

لقد اشرنا من قبل الى اننا لا نستطيع هنا ان ناتي بالنص الكامل لهذه الرسالة ، ودللنا عليها في موضعها من كتاب الاستقصا ليرجع اليها من شاء ، ونكتفي هنا بايراد فقرات أخرى منها ، لعلها تكفي مع ما سبق لاعطاء فكرة عنها .

يقول اليوسي بعد التحميد والديباجة : « وكنا كثيرا ما نرى من سيدنا التشوق الى الموعظة والنصح، والرغبة في استفتاح أبواب الربح والنجح ، فاردنا ان نرسل الى سيدنا ما ان وفق الى النهوض اليه ، رجونا له ربح الدنيا والآخرة ، والارتقاء الى الدرجات الفاخرة ، ورجونا وان لم نكن اهلا لان نعظ ، ان يكون سيدنا أهلا لان يتعظ ، وأن يحتمي من جميع المذام ويحتفظ ، فليعلم سيدنا أن الارض وما فيها ملك لله لا

عصرية الا قصيدته الدالية في مدح الشيخ محمد بن ناصر ، وشرحه هو نفسه عليها ، وقد سماه : « نيل الاماني في شرح التهاني » .

وقد أحصى الاستاذ محمد حجي في كتابه عن « الزاوية الدلائية » مؤلفات اليوسي ، فبلغت في هذا الاحصاء سبعة وأربعين مؤلفا ، دل عليها كلها ، فذكر أرقام المخطوطات منها في الخزانة الملكية او الخزانة العامة ، وذكر تواريخ وأمكنة طبع ما طبع منها حتى الآن ، ووضع علامات استفهام أمام ما لا يزال منها مجهولا ، يعرف بالاسم فقط ، ولا يعرف بالعين .

❋

وقد اطنب العلماء والمؤرخون في الثناء على الحسن اليوسي ، والتنويه بعلمه وفضله ، حتى قال فيه معاصره العلامة ابو سالم العياشي :

من فاته الحسن البصري يصحبه
فليصحب الحسن اليوسي يكفيه

وقال فيه الناصري : « كان رضي الله عنه غزالي وقته علما وتحقيقا وزهدا وورعا » .

ثم قال فيه بعد ذلك : « وبالجملة ، فهو آخر العلماء الراسخين ، بل خاتمة الفحول من الرجال المحققين ، حتى كان بعض الشيوخ يقول : « هو المجدد على راس هذه المائة » لما اجتمع فيه من العلم والعمل ، بحيث صار امام وقته وعالم زمانه ، رحمه الله ورضي عنه » .

وقال عنه الاستاذ عبد الله كنون في الترجمة التي عقدها له في كتاب « النبوغ » اثناء الحديث عن الحركة العلمية في عهد الدولة العلوية : « نابغة علماء هذا العصر ، ومن افضل المحققين بالعلوم العقلية والنقلية على سبيل العموم » .

ثم قال عنه بعد ذلك : « وكان ابو علي — الحسن اليوسي — اديبا عبقريا ، راوية للشعر ، يستحضر ديوان المتنبي وأبي تمام والمعري ، وقصائد كثيرة لغيرهم ، كل ذلك على طرف لسانه ، وهو نفسه شاعر مجيد مكثر ... »

ولعله لا موجب للاسترسال أكثر من ذلك ، في الاستدلال على فضل اليوسي من كلام العلماء والمؤرخين ، ففيما اوردناه من ذلك كفاية ، وفي كتبه التي خلفها لنا خير ثناء عليه .



ولكنا نريد أن ننوه هنا ، بصورة خاصة ، بخصلة من خصال الحسن اليوسي ، لم يتحدث عنها كثيرا مؤرخوه والمترجمون له ، تلك هي خصلة « الشجاعة الادبية » التي كان اليوسي يتمتع بنصيب وافر منها ، كما تدل على ذلك رسائله الى المولى اسماعيل .

ونبادر فنقول : ان هذه الرسائل ان كانت تدل من جهة على مدى ما كان يتمتع به الحسن اليوسي من شجاعة ادبية ، ومن مقدرة على الجهر بالحق ، وعلى اداء النصيحة ولو كانت مرة ، فانها تدل من جهة اخرى على مدى ما كان يتمتع به المولى اسماعيل من استعداد لسماع صوت الحق ، وقبول النصيحة ولو كانت مرة ، ما دامت مجردة من شوائب الهوى والغرض ، وما دام من تصدر عنه لا يقصد بها الا وجه الله .

وقد راينا أن الحسن اليوسي نفسه وصف المولى اسماعيل بذلك ، فقال عنه : « انه يستمع الحق ، ويطلبه ، ولا يأنف منه ، ولا يستفزه كبرياء ، ولا اشر ، ولا بطر » .



تاتي في مقدمة هذه الرسائل ، الرسالة التي نقلها بنصها الكامل ، الناصري في الاستقصا وذلك في الجزء السابع منه ، من صفحة 82 الى صفحة 86 .

وقد قمنا بمقابلة نص هذه الرسالة الوارد عند الناصري ، مع نصها الوارد مخطوطا مستقلا على حدة ، بقسم الوثائق بالخزانة العامة بالرباط ، تحت رقم « 1611 د » فتبين لنا ان الخلاف بين النصين يسير جدا ، لا يعدو ما يكون عادة من الاختلاف بين المخطوطات في بعض الكلمات او التعابير او ما الى ذلك ، بل تبين لنا ان النص الوارد عند الناصري اكثر صحة ، واقرب الى الصواب في مواطن الخلاف ، لذلك آثرنا ان نعتمده ، وأن ندل عليه من تهمه قراءة هذه الرسالة في نصها الكامل ، اذ أن المقام هنا لا يتسع بطبيعة الحال لايراده بكامله .

شريك له ، والناس عبيد الله سبحانه وإماء له ، وسيدنا واحد من عبيد الله ، وقد ملكه الله تعالى عبيده ابتلاء وامتحانا ، فان قام عليهم بالعدل والرحمة والانصاف والاخلاص ، فهو خليفة الله في ارضه ، وظل الله على عبيده ، وله الدرجة العالية عند الله تعالى ، وان قام بالجور والعنف والكبرياء والطغيان والافساد ، فهو متجاسر على مولاه في مملكته ، ومتسلط ومتكبر في الارض بغير الحق ، ومتعرض لعقوبة مولاه الشديدة وسخطه » .

وبعد ذلك يدخل اليوسي في التفاصيل ، متحدثا اولا باول ، عن نقط الرسالة الثلاثة التي سبقت الاشارة اليها ، ثم يختم رسالته بعد ان يذكر الخلفاء الراشدين بقوله : « فعلى سيدنا ان يقتدي بهؤلاء الفضلاء ، ولا يقتدي بأهل الاهواء ، وليسال من معه من الفقهاء الثقات .. الذين يتقون الله ، ولا يخافون في الله لومة لائم ، فما امروه به مما ذكرناه ومما لم نذكره فعله ، وما نهوه عنه انتهى ، هذه طريقة النجاة ان شاء الله تعالى » .

تلك نماذج من هذه الرسالة ، وهي لا تغني في الواقع عن قراءتها كاملة .

واذا كنا لا نملك الا ان نعجب بشجاعة اليوسي ونحن نقرا هذه الرسالة ، فان اعجابنا لا يقل عن ذلك ، بسماحة المولى اسماعيل المتوجه اليه بها ، ورحابة صدره ، واستعداده الكبير لقبول النصح ممن هو اهل لاسدائه ، من العلماء العاملين بعلمهم ، ورجال الدين المخلصين الذين لا يبتغون الا وجه الله .

❋

وننتقل الآن الى الحديث عن رسالة اخرى كان قد وجهها اليوسي الى المولى اسماعيل .

ذلك ان اليوسي آثر في اواخر حياته ، ان يترك المدينة الى البادية ، وان يعود الى مسقط راسه بالاطلس المتوسط ، حيث يقضي بقية عمره ، متفرغا للعبادة والتدريس .

وقد أقدم على تنفيذ ذلك بالفعل ، ولكن المولى اسماعيل كلف كتابه ان يكتبوا اليه باسمه ، يدعونه الى العودة الى فاس .

وقد كتب الكتاب بذلك تنفيذا لامر السلطان ، فكتب اليوسي جوابا مطولا الى المولى اسماعيل ، يعتذر فيه عن ذلك ، ويناقش كتابه فيما ورد في رسائلهم اليه ، ولعله تعمد هذا الاسلوب تأدبا ، حتى لا يدخل في مناقشة مع الملك نفسه .

يوجد نص هذه الرسالة مخطوطا بقسم الوثائق بالخزانة العامة ، في مجموعين ، الاول تحت رقم « 1348 » ابتداء من صفحة 13 والثاني تحت رقم « 849 ج » من صفحة 1 الى صفحة 146 .

ونسوق فيما يلي فقرات متفرقة من هذه الرسالة ، معتمدين النص الوارد في مخطوط الخزانة العامة تحت رقم 849 ج .

يقول اليوسي :

« واما قول الكتاب : « ومن قديم الزمان لا تعرف العلماء الا مع الملوك .. الخ » فاقول : لاشك انه لم تخل مملكة بحمد الله تعالى من علماء ، ينفع الله بهم من هداه لطاعته ، كما اخبر بذلك الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم ، حيث قال : لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خالفهم » .

« قال الائمة : وهم اهل العلم ، لان اول الحديث وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « من يرد به الله خيرا يفقهه في الدين » دال على ذلك » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين » .

« اما صحبة الملوك ، وملازمة ابوابهم .. فليس في العلماء على العموم ولا اللزوم ، بل لم يزالوا تختلف احوالهم في ذلك ، فمنهم من يسارع الى ابواب الملوك وهم الاقل ، ومنهم من يتجافى عن ذلك وهو الاكثر ».

« فاما المنقبض ، فقد يكون انقباضه لشغل له في حال بينه وبين الله تعالى ، أو شغل آخر في معاش أو علم ، او لكونه تفور الطبع عن تلك الابواب ، او لكونه لا يصلح لها ، او لكونه لم يجد اليها سبيلا ، او نحو ذلك » .

« والذي يجب اعلام السلطان به ، نصحا ينصح به نفسه وغيره من المؤمنين ان اكثر انتفاع الطلبة ، واهل المسائل من العامة والخاصة ، انما هو من « العالم » المنقبض ، الجالس في داره ، او في بيت من بيوت الله ، بحيث اذا جاء متعلم أو سائل وجده ، ويصل اليه المسكين والعجوز ، ويباحثه الطلبة ، حتى يقفوا على التحقيق ، ولا يرهبونه ولا يستنكرونه ولا يتهيبونه » .

« ولاشك انه يجوز أن يكون في صحبة الملوك من هو صحيح الدين ، واقف عنده ، ينفع الله به ، ولكن ذلك أعز من الكبريت الاحمر » .

« فاذا علم السلطان هذا كله ، فلا ينبغي له أن يلزم العلماء كلهم بملازمة مجلسه دائما ، فانه يتعطل بذلك غالب النفع العام على المسلمين » .

هذه فقرات متفرقة من هذه الرسالة التي يعتذر فيها الحسن اليوسي للمولى اسماعيل عن الرجوع الى فاس كما طلب منه ، وهي طويلة جدا كما رأينا من قبل ، شحنها اليوسي – على عادته – بالاستشهاد بكثير من الوقائع التاريخية ، وتحدث فيها عن أصناف من العلماء المخادعين حديثا صريحا واضحا ، يكشف عن حقائقهم ، ويفضح زيفهم ، ويظهرهم للعيان على حقيقتهم .

❊

ونشير في الاخير الى رسالة اخرى للحسن اليوسي سبقت الاشارة اليها من قبل ، وهي الرسالة المعروفة بعنوان « ندب الملوك الى العدل » او « في آداب الملوك » ويوجد نصها مخطوطا في مجموع بقسم الوثائق بالخزانة العامة ، تحت رقم « 364 د » وذلك ابتداء من صفحة 221 من هذا المجموع الى صفحة 228 منه .

وقد رجعنا الى نص هذه الرسالة ، فتبين لنا انها ليست موجهة للمولى اسماعيل ، وانما هي رسالة عامة ، يشرح فيها اليوسي واجب الملوك بصفة عامة في تحري العدل ، وواجب العلماء في النصيحة اليهم بذلك ، ويضرب امثلة متعددة من التاريخ على ذلك .

وقد رأينا من قبل ، أن اليوسي ختم هذه الرسالة بذكر المولى اسماعيل ، والثناء عليه بكونه « يستمع الحق ويطلبه ، ولا يأنف منه ولا يستفزه كبرياء ولا اشر ولا لابطر » .

ونؤكد هنا ما سبق ان ذكرناه ، من اننا نعتبر ذلك شهادة ذات اهمية خاصة في حق المولى اسماعيل لصدورها عن عالم معروف بالصدق والاخلاص ، وبالشجاعة الادبية ، وبالصراحة في الحق الى ابعد حدود الصراحة .

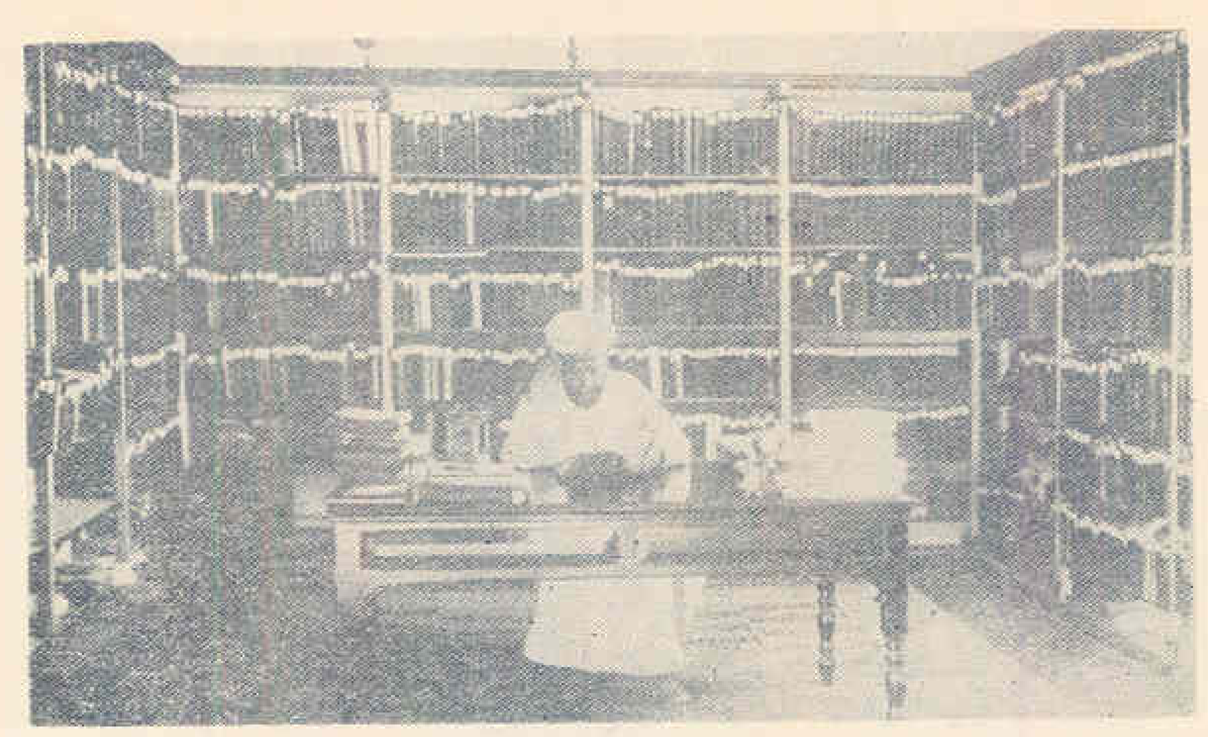
الرباط : عبد القادر الصحراوي



انني لا اعني بهذه المفخرة لا انشاء ولا ابداعا يتصلان بشؤون الفن المعماري في المساجد والمدارس وفي المتاحف ، واني لا اعني كذلك مفخرة تنتسب الى شؤون العلم والثقافة ؛ ولا اعني ايضا ومرة اخرى مفخرة من مفاخر السياسة وشؤون الحرب ومكاسب التحرير التي سجلها التاريخ للعهد العلوي ، وهي مكاسب استرجاع الاراضي التي كانت عمليات الغصب والاختلاس تتوالى عليها باستمرار ؛ وانتزاع الشواطيء التي كانت تتابع فيها مشاهد من فنون القرصنة الاوربية يومذاك .

انني لا اعني شيئا من هذه المفاخر ، وانما الذي اعنيه هي الشخصية التي تمكنت من تسجيل تلك المفاخر والمحافظة عليها والتنقيب على كلياتها وجزئياتها ؛ انني اعني مؤرخ عصره واعجوبة وقته المرحوم السيد عبد الرحمان بن زيدان ، الذي قام في المغرب بدور الجبرتي في المشرق ؛ وتتجلى عصامية الرجل في انه استطاع ان يكتب تاريخ الدولة في ظروف كانت فيها الطباعة العربية في اول عهدها ، وكانت وسائل البحث والتنقيب تحتاج الى صبر ايوب ، ونفس رواد الفضاء في عصرنا الحالي ، ومع ذلك فان المرحوم عبد الرحمن بن زيدان قد توفرت له هاتان الخصلتان، وما يزال الى الآن وحتى الآن كتاب «اتحاف اعلام الناس يعجز هذا الجيل» وربما يعجز الجيل الذي بعده لا من حيث طريقته العلمية في العرض واستقراء الحوادث ، لان امر هذه الطريقة غير ذي موضوع بالنسبة لتلك الفترة ويكون من الظلم والاجحاف ان نجعل منه عنصرا لدى تقييمنا لكتابات المرحوم السيد عبد الرحمان بن زيدان ؛ وانما ترتكز صفة الاعجاز في قيمة ذلك العمل الفردي ومميزاته ، قيمته التاريخية التي لا يمكن تقديرها بثمن في عهدنا هذا ، حيث لا يوجد مصدر غير الاتحاف ، يعرف بتاريخ الدولة العلوية سياسيا وثقافيا ، وتلك مهمة ليست بالسهلة ، ولم تكن بالسهلة اكثر من ذلك في عهد المرحوم، حيث كان النسخ يقع بالايدي، وتصفيف الحروف يجري بالايدي ؛ واعداد الكراسة الواحدة يتطلب اسابيع واحيانا شهورا ؛ هذا من حيث الشكل ، اما من حيث الجوهر فان استخراج الوثائق والمستندات التي تتصل بالعصر العلوي كلا او جزءا لم تكن الطريقة الموصلة اليه معبدة ، ولا ممهدة ، ومع ذلك فان عصامية الرجل استطاعت ان تقتحم الطريق، وان تتذرع بالصبر على ما كان يغمر هذا الطريق من عوائق وعقبات .

وان « اتحاف اعلام الناس » لم يتقيد بالطريقة العلمية الحديثة لسبب اشرنا اليه فيما قبل ولكنه سجل تاريخ دولة ، سجل فترة من فترات تاريخ المغرب وهو ما يزال الى الآن مصدرها الوحيد ، ومصدرها الواثق والموثوق ، ومن هنا يظهر فضل الرجل وعظمته كذلك ، ولقد آن الاوان ودعت الضرورة ولو انها كانت تدعو منذ زمان الى مراجعة



المرحوم مولاي عبد الرحمن بن زيدان وهو يظهر في الصورة معتكفا ـ كدابه ـ على قراءة الكتب والتاليف

تاريخ اتحاف اعلام الناس من طرف لجنة مختصة لتنظيمه وتبويبه واخراجه في حلة اخرى لكي تسهل طريقة الرجوع اليه ، خصوصا وانه المصدر الوحيد الذي لا غنى عنه لكل من يريد الحديث عن تاريخ الدولة العلوية وفي اي جانب من جوانبها ، وتلك امنية اريد ـ وفي غير ما حرج ولا احراج ـ ان اتمناها على وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية التي عودتنا الذاب والنشاط والسبق الى مثل **هذه المكرمة** .

وشيء آخر لابد ان اشير اليه ، الا وهو اقتباس هذا الجيل من نفس البحث والاستقصاء الذي تميز به المتقدمون ، وهو خصلة شخصها وجسمها ائمة سابقون كانت المكاتب في عهدهم وراقة ، والطباعة في عصرهم تخطيط باليد مع الاناقة فيه فتركوا المجلدات الضخام ذات العدد في اجزائها .

واذا كان عهد هذا الجيل عهد التكنولوجية والسرعة ، فانه يكون من اغرب الغرابة ان يبقى عهد ابن عطية صاحب التفسير وعهد عبد الرحمن بن زيدان بدليان بحجة اعجازهما لهذا العصر ، وذلك فيما يخص خصلة النفس الطويل في البحث والاستقصاء وهي الخصلة التي جعلت من المرحوم السيد عبد الرحمان ابن زيدان مفخرة اخرى من مفاخر العلويين .

ان مفاخر الدولة العلوية تتجلى في المعالم الحضارية على اختلاف اشكالها ، وتتجلى ايضا فيما سجله ملوكها العظام من مآثر ومكرمات ، كما انها تتجلى اصلا واصالة في صفة العصامية التي كان يتصف بها اولئك الملوك ، وهي عصامية تمتد عبر القرون والاجيال ومنذ عهد المولى علي الشريف الى عهد محمد الخامس وعهد جلالة الملك الحسن الثاني، انها عصامية الخلق والابداع ، والتشبث بمبادىء الحرية والكرامة والاستقلال .

وجميع هذه الخصال النبيلة واكثر منها وما واكبها من حوادث واحداث هي التي اضطلعت شخصية المرحوم السيد عبد الرحمان بن زيدان بتسجيل وقائعها واحداثها التي تكون جزءا هاما من تاريخنا القومي .

ولذلك فاذا كانت مفاخر الدولة العلوية كثيرة وعديدة ومتنوعة فان شخصية المرحوم بن زيدان واحدة منها .

وانه لمن مظاهر الروعة ان تكون مفاخر الحضارة والثقافة والعمران ، والذب عن حوزة الوطن في العصر العلوي قد تولى تسجيلها والمحافظة عليها مفخرة شخصية هي شخصية المرحوم عبد الرحمان بن زيدان رحمة الله عليه وجزاه عنا خيرا .

الرباط ـ احمد زياد



لعل من الانسب ونحـن نحتفل بذكرى عيد عرشنا السعيد ان نمجد معه ذكـرى الفتـح والفاتحين لهذه الارض المغربية التى نقيم عليها امجادنا واعيادنا

مفاهيـــم اسلاميـــة

لله در الاسـلام .. انه ما ترك امرا الا واحدث فيه نظاما يغير من جوانبه ويوجه الى غاياته المثلى .

لقد غير الاسـلام كثيرا من المفاهيـم السـائدة ، وبدل كثيرا من المضامين الرائجة والبس اسماءهـــا واشكالها حللا قشيبة ، وكساها الوانا لائقة زاهية

انظر الى اولئك الذيـن تضطرهـم الظـروف القاهرة الى مغادرة ديارهم والتخلي عن ممتلكاتهـم واموالهم ، التماسا للنجاة بمعتقداتهم ومقدساتهم ، وطلبا للنجدة والنصرة من اخوانهم الآخرين .. فان هؤلاء ليسـوا فى نظر الاسـلام « فارين » ولا « لاجئين » وانما هم عـنده « مهاجـرون » الى الله ورسـولـه . وكذلك الذين آووهم واسكنوهـم ليـسـوا فى نظـر الاسـلام « وكالة غوث اللاجئين » بل هم « اخوان » لهم و « انصار » « يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما اوتوا ويوثـرون على انفسهـم ولو كان بهم خصاصة » ، « والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا اولئك هم المومنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم » . فالاسـلام سوى بين المهاجرين والانصـار فى ديـار الاسـلام :

« والسـابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذيـن اتبعوهم باحسان رضي الله عنهم ورضـوا عنـه » . فكلمة اللاجىء بين المسلمين ليست كلمة اسلاميـــة، فهي دخيلة ذميمة تشعر بالذلة والهـوان ، وبالضعـة والحاجة .. فى حين ان كلمة الهجـرة تـؤذن بـان صاحبها فى المعركة ، فى كر وفر ، واقبـال وادبـار .. يلتمس اسـباب الغلبة ويجاهد بكل وسيلة ممكنة : « فالذين هاجروا من ديارهم واوذوا فى سـبيـلي وقاتلوا وقتلوا لاكفرن عنهم سيئاتهم ولادخلنهم جنات تجري من تحتها الانهار » ، « والذيـن هاجـروا فى سـبيل الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيـــا حسـنة ولاجر الآخرة اكبر لو كانوا يعلمون . »

واولئك المذبذبون الذين لم تتمكن فيهم تعاليـم الاسـلام ولا استطاعوا ان ينصـاعوا جمـلة وتفصيـلا لاوامر الله ونواهيه .. فهـؤلاء لا يسميـهم الاسـلام « متفتحيـن او متقدميـن » بـل سماهـم باسمهـم الحقيقي « منافقين » ووصفهم بانهم يبتغون العزة من غير الاسلام ويتولون غير المومنين : « الذين يتخذون الكافرين اولياء من دون المومنين ، ايبتغـون عندهـم العزة فان العزة لله جميعا » ، « الذين يتربصون بكم

فان كان لكم فتح من الله قالوا الم نكن معكم ، وان كان للكافرين نصيب قالوا الم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المومنين » ، « مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا » . وقد جعل الاسلام لهؤلاء المنافقين الذين لا يخلو منهم مكان وزمان علامات بادية ودل عليهم بافعال ظاهرة : « المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض، يامرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون ايديهم، نسوا الله فنسيهم ، ان المنافقين هم الفاسقون » ، « واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون ، وان يكن لهم الحق ياتوا اليه مذعنين»، « واذا رايتهم تعجبك اجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم كانهم خشب مسندة ، يحسبون كل صيحة عليهم ،هم العدو، فاحذرهم، قاتلهم الله، انى يوفكون». وغني عن البيان ان هذا النوع البشري المندس في صفوف المسلمين بالامس واليوم والغد قلما يعرفون في الاوساط الاسلامية باسم المنافقين .. اذ استطاعوا ان يتلبسوا تحت شعارات واسماء مزيفة : خوارج، ماسونيون ، شيوعيون ــ وجوديون .. الى اسماء اخرى .. فلو اهتدى المسلمون الى الكشف عن هؤلاء كما كشف عنهم وفضحهم باسم المنافقين لتخلصوا من ويلاتهم ولاعيبهم ولفظهم المجتمع الاسلامي كما تلفظ الحثالات والنفايات ..

وكان من المفاهيم التي صححها الاسلام في تعاليمه اطلاقه كلمة « الجهاد » على مدلول الغزو والحرب : « يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون » . اذ ان القتال المأذون فيه شرعا مقرون على الدوام بالجهاد في سبيل الله ، اي بغاية شريفة وهي رفع كلمة الله في الارض ونشرها بين الناس اجمعين ، لا بغاية خسيسة كحب التسلط والتغلب على القبائل والشعوب لاغراض مادية دنيئة ، او لمجرد التشفي والفتك او التوسع والكسب : « الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت » . مثل ما حدثوا عن الاسكندر الطاغية الذي ضربت به الامثال في اكتساح الممالك والاقطار بغير هدف نبيل يرمي اليه ، اذ كان كلما فرغ من مملكة انتقل الى غيرها تاركا التي خلفه .. فكانه لا غرض له الا في البطش واظهار الغلبة على الامم . لذلك وصفه المؤرخون بكونه مخربا لا معمرا .. بخلاف جهاد المسلمين شرقا وغربا فانه كان يرمي الى تامين الممالك وتعميرها والى هدايتها وتهذيبها : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » ، وفي آية اخرى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير » . ومعلوم ان المسلمين ظلوا بالمدينة المنورة بعد الهجرة زمنا طويلا وهم ذوو كثرة وشوكة ومع ذلك لم يؤذن لهم في القتال ، ولم يكن جهادهم في اول الامر الا بالمصابرة والاحتمال وبذل المال ونشر الدعوة .. الى ان نزلت الآية : « اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير » ، « واقتلوهم حيث ثقفتموهم واخرجوهم من حيث اخرجوكم ، والفتنة اشد من القتل » ، « يا ايها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا ان الله مع المتقين » .. الى آيات اخرى تمجد الجهاد في سبيل الله بالنفس والنفيس وبالسيف وانواع السلاح درءا للفتنة واعلاء لكلمة الله ، وكان نعت المجاهد هو صدق وصف يخلع على المؤمن الباذل نفسه وماله دون حرمات الاسلام ــ نعم ان كلمة « الحرب » وردت في القرآن : « حتى تضع الحرب اوزارها » ، « فاما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون » . لكنها وردت فقط ــ والله اعلم ــ لمقتضى الحال لا للتقرير والتثبيت .. فالاسلام يدعو اتباعه الى الجهاد المقدس لا الى الحرب المدمرة والقتال المدنس ، كما هو شان المرتزقة والماجورين ، او كما هو شان اهل الحمية والعصبية الذين يشنون الحروب العدوانية لاغراض سافلة وضيعة : « اذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ، فانزل الله سكينته على رسوله وعلى المومنين والزمهم كلمة التقوى وكانوا احق بها واهلها وكان الله بكل شيء عليما ». والسلام دائما احب الى الله ورسوله والى المؤمنين مهما وجدوا اليه سبيلا : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، انه هو السميع العليم ، وان يريدوا ان يخدعوك فان حسبك الله » ــ « يا ايها الذين آمنوا اذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ، ولا تقولوا لمن القى اليكم السلم لست مومنا تبتغون عرض الحياة الدنيا ، فعند الله مغانم كثيرة ، كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم ، فتبينوا ان الله كان بما تعملون بصيرا » . الا عند توفر اسباب النصر ، او في حالة تنذر باسباب الهزيمة ، فانه حينئذ لا يحق للمسلمين التذرع بالسلم والتعلق به اذ في ذلك خذلانهم واستسلامهم ، فيتعين على المسلمين في مثل هذه الاحوال الصمود امام العدو والا كانت الدائرة عليهم : ــ « وان تتولوا

يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا امثالكم » — « فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وانتم الاعلون والله معكم ولن يتركم اعمالكم » .. فياليت شعري ، وياليت رؤساء المسلمين يفقهون هذه الآيات الكريمة ولا يدعون الى السلم فى قضية فلسطين المقدسة والله معهم وهو ناصرهم لو ثبتوا وصمدوا .

وهذه كلمة « **الفتح** » واليها يساق الحديث ، فان الاسلام ارتضاها واستعملها للتعبير عن تمكن قوات المسلمين من السيطرة على بلد العدو المنيع الحصين . عدل بها الاسلام عن كلمات : سقوط ، احتلال ، وقوع ، واشباهها .. لما فى هذه من معاني الجبروت والطغيان .. ولما فى لفظة **الفتح** من معاني الطواعية والاذعان ، والمسالمة والاطمئنان (الا اذا قلبت وقرنت من آخرها فتصير حتفا على المارقين) **فهي** لفظة سلمية مدنية لا تمت الى الالفاظ العسكرية بصلة ، تقول فتحت المدينة كما تقول فتحت الباب او المنزل او الصندوق .. يبقى الباب سليما **وكذلك** القفل والمفتاح .. فلا خراب ولا دمار ، بل طاعة وسلام . وتلك هي قمة النصر والغاية المثلى التى يطمع فيها القائلون ، والنصر المبين الذى يطمح اليه القادة الفاتحون . والآيات القرآنية تشير الى ان **الفتح** بهذا المعنى ليس من فعل البشر ولا من صنع الجيوش ، وانما هو امر سماوي ونصر الهي ينزله الله لمن يشاء من عباده المجاهدين المومنين : « وما النصر الا من عند الله ان الله عزيز حكيم » . ولقد انزله الله فى مواطن كثيرة للمسلمين الصابرين ، ووعدهم به ابد الدهر ما استقاموا واستماتوا .. ولا ريب ان **فتح** مكة المكرمة هو **فتح الفتوح** واجل الفتوحات على الاطلاق ، لذلك نزلت به سورة **الفتح** باكملها وتغنت به قبل وقوعه ، لتحقق وقوعه : — « **انا فتحنا لك فتحا مبينا** ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما وينصرك الله نصرا عزيزا .. الى آخرها .. نزلت عقب صلح الحديبية ، قبل غزو **الفتح** ، تبشيرا وتطمينا للمسلمين الذين كان بعضهم يتساءل عن الصلح فى استغراب : افتح هو ..؟ ولقد صدق الله وعده ونصر جنده ، وتحقق **الفتح الاكبر** ، وعمت البشرى ، وانتشرت الدعوة الاسلامية ، وتكست الاصنام ، ودخل الناس فى دين الله افواجا .. وقد روى ان احياء العرب كانت تنتظر باسلامها فتح مكة ، فلما فتحت دخلوا فى دين الله افواجا . ولم تمض سنتان حتى انتظم الاسلام ارجاء الجزيرة العربية كلها .. كما روى ان رؤساء المشركين كانوا يستعجلون الفتح ويتحدون المسلمين به ويتمنون ان ينزل ، فخاطبتهم الآية : « ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ، وان تنتهوا فهو خير لكم ، وان تعودوا نعد ، ولن تغني عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت وان الله مع المومنين » . فمن ثم كان « الفتح » شعار المجاهدين فى كل مكان وهدفهم الاسمى فى كل زمان متيمنين به ، وواثقين بفتح الله وهو خير الفاتحين : « هو الذى انزل السكينة فى قلوب المومنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ، ولله جنود السماوت والارض وكان الله عليما حكيما » — « هو الذى ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا .. ولقد تمكن صلى الله عليه وسلم من فتح مكة وهي مثابة العرب وقرارة الجزيرة وما حولها وقطب الدائرة فى الشرق العربي .. ولا شك ان تمكنه منها هو تمكنه فيما سواها .. لذلك سطع نور الله وظهر دينه على سائر الاديان لا فى الجزيرة وحدها بل فى المعمور كله .. فيما دون نصف قرن من الزمان — حيث اكتسح امبراطوريات قيصر وكسرى والحبش والهند والسند والصين وجنوب آسيا وجنوب اوربا واقطار افريقيا وما وراءها .. وهو يزداد كل يوم قوة وانتشارا .. وما سواه من الاديان يتقلص قلة وانكسارا .. والله غالب على امره ، وصدق الله العظيم : « ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا » ..

المغرب قبل الفتح

اعتقد انه من المفيد ان نرجع قليلا بالقهقري الى ما وراء الفتح الاسلامي لبلاد المغرب لنتبين اولا ذلك الليل المظلم الذى كان يسود الشمال الافريقي ولنتعرف شيئا ما على احواله الاجتماعية وشؤونه الخاصة ، ولاسيما ان الفاتحين الاولين اصطدموا فيه بظاهرة غريبة لم يلقوا مثلها فى اكثر الاقطار الاخرى ، ظاهرة صمود سكانه وعنادهم الطويل الامد — قرابة مائة سنة — امام الفتوحات الاسلامية المتوالية ، فى حين ان غيرهم من الامم اذعنت واستسلمت للحكم الاسلامي فى بضع سنين .

قبل كل شيء نعرف ان « المغرب » لم يكن فى تلك العهود قطرا متميزا له حدود معلومة ، وانما كان جزءا من مجموع المغرب الكبير الذى يبتديء حيث تنتهي ارض مصر وينتهي عند بحر الظلمات ، وكانت

خريطته تلك تابى – ولا تزال – ان توضع لها حدود طبيعية او ادارية ، واخرى سياسية ؛ لان عوامل الوحدة بين اقطار الشمال الافريقي من اقدم العهود اقوى وابرز من اسباب التفرقة والتجزئة .. فهذا – مثلا – العامل الجغرافي الذى يتجلى فى هذه الصحراء الجبارة الممتدة من رمال مصر الى رمال المحيط ، لقد اعيا اقتسامها المستعمرين واستعصى عليهم تحديدها ووضع معالم قارة خلال مهامهها وسباسبها ، فاقروا انها فى حكم ما لا ينقسم .. وهذا الاطلس الشامخ المشمخر المستلقى على قفاه والممتد من تخوم السوس الاقصى غربا الى ما وراء سوسة شرقا ، لم يؤثر هيكله الضخم اختلاف الاسماء التى تخلع عليه هنا وهناك ولا اختلاف الانواء والاهواء الطبيعية والسياسية ، فهو عامل واصل لا سبب فاصل .. وايضا هؤلاء السكان القدماء المتحدرون من العنصر الاصلي المستوطن هذه الاقطار من اقدم العصور المتألف من قبائل البربر (بكسر الباءين من فضلك على ما حققه غير واحد) البتر والبرانس : صنهاجة ومصمودة وزناتة التى تنتسب اليها جل قبائل المغرب الكبير قديما وحديثا : مكناسة ، كتامة، هوارة، غمارة ، جزولة ، اوربة .. الخ .. والجميع من ولد مازيغ .. ولا ندخل فى التفاصيل التى قررها فى شأنهم علماء السلالات من كونهم من اولاد كنعان سكان اقاليم فلسطين والشام (وقد سمعت هذه الايام بمجاهد فلسطيني يسمى مازيغ استشهد فى معركة ضد القراة الصهيونيين) وبقية من الفينيقيين والمصريين ، فهذا معروف وثابت ، ولكن الذى يعنينا انهم يكونون عاملا آخر قويا حيا من عوامل وحدة الشمال الافريقي ، حيث استوطنوا تلك الاقاليم من برقة الى شنجيط منذ بدا التاريخ وكونوا وحدة سكنية متماسكة لا تقبل الانفصال ولا التمييز ، فابناء هوارة تجدهم فى كل مكان وكذلك ابناء كتامة ومكناسة وغمارة وجراوة .. حتى ليصعب التمييز فى الجنسية بين من يحمل اسم الهواري او الصنهاجي او المصمودي هل هو من الجزائر او من ليبيا او من المغرب الاقصى .. وكذلك العادات والتقاليد والاعراف فانها واحدة او متشابهة .. لذلك كانت روح القبلية والعصبية لا تقف عند حدود القبيلة الواحدة ، بل هم يد واحدة على من سواهم اذا حزب امر خطير او دهمت غارة ملحاحة ، وان كانت لا تهدد الا جهة معينة ولا تقصد بصفة مباشرة سائر الاقاليم .. والغريب ان يكون القوم شعروا بضرورة الاتحاد اكثر من ابناء اليوم ، ولكن لا غرابة اذا علمنا ان الامم فى مهدها ادعى الى طبيعة الاستقرار والاستنصار منها اذا دخلها الترف وتوزعتها الاهواء الفردية واطماع الانانية .. وعامل آخر ربما يكون له بعض الوزن فى هذا الصدد ، هو هذا المد الاستعماري الفينيقي والقرطاجي ثم الروماني والبيزنطي .. فهؤلاء حكموا سائر الشمال الافريقي على التعاقب قرونا طويلة ، كل حسب طريقته فى الحكم ، وبصرف النظر عن مقت الحكم الاجنبي واستعماره البغيض ، فان الحكم الطويل المدى كان له نوع من الفعالية فى توحيد الشمال الافريقي ولو على حسابه ومقاومة استمراره وتوغله فى الداخل .. اذ ان كثيرا من القبائل الداخلية المعتصمة بقمم الجبال وكثبان الصحراء التى كانت فى منعة من الغزو الاجنبي كانت دائما متكتلة ضده فى شبه استنفار دائم او فى حالة دفاع مشترك مع سكان السهول والموانىء .. لا شك ان رد الفعل هذا له خطره ووزنه فى تكوين الامة وتوحيدها ..

ثم ان علماء الاجتماع يعدون اللغة والدين من اسباب توحيد الامم ، فهل كانت هناك لغة جامعة ودين شامل نضيفهما الى عوامل الوحدة الآنفة الذكر ؟ فاما اللغة فقد ثبت ان سكان شمال افريقيا القدماء كانت تجمعهم لغتهم البربرية التى كانوا يتكلمون بها – كحالهم اليوم – بلهجات محلية مختلفة ومتباينة احيانا ، مثل ما كان عليه سكان الجزيرة العربية قديما فى تكلمهم جميعا بالعربية غير ان اهل الحجاز الشماليين لا يفهمون اهل الجنوب اليمانيين حسبما اثبته فقهاء اللغة – وكانت هناك اللغة البونية او الليبية ، وهي سامية الاصل ظلت مستعملة الى الفتح الاسلامي ، فقد ذكر غير واحد انها كانت سائدة عند عامة الشعب البربري فى احوال المعاش وشؤون المعاملات ، بدليل خطوط اثرية كتبت على الحجر بهذه اللغة وبالحروف الليبية المشتقة من الفينيقية (وقد ظلت هذه الحروف مستعملة عند قبائل الطوارق حتى القرون الاخيرة) وبجانب ذلك كانت اللغة اللاتينية – لغة المستعمر – سائدة فى المراكز الادارية باعتبارها لغة الادارة والثقافة والتخاطب لطبقة خاصة ، فكانت بذلك عامل تفرقة لا عامل وحدة .. عكس اللغة الشعبية التى يمكن ان تعتبر على فقرها واختلاف لهجاتها من الاواصر التى جمعت بين السكان الاصليين .. واما فيما يرجع للدين فان الامر بخلاف ، حيث ان البربر كانوا على اختلاف سحيق فى معتقداتهم ومعبوداتهم ، فبعضهم كانوا مجوسا يعبدون ظواهر الطبيعة كالشمس والنار وبعض الحيوانات كالكبش

والعجل والسمك والثعبان ، والبعض يعتقدون فى الاصنام كاصنام الامم المجاورة ، امون اله المصريين ، وبعل اله صور الفينيقيين ، وبعض آلهة اليونان ، ملكار ، اشمون ، وكانت لديهم الهة يسمونها ربة افريقيا يلبسونها جلد الفيل ويتوجونها بقرص الشمس تحيط به الثعابين .. الى غير ذلك من الاضاليل والاباطيل من ذلك طريقتهم الغريبة فى دفن الموتى ؛ كانوا يثنون هيكل الميت على هيئته يوم يولد ؛ وينزعون عنه اللحم مخافة ان يعود الى الحياة لانهم كانوا يعتقدون فى البعث ــ والله قادر على ان يحيي العظام وهي رميم ــ ثم يضعونه فى قبر عمودي فى غرفة جانبية وربما وضعوا معه ادوات واواني ، وكان حرق الجثة شائعا ولرجال الدين عندهم نفوذ كبير وفيهم كهان وعرافون وحكام وقضاة فى هيئات وطبقات ، وكان القربان الآدمي معترفا به فى بعض الاوساط ، فكان يذبح فى كل سنة طفلان على الاقل تقربا واسترضاء الآلهة ، ويمكن ان يفدي الطفل بحيوان او بطفل فقير يبتاعه اهله .. الى غير ذلك من المعتقدات الفاسدة .. على ان الديانتين المسيحية واليهودية تسربتا عن طريق المواني‌ء والاحتكاك بالوافدين .. فاعتنق كلا منهما جانب من الناس غير قليل الى ان شاعتا فى بعض القبائل مثل غمارة واوربة المتنصرتين ومثل جراوة المتهودة .. الشيء الذى اتضح به ان جامعة الدين كانت مفقودة قديما عند سكان الشمال الافريقي ولم يبق الا رابطة العنصر واللغة وعامل الوحدة الطبيعية ، بالاضافة الى عادات واعراف عامة تجمعهم وتطبعهم بطابع خاص ..

المغرب حين الفتح

كان المغرب الكبير على ما وصفنا من وحدة متماسكة بين عموم بلدان الشمال الافريقي ، فان كانت هناك تقسيمات فانما هي تقسيمات ادارية او استراتيجية اقتضاها اتساع الاقليم وترامي اطرافه ، وما من حاكم داخلي او خارجي الا وكان سلطانه او تطلعه قلما يقف عند حد معلوم ينتهي اليه من الجبل الاخضر شرقا الى البحر الاخضر غربا (كانوا يطلقون على المحيط الاطلسي البحر الاخضر او بحر الظلمات) سواء فى ذلك الملوك المحليون او الفينيقيون والقرطاجيون والرومان والبيزانطيون وغيرهم ممن حكموا البلاد وتعاقبوا عليها فى ذلك العهد .

ولعل التقسيم الاداري الذى كان على عهد امبراطورية رومة هو الذى اقره من بعدهم من وندال وبيزانطة وطلع عليه الفتح الاسلامي .

فالرومان هم الذين اطلقوا كلمة موريتانيا (بلاد المور) على اقطار الشمال الافريقي باستثناء طرابلس التى كانت تعرف باسم برسيوم ، ثم قسموا موريتانيا الى قسمين : موريطانيا القيصرية ومركزها مدينة قيصرية المعروفة ايضا باسم شرشال فى اقليم الجزائر ، وموريتانيا الطنجية ومركزها طنجة فى اقليم المغرب ، وفى نفس الوقت اطلقوا كلمة افريقيا على ما يشمل تونس وطرابلس . واما الاغريق والفينيقيون فقد كانوا يطلقون موريطانيا على ما يخص المغرب الاقصى ونوميديا على ما يخص الجزائر وزوجيتان على ما يخص تونس وافريقيا على اقاليم طرابلس وتونس وكلمة ليبيا على القارة باسرها . ويرى البعض ان بلاد الشمال الافريقي كانت فى عهد الحكم الروماني تنقسم الى ثلاثة اقسام : افريقيا وهي معظم تونس ، نوميديا وهي معظم التراب الجزائري ، موريطانيا وهي معظم القطر المغربي . على انهم اتفقوا على ان الوضعية الادارية ، وكذلك الخريطة الجغرافية ، لم تتغير كبير التغيير فى عهد الوندال ولا فى عهد البيزانطيين ، مما رجح انها الوضعية التى اشرق عليها الفتح الاسلامي .

ويذكر بهذا الصدد ان الرومان والقرطاجيين قبلهم جهزوا بعض هذه البلاد بالطرقات والقناطر والابراج والقلاع واسسوا المراكز الادارية والعسكرية والمواني‌ء التجارية وكذلك الاسواق والملاعب والحمامات والهياكل العظيمة والمدرجات للمصارعة وافتراس الوحوش الضارية للمغضوب عليهم من بني الانسان ، كما هو مشاهد فى آثارهم الماثلة للعيان الى الآن فى عموم شمال افريقيا كما بوليلي ولكسوس وشالا كولونيا .

وقد كانت هذه الاقطار تحكمها رومة راسا او بواسطة حكام برابرة يعترفون لها بالطاعة والولاء ويرفعون اليها الخراج والجبايات .. على ان بعض هؤلاء كانوا يأنفون من دفع الاتاوات والخضوع للاجنبي، مثل الزعيم البربري ماتو الثائر ضد قرطاجة ، وتاكفراس الذى حارب الرومان نحو سبع سنين ، وحنبعل الشهير عدو رومة ، اذ ان روح القبلية والعصبية المتاصلة لم تهمد قط فى نفوس ابناء مازيغ ، فان استكانوا الى حين فسرعان ما تعود حليمة الى عادتها القديمة ، فخذ مثلا سيرة الملك

البربري ماسينسا ذلك الشاب الطموح الذى اغتصب الملك من عمه سفاقس واستطاع ان يوحد البلاد وان ينهض بها اقتصاديا واجتماعيا وان يفرض نفسه على رومة فى عز سلطانها وقوة بطشها فاعترفت به ملكا مستقلا له اسطوله وجيوشه وله نقوده مضروبة باسمه وله لغته القومية الخاصة وهي اللغة البونية السالفة الذكر بابجديتها وقواعدها النحوية الشبيهة بقواعد العربية .. وخذ كذلك الملك البربري يغورطة الذى تحدى رومة ووقف امام مجلس شيوخها وقفة الرجل الحر على ما هو موصوف فى التاريخ .. ولا اذكر جوبا الاول ملك نوميديا الجزائرية ولا ابنه جوبا الثاني ملك موريتانيا المغربية الذى كان له شبه استقلال عن رومة حيث انه تربى فى رومة وتزوج بنت كيلوباترة الشهيرة .. فالذى تريد ان تصل اليه هو ان رومة كانت تبسط سلطانها على الشمال الافريقي بوسيلة او باخرى ؛ وان الشمال الافريقي رغم ذلك لم يفقد شخصيته ولا ذاب فى امبراطورية روما .. واذا كان هذا حال رومة فكيف بحال الوندال وبيزانطا ؛ اذ ان البلاد فى عهد الوندال كانت فى حالة فوضى وانحدار ، وكذلك فى عهد البيزانطيين الذين كان حكمهم ضعيفا لم يستطيعوا ؛ على بعد الشقة ، السيطرة والهيمنة على مرافق البلاد ، وخاصة فى عهد الامبراطورين الاخيرين جستنيان وهرقل ، فالاول وان كان شخصية مدنية كبيرة وبنى اياصوفيا العظيمة ووحد القوانين ، لم يستطع هو ولا خلفه هرقل المحافظة على بلدان الشمال الافريقي ؛ مما كان معه قادة البربر يتمتعون بنفوذ قبلي واسع وسيطرة على الطرقات والمنافذ ، واستطاع معه القوط (الاسبان) ان يبسطوا نفوذهم الى سواحل البوغاز — سبتة — طنجة — ، فكان حكام هذه السواحل المغربية تابعين فى هذه الفترة لملك القوط الاسباني .

واما الحالة الاجتماعية السائدة عند الفتح الاسلامي فهي ما زالت على ما اسلفنا من عبادة الاوثان وتعدد الآلهة والديانات .. وتمكن روح القبلية وحمية الجاهلية ، وامعانهم فى تعشق الحرية المطلقة ، وتشبثهم بما فطروا عليه وتوارثوه من تعلقهم بالقبيلة والمحافظة على كيانها والاكتفاء بالقليل اكلا وملبسا ومسكنا ؛ يرتدون ملابس الصوف ويسكنون الاخصاص وبيوت الطين والحجر او من الوبر والشعر ، والكسكس غذاؤهم الرئيسي وكذلك لباس البرنس ويمشون حاسري الرؤوس تتدلى اشعارهم الى الاذنين (كما هو حال بعض اهل الصحراء الى اليوم) وبعضهم يقصه تاركا خصلة تتدلى الى الوراء ، وسرت الى بعضهم عادة حلق الراس من الرومان ، وكانوا رجالا ونساء يضعون الاقراط زينة ، وكان تعدد الزوجات منتشرا ، وللاب مطلق التصرف فى اولاده، يبيع بناته فى صفة المهور، ويرثه اكبر الذكور فى العائلة لا الابن الاكبر ولا الاصغر ، تاثروا فى جل ذلك بتشريع الرومان ، ولحم الخنزير محرم عندهم غير ان الخمر مباحة وكذلك السبى والرقيق .. ومبلغهم فى فنون الحضارة ضئيل اذا استثنينا تفننهم فى صنع الاسلحة وادوات القتال واواني المنازل وبناء البيوت وتاثيثها ونسج الثياب والافرشة ونقش الثياب والافرشة ونقش الاحجار والكهوف ونحت التماثيل ، فلهم مهارة فى جل ذلك اضف اليه معرفة بعضهم بقراءة وكتابة بحروفهم الخاصة او باللاتينية، ويذكر لهم كتاب ومترجمون بل ومؤلفون .. كما ان لهم معرفة بفنون الزراعة وحفظ الحبوب وتربية المواشي والخيل والابل وصناعة الزيوت والخمور ، وكانت هنالك بعض السدود والخزانات والقنوات ، كما تدل عليه الحفريات ، وكانت المياه توزع بالثمن على بعض الدور فى المدن الكبرى ، وكان عندهم نظام لتملك الاراضي وخاصة فى اقليم موريطانيا الطنجية حيث عثر على كتابات اثرية بهذا المعنى .. وبالجملة فان الزراعة كانت مورد عيشهم الرئيسي ان لم يكن الوحيد ، بمحصولاتهم يتعيشون وبها يتاجرون وكانت رومة تعتمد عليهم فى تزويدها بالقمح والزيوت والخمور وكذلك القوط وبقية الفرنج — لذلك قال المؤرخون : ان افريقيا كانت اشبه بمزرعة كبرى تستغل استغلالا منظما ، وقال الآخرون : انها كانت ظلا واحدا من طرابلس الى طنجة ، والله اعلم .

فتح المغرب

اذكر قصة فتح المغرب الكبير فى شبه يوميات موقوتة بتواريخها مجتزئا ببعض احداثها الهامة ، ثم نروم استخلاص بعض النتائج منها :

— كانت مصر بعد فتحها هي اول منطلق لافتتاح اقطار المغرب الكبير ، وذلك فى خلافة عمر بن الخطاب سنة 21 هـ حيث سار والي مصر عمرو بن العاص الى برقة واكثر اهلها لواتة والى برقة واكثر اهلها نفوسة وفتحهما وصالحه اهلهما على

جزية قدرها ثلاثة عشر الف دينار ، فانقلب راجعا الى قاعدته بمصر وخلف وراءه ابن خالته عقبة بن نافع . فكان عمرو بن العاص اول امير مسلم وطئت خيله جانبا من ارض المغرب العربي لكنه لم يصل الى قاعدة افريقيا ولا كان من البربر اسلام ، وقيل انه استاذن عمر في التوغل في افريقيا فمنعه قائلا : تلك المفرقة وليست بافريقيا .

— ومن مصر كذلك كان المنطلق الثاني في خلافة عثمان بن عفان اذ امر سنة 25 هـ عامله على مصر اخاه من الرضاع عبد الله بن ابي سرح بغزو افريقيا قائلا له : ان فتح الله عليك فلك خمس الخمس من الغنائم (للامام ان يخص من شاء بشيء من الغنائم تشجيعا له) فوجه جيشين على سبيل الاستطلاع ، ثم وجه في سنة 26 هـ عساكر جرارة بقيادة عبد الله بن نافع فيهم جماعة من كبار الصحابة منهم العبادلة : عبد الله بن عباس وعبد الله ابن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن الزبير والحسن والحسين سيدا شباب اهل الجنة .. وفي الطريق لقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين ببرقة ، فبثوا السرايا وقاتلوا الروم بقيادة قائدهم جرجير الفرنجي الذى كان يحكم ما بين طرابلس وطنجة تحت ولاية هرقل عظيم روم قسطنطينية ، قابلهم بنحو مائة وعشرين الفا من العساكر ، فدعوه الى الاسلام او الجزية ، فاستكبر ، وبعد جولات كانت الدائرة على الروم وصرع جرجير بسيف عبد الله بن الزبير ، فنفله ابن ابي سرح ابنة جرجير جزاء له على حسن بلائه، وفتح الله عليهم سبيطلة قاعدة افريقيا ، ثم صالحهم الاهالي على الفي الف وخمسمائة الف دينار ، وقيل ثلاثمائة قنطار من الذهب ، على ان يرحلوا عنهم ، فانقلب ابن ابي سرح الى قاعدته بمصر ومعه من الغنائم والسبايا والاسرى ما لا يحصى ، وكان من الاسرى زعيم بربري اسمه صولات بن وزمار الزناتي المغراوي فمن عليه عثمان وحرره فاسلم وحسن اسلامه ثم عقد له على قومه فيما بعد ، وهو جد ملوك تلمسان المغراويين المعروفين ببني خزر ، وقيل انما وصله وافدا فاكرم وفادته .. وعلى كل فهو تابعي جليل .. وبذلك كان عبد الله بن ابي سرح الفاتح الاول لاقليم افريقيا — تونس .

— ثم كان منطلق اخر من مصر حين وجه عمرو ابن العاص عقبة بن نافع الى افريقيا، وذلك سنة 42هـ في خلافة معاوية .. فتوغل فيها ، وافتتح غدامس من تخوم السودان وودان وكورا من كور السودان ، واثخن في تلك النواحي وكان له فيها جهاد وفتوح .

— وفي خلافة معاوية ايضا سنة 45 هـ توجهت الجيوش الاسلامية في ولاية معاوية بن حديج وبقيادة عبد الله بن الزبير ووصلت الى سوسة وجلولاء وبنزرت فافتتحوها ، وظهر الاسلام في البربر ، وعاد ابن حديج الى مصر بعد ان خلد هناك آثارا عمرانية منها آبار حفرها بالمكان الذى بنيت فيه القيروان فيما بعد

— وعاد عقبة بن نافع الى افريقيا مرة اخرى حيث ولاه معاوية سنة 50 هـ على افريقيا استقلالا ، لنجدته وكفايته ولما ظهر من غنائه وبعث معه عشرة الاف فارس ، فوضع السيف في اهلها رجاء ان تخضد شوكتهم ويكسر حدهم . ثم بدا له ان يقيم بافريقيا قاعدة عربية ثابتة تكون كرسي الامارة وقصبة الاقليم ، فاختط لذلك مدينة القيروان سنة 50 هـ . وبنى بها دار الامارة والمسجد الجامع وبنى الناس مساكنهم ومرافقهم ، فكملت في نحو خمس سنين ، وكان قطر سورها نحو اثني عشر ميلا ، فكانت مركز المسلمين بافريقيا من يومئذ ثم اصبحت دار فقه وعلم وادب في الشمال الافريقي .

وفي سنة 55 هـ تولى ابو المهاجر دينار امر افريقيا من قبل مسلمة بن مخلد والي مصر ، فكان اول عمله ان اساء عزل عقبة لشيء كان بينهما وكره نزول القيروان فبنى مدينة قريبا واخلى اليها القيروان .. ثم زحف على المغرب الاوسط حتى تلمسان وتمكن من البلاد رغم مقاومة عنيفة لقيها من جموع البربر بقيادة زعيمهم كسيلة بن لمزم البرنسي الاوربي النصراني دينا الذى اظهر الاسلام فاغتر به ابو المهاجر فاستخلصه واستصحبه .. فكان ابو المهاجر هو اول من فتح المغرب الاوسط — الجزائر .

— ثم عاد عقبة كرة اخرى الى ولايته بالقيروان وذلك سنة 62 هـ ايام يزيد بن معاوية فبادر باعتقال خصمه ابي المهاجر وبتخريب مدينته ، ثم توجه في جيش كثيف الى بلاد الجريد جنوبا والى الزاب وتاهرت غربا .. ثم الى المغرب الاقصى فدوخ ارجاءه وهزم رؤساء البربر واذعنوا له وكان منهم يليان الغماري النصراني امير طنجة وما والاها .. ودخل وليلي — وكانت يومئذ آهلة عامرة — واقتحم بلاد المصامدة بالاطلس الكبير وتجاوزهم الى السوس الاقصى وتارودانت وبلاد درعة وصنهاجة الى صحراء

لمتونة ، لا يلقاه احد الا هزمه وحمله على الاســـلام ، وكان اعظم برابرة المغرب اذ ذاك مجوسا لا ذمة لهم ..
وقيل انه عطف في عودته على ساحل البحر المحيـط ـ عند اسفي ـ فادخل قوائم فرسه في لجة الماء وقال قولته المشهورة : اللهم اني لو اعلم وراء هذا البحر بلدا لخضته اليه حتى لا يعبد احد دونك ـ وبذلك صح ان عقبة بن نافع هو اول امير مسلم دخـل المغرب الاقصى وانه الفاتح الاول له واول من دعا فيــه الى كلمة الاسلام وحمل الناس عليه طوعا او كرها ، وذلك سنة 62 اي بعد ما ينيف على اربعين سنة من يـوم وصول الخيل الاسلامية الاولى الى ارض برقة ، ولا شك انها مدة طويلة تاخر فيهـا وصـول الاسلام الى اقصى المغرب اذا نظرنا الى السرعة المذهلة التـي وصل فيها الى اقاصي المعمور ، ولكل اجل كتاب ..
ومع ذلك، فهل استقام البرابرة واذعنوا لدعوة الحق ام استكانوا في الظاهر وهم يضمرون ان ينقلبوا على اعقابهم اذا واتهم الفرصة .. هذه قصة كسيلة مـع عقبة تعطينا حقيقة الموقف .. اظهر كسيلة الاسلام على يد ابي المهاجر وكان من خاصته يقدمه ويستصحبه، وحاول ان يكون كذلك مع عقبة غير ان عقبة لم يكن يركن اليه لطول خبرته بغلول البربر ، قالوا انه كـان يمتهنه ويستهين به ، فأمره ذات يوم بسلخ شـاة ، فغضب كسيلة وصار يتوعد علانية .. ولم يعره عقبة كبير اهتمام ثقة بالمناعة التي كان عليها في طول البلاد وعرضها .. غير ان كسيلة واضرابه الموتورين ظلـوا يتنظرون الفرصة ، فلما واتتهم يوم كان عقبة بالزاب من ارض الجزائر في قلة من اصحابه .. انقضوا عليه في جموع من البربر والفرنج على غرة وغدر ، فلم يسع عقبة وصحبه الا ان استلحموا واستبسلوا الى ان لقوا مصرعهم جميعا ولم يفلت منهم احد وكانوا زهاء ثلاثمائة من كبار الصحابة والتابعين .. واجداثهم ما زالت ماثلة الى اليوم بأرض الزاب وهي في عداد المزارات الكبرى بأرض الاسلام وبني بالمكان مسجـد يعرف باسم عقبة رضوان الله عليه وعلى اصحابـه اجمعين ، وله عقب هناك خلفوه في جلائل اعماله ـ وماذا فعل كسيلة اللعين بعد ذلك ، انه زحـف علـى القيروان واستولى عليها وصار اميرا على البربر من جديد ، وانسحب المسلمون الى مـا وراء ذلـك ..
وكان من قدر الله ان امر الخلافة اضطرب في الشرق العربي بمهلك يزيد بن معاوية وفتنة مروان بن الحكم وحروب آل الزبير ، فكان ذلك سبب انتكاص الاسلام باقطار المغرب وارتداد معظم القبائل ..

ـ ولما انتظمت الخلافة لعبد الملك بن مروان بادر سنة 69 هـ فوجه زهير بن قيس البلوي الى افريقيا وامده بعدد وفير وامره ان يستنقذ القيـروان مـن كسيلة ويأخذ الثار لدم عقبة وصحبه .. فتحقـق ذلك بحمد الله بعد حروب مريرة قتل خلالها كسيلة وخلق كثير من وجوه البربر والفرنج ..

ـ وتلا ذلك حملة اخرى في نفس السنة بقيادة الوالي حسان بن النعمان الذي كان هدفه الايقـاع برؤساء البربر وبالفلول الباقية من قوات الفرنج التي ما زالت متحصنة في بعض القلاع وخاصة قرطاجة ، لذلك هاجمها حسان وخربها وعفى رسومها فذهبت كامس الدابر .. ثم بلغه ان الكاهنة اليهودية داهيـا الزناتية الجراوية صاحبة جبـل اوراس (قيـل انها حكمت قومها 35 سنة) تجمع جموعا هي واولادها الثلاثة تريد ضد المسلمين ، وكان قتل عقبة واصحابه باغرائها وتدبيرها . فسار اليها حسان وزحفت هي واستطاعت ان تهزم المسلمين الى حدود طرابلس ، وقالت لقومها في نشوة النصر : انما يطلب العرب مدنكم وما فيها ، فالراي ان نخرب هذه المدن والحصون وتقطع اطماع العرب عنها . قال ابن خلدون : وكانت المدن والضياع من طرابلس الى طنجة ظلا واحدا في قرى متصلة فخربت الكاهنة ديار المغـرب وعضـدت اشجاره ومحت جماله . فشق ذلك على البـربـر ، فكادوا لها عند حسان الذي ما زال متربصـا بهـا ، فاعاد الكرة عليها فاوقع بها وبجموعها واحتز راسها، واستأمنه قومها واولادها علـى الاسلام والطاعـة ، فاسلموا وحسن اسلامهم .. وعقد لاكبر اولادها على قومها جراوة وعلى جبـل اوراس . وبذلـك اخلـد البربر من جديد الى الهدوء والسكينة . واقبـل حسان على تنظيم الشؤون المدنية والدينية ، فنظـم الدواوين لاول مـرة في هذه الاقـطار وعربهـا عـن اللاتينية ، وسن الخراج على من اقام باقطار المغرب من نصارى الفرنج والبربر ، واتخذ دار الصناعة بتونس لانشاء المراكب الجهادية ، وشرع في عمارة مدينـة تونس وفي بناء مسجدها الجامع الزيتونة .

ـ ثم انه في سنة 77 هـ وقيل فيما بعدها ، تولى امر افريقيا موسى بن نصير التابعي المشهـور المنعوت بالشجاعة والورع والتقوى وبانه لم يهزم له جيش قط ، وبان سبيه اعظم سبي في الاسلام . توغل

في جهات المغرب حتى انتهى الى السوس الاقصى ودرعة وتافيلالت ، فبذل له البربر الطاعة والولاء ، وولى طارق بن زياد على طنجة واقليمها في سبع وعشرين الفا من العرب واثني عشر الفا من البربر ، وامرهم ان يعلموا البربر القرآن والفقه . وفي ايامه انتشر الاسلام في عموم المغرب واسلم بقية البربر ، كما ان في ايامه تم فتح الاندلس بقيادة طارق وجيش تكون معظمه من ابناء البربر ..

– وبعد ذلك صار الولاة يتعاقبون على الشمال الافريقي ويتخذون القيروان – كالعادة – مركز اعمالهم ومنطلق حركاتهم ومعسكرا عاما لتعبئة الجيوش وتوجيه البعوث والسرايا لتنظيم الاقاليم المفتوحة وتهدئتها وتهذيبها ولمقاومة ظهور بدعة الخوارج وفتنة المارقين الذين اخذوا يعملون بشكل واسع منظم في ارجاء الشمال الافريقي .. وتوالت الفتن واستبدال الولاة في فترة تقارب قرنا كاملا وسميت عصر الولاة ، وانتهت فيما يخص المغرب الاقصى وما اليه بورود الامام المولى ادريس بن عبد الله العلوي الذي استطاع في ظروف قاسية وبسالة نادرة تاسيس الدولة الادريسية مستقلة عن دار الخلافة العباسية ببغداد وذلك سنة 172 هـ .

وبذلك انتهى عهد الفتوح والولاة .

وبعـــد ..

فاننا نستخلص من شريط الاحداث المسطورة ان الفضل في افتتاح الاقطار المغربية يرجع الى الولاة الاربعة : عمرو بن العاص فيما يخص برقة وطرابلس وعبد الله بن سعد بن ابي سرح فيما يرجع للمغرب الادنى وابي المهاجر فيما يتعلق بالمغرب الاوسط وعقبة بن نافع فيما يخص المغرب الاقصى ، فهؤلاء في نظري وعند اكثر المؤرخين هم الفاتحون الحقيقيون لاقطار المغرب العربي ، فهم الذين دوخوها وعمروها واذعن لهم اهلها طوعا او كرها والحقوها بدار الخلافة الاسلامية في الشرق العربي ، ولا ينتقص من عملهم أن تكون هناك ارتدادات وثورات مهما قويت واستمرت لان سائر الفتوحات الاخرى شرقا وغربا لم تخل من شيء من ذلك وحتى في الجزيرة العربية نفسها .. واما راي بعض المؤرخين الذين يعتبرون المولى ادريس ابن عبد الله العلوي من جملة الفاتحين او القائلين بانه الفاتح الحقيقي .. فان المولى ادريس رضوان الله عليه مؤسس دولة ومقيم عرش عربي اسلامي في هذه الديار لاول مرة في تاريخ المغرب .. فعمله – والحق يقال – مزيج بين السياسة والدين لا يمكن ان يكون مفصولا عن النزاع القائم بين العباسيين والعلويين حول الاحقية بالخلافة الاسلامية .. باعتبار الاحداث المروعة التي سبقت وقادته على المغرب والاحداث التالية لتوليته بتدبير الرشيد العباسي وعامله ابن الاغلب على افريقيا . ومما يستدل به على ان المولى ادريس فاتح من غزوه اطراف المغرب واسلام بقية البربر على يده فان الامر في نظري لا يعدو ان يكون زيادة توعية وامعانا في استئصال جرثومة الشرك والضلال .. فعظمة المولى ادريس تتجلى في هذا وفي اكثر منه .. فهو اول امام من الشجرة النبوية رفع الله به كلمة الاسلام وشان العروبة وجمع به كلمة المسلمين في هذه البقاع .

كما نستخلص من الاحداث ان الذي نظم الدواوين (الادارات) في عموم الشمال الافريقي وعربها عن اللاتينية هو الوالي حسان بن النعمان في عهد عبد الملك بن مروان ، وان كلا من موسى بن نصير واسماعيل ابن عبد الله بن ابي المهاجر الموصوف بانه خير امير وخير وال – في عهد عمر بن عبد العزيز – وغيرهما .. بثوا رجال الدين الفقهاء والحفاظ في المداشر والحواضر ليفقهوا الناس في شؤون دينهم وينشروا القرآن والعربية في كل مكان .. فكان هذا عملا تحضيريا عظيما وتدبيرا عمرانيا عميما وايذانا بعروبة المغرب وبالحاقه نهائيا بالركب العربي الاسلامي على يد الدولة الادريسية الشريفة .

ونختم القول في قضية تباطؤ الفتح الاسلامي حيال هذه الاقطار الافريقية .. تلك الحالة الغريبة والحالة الشاذة بالنسبة للسرعة التي تمت بها الفتوحات الاسلامية الاخرى في الشرق والغرب ، اذ اننا راينا في العرض ان الخيل الاسلامية وطئت ارض برقة سنة 21 هـ بقيادة عمر بن العاص في عهد عمر ابن الخطاب .. ثم انها لم تقف على ساحل المحيط الاطلسي الا في عام 62 هـ بقيادة عقبة بن نافع في عهد يزيد بن معاوية ، اي ان عمليات فتح الشمال الافريقي استغرقت ما يناهز 40 عاما وهي مدة طويلة غير معهودة في فتح الاقطار الاخرى .. بالاضافة الى ان الجيوش الاسلامية جلت غير ما مرة عن معظم الشمال الافريقي وخاصة اثر وقعة كسيلة المعلومة بعقبة وصحبه .. وايضا ارتدادات البربر المتكررة .. على ما قاله ابن ابي زيد القيرواني من انهم ارتدوا اثني عشر مرة من طرابلس الى طنجة .. فكان

هذا الجنس البربري بخلاف الاجناس البشرية فى طبعه وطبيعته .. لذلك حاول كثير من الباحثين تعليل هذه الظاهرة .. وقد سجلها صاحب الاستقصا بما مضمنه : والعجب فى الفتوحات الاسلامية الاولى انها كانت موجهة الى ثلاث دول من اعظم دول العالم اذ ذاك دولة الفرس ودولة الروم ودولة القبط ؛ فسرعان ما غلبوا جميعا على امرهم في بضع سنين وكسرت شوكتهم وفرقت جموعهم واميتت نخوتهم وضربت عليهم الجزية والذلة والمسكنة فلم يقوموا بعدها باخذ ثار ولا عادوا الى نفار ؛ بخلاف هذه الطغمة من قبائل البربر التى ليس لها ملك جامع ولا امر راسخ .. الخ .. ونرى ابن ابي زيد يشير فى تعليل ذلك الى ان طبع البربر نزاع الى القتال وميال الى الاضطراب ما لم يشغله شاغل ويصرفه امر حائل .. فهمنا ذلك من قول ابن ابي زيد : ولم يستقر اسلامهم حتى عبر موسى بن نصير البحر الى الاندلس واجاز معه كثيرا من رجالات البربر برسم الجهاد فاستقروا هنالك فحينئذ استقر الاسلام بالمغرب واذعن البربر لحكمه وتناسوا الردة (هـ) . ولا شك ان هذا تعليل فيه كثير من الصواب ولاسيما اذا تذكرنا ان عمر بن الخطاب كانت له سياسة ناجحة .. وانا اريد تعليلا آخر فيما يخص البربر ؛ وذلك ان جل الامم التى كانت تتكون منها امبراطوريات الفرس والروم كانت مرهقة اشد الارهاق ورازحة تحت عبء الضرائب والجبايات الثقيلة والتكاليف الباهظة التى لا قبل لهم بها .. فلما جاءهم الفتح الاسلامي اسرعوا بالترحيب به واعتبروه مخلصا لهم من ظلم الدهاقنة وعسف الجبابرة ؛ ولم يقاوموه مقاومة تذكر ولا تضامنوا ضده مع القوات الرومية او الفارسية او القوطية في الاندلس ؛ بخلاف الامر عند قبائل البربر فان الاتاوات والمغارم لم تكن شديدة الوطأة عليهم او كانت منعدمة بالمرة .. بحكم الموقف المناوىء للحكم الاجنبي الذى حافظوا عليه وادركهم عليه الاسلام .. وهم فى ذلك شبيهون بحالة القبائل العربية التى كانت فى منأى ومناعة عن دفع اي اتاوة فى جاهليتها ؛ ولما جاءهم الاسلام وطالبهم بالصدقات والاعشار سموها اتاوة وامتنعوا من دفعها الا مكرهين .. ولحروب الردة علاقة بذلك كما هو معلوم .. لذلك ارى ان نلتمس من ذلك وجها آخر لمقاومة البربر للفتح الاسلامي .. ويابى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون .

الرباط ـ رضا الله ابراهيم الالغي



أدب عيد العرش :



للأستاذ : عبد العلي الوزاني

عيد العرش في بلادنا ملحمة من ملاحم النضال الوطني ، من اجل التحرر السياسي والمحافظة على الشخصية الوطنية . وقد كان هذا العيد محورا لادب غزير ، يشخص مرحلة من مراحل التاريخ الادبي في المغرب الحديث . فلم تكن تمر هذه المناسبة الوطنية ، دون أن تحرك مواهب الشعراء والكتاب ، وتدعو قرائحهم الى ابداع القصائد والكلمات . هذه التي صورت فيما صورته ، كفاح العرش المغربي وتجسيمه للارادة الوطنية ، ضد الاستعمار البغيض . كما انها جاءت مرآة لما يعتمل في صدور المغاربة من مشاعر وطنية صادقة ، ومن غيرة على بلادهم ومستقبلها الذي كان موضوعا في كف القدر ، وكذا الغضب الوطني المقدس ، الذي كانت تضطرب به نفوس الصفوة المختارة من مثقفي المغرب وادبائه وشعرائه البارزين .

وقد كثرت القصائد والكلمات التي اتخذت من هذه المناسبة موضوعا لها ، حتى ليصح ان نقول : ان هناك (ادب عيد العرش) والمراجع لصحف المغرب الصادرة منذ ثلاثة عقود من السنين الى الآن ، يجد ثروة ادبية لا يستهان بها في هذا المضمار ، لو انها جمعت وبوبت ، واستخرجت مضامينها السياسية والاجتماعية والتاريخية والدينية والادبية ، على يد النقاد والدارسين ، لبرز الى الوجود عمل متكامل ، يسد فراغا في المكتبة المغربية ، ويقدم لمن يتصدى لتاريخ المغرب السياسي والادبي المعاصر ، مادة من شأنها ان تلقي ضوء كشافا على جوانب هامة من فصول الكفاح الوطني ، الذي استقطب العرش والشعب ، كما تصنع اصابع الباحثين ، على المفاهيم السياسية والدينية والوطنية ، التي كانت تشغل بال المثقفين في هذه الديار . والمثقفون هم الطليعة التي تجسم آمال الامة واحلامها ، وتعبر عن تطلعاتها ، والقضايا الاساسية التي تشغلها ، ازاء ظروفها التاريخية والاجتماعية والسياسية .

ولم يكن هذا الادب مجرد مدح لصاحب العرش ، وتنويه بمواقفه الشجاعة ، التي اقضت مضاجع رجال الحماية، ولكن كان ايضا تاريخا للاحداث الوطنية التي كان المغرب مسرحا لها ، صورت من خلال تصوير كفاح العرش ومواقفه الخالدة . كما انه في نصوصه النثرية ، تحليل للقضايا الوطنية الكبرى ، وتعبير عن الرغبة في التحرر ، ونقد للاوضاع المتعفنة ، وفضح صريح تارة ، وغامض تارة اخرى ، للمخططات الاستعمارية ، والنوايا السيئة تجاه الشعب المغربي وقضيته العادلة .

وبالرغم من سيف الرقيب الذي كان مصلتا ضد الاقلام ، فان شيئا كثيرا قد كتب ونشر على الناس ، متسللا اليهم في حذر وتوجس . وما لم ينشر منه ، ما زال قيد الدفاتر والاضابير التي توجد مبعثرة عند الكثيرين من الادباء المغاربة الذين واكبوا حركة النضال من اجل الاستقلال . فلو اضيف الى ما نشر ، لتكون من المجموع هيكل لادب عيد العرش ، ما احسب الباحث في غنى عنه ، اذ هو من اهم مظاهر الكفاح الوطني عددا من السنين .

والنصوص الادبية عامة ، فوق كونها ذات قيم ادبية صرفة ، تعتبر من مصادر المؤرخ السياسي

والاجتماعي ، وكذا مؤرخ الحياة العقلية ، لكونها تمثل السياسة كما تنعكس على وجدان الشعراء والادباء ، وتمثل الاوضاع الاجتماعية من الزوايا المختلفة التي ينظرون منها اليها ، وتمثل الحياة العقلية او قل جانبا منها ، بوصفها اثرا من آثارها الكثيرة المتنوعة . وهذا يصدق حتى على تلك النصوص التي لا تتعرض مباشرة لشتى نواحي حياة الامة ، اذ تعكسها بطريق غير مباشر ، وبعامل التأثر التلقائي الذي لا يسلم منه اي اديب ، بحكم وجوده في جماعة بشرية لها اهتماماتها ومشاكلها واوضاعها الخاصة ، التي لا تترك الاديب او الشاعر في منجاة من التعرض لآثارها. اما اذا كانت تلك النصوص — وهذا شأن ادب عيد العرش — تتصدى لتلك المشاكل والاوضاع بطريق مباشر ، سياسية كانت او اجتماعية او غيرها ، فان فائدتها للمؤرخ تكون اكثر نفعا ، لكونها لا تكتفي بالتأثر التلقائي ، وانما تتصدى للاحداث لتبلورها وتستمد العبرة منها ، وتسجل آثارها ونتائجها بالنسبة الى الجماعة . وبناء على هذا فادب عيد العرش فصل من فصول التاريخ السياسي والوطني والاجتماعي ، كما انه في نفس الوقت ، باب واسع من ابواب تاريخنا الادبي المعاصر .

وادب عيد العرش في المغرب ، ليس من ادب المناسبات الذي تمليه الرغبة او الرهبة ، وانما هو قطع من نفوس الشعراء المغاربة ومن صميم احساسهم التلقائي . فهو صادر عن حب عميق ، ووفاء للقيم الوطنية ، وتعشق للبطولة والزعامة في اروع صورهما. وليس معنى هذا ان جميع نصوص هذا الادب ممتازة من حيث الطابع الفني ، فالحقيقة انها تتفاوت تفاوتا كبيرا في مراتب جودتها الفنية ، ولكن بواعثها ودوافعها كانت في اغلبها صادقة وقوية . يظهر ذلك من خلال حرارة العاطفة كما تعكسها العبارات والاساليب . خصوصا اذا نحن تذكرنا ان رفع آيات الولاء السياسي والادبي والوطني والديني لصاحب العرش ، كان في عهد الحماية يسم الشاعر او الكاتب بسمة التمرد ، ضد السلطات الباغية الحاكمة ، ويضعه في صف المغضوب عليهم ، الامر الذي قد يعرضه للتنكيل ، ويزج به في المنافي والسجون . فلم يبق الا ان المساهمة الادبية في هذا العيد ، تدل غالبا على صدق البواعث والدوافع .

واجزم بأن عيد العرش ، شكل باعثا قويا من بواعث الانبعاث الادبي في المغرب المعاصر ، في وقت تضاءلت فيه البواعث وكثرت العراقيل التي تقف في وجه الثقافة العربية عامة ، والادب العربي خاصة ، اذ كانا يحاربان من طرف السلطات الاستعمارية ، بوصفيهما من اهم مظاهر شخصية الامة التي يراد القضاء عليها وطيها تحت جناح الشخصية الاجنبية الواغلة في ارض الوطن . ولكن عيد العرش يجيء كل سنة ليثير المواهب ويبعث الملكات ، بدافع من الحب العميق ، والولاء المكين . وهذا الضرب من الادب يلقي رواجا كبيرا لدى المثقفين وجمهور القراء، لانه يمثل جوانب من الذاتية المغربية ، ويتغنى قيمنا ومثلنا العليا التي يكاد لها سرا وعلانية . فلا غرو اذا وجدنا ادب عيد العرش يحتل مكان الصدارة بين آدابنا الوطنية الحديثة ، اذ هو تعبير عن طموح امة وانبعاث شعب ووفاء عرش وتضحية ملك . والمؤرخ للشعر الوطني في المغرب سيجد ادب عيد العرش اظهر معالم ادب الوطنية المغربي وادله على المشاعر الوطنية الصميمة . هذا فوق كونه يمثل ادب المقاومة المغربية الذي يستهدف الالتفاف حول العرش المغربي ، كرمز لوحدة الامة وصمودها في وجه التحرشات الاستعمارية التعسفية .

وقد كانت المساهمة الادبية في عيد العرش ، ايام الكفاح الوطني ، تحتاج الى شجاعة ادبية فائقة، تمكن صاحبها من الاستعداد لتحمل عواقب عمله مهما كانت . لذلك لم يكن جميع الشعراء يجرأون على ان يضيفوا شيئا الى ادب العرش ، سيما في الظروف التي تتأزم فيها العلاقة بين القصر ، والاقامة العامة .

انها مدرسة ادبية تخرج الشعراء والكتاب ، ولكنها محاطة بحزام من المتفجرات ، ومطوقة باعتى وحوش الانسانية واشدهم تنكرا لكل خلق او ضمير .

ولو شئنا ان نكون اكثر دقة لقلنا ان عندنا (ادب عرش) لا (ادب عيد عرش) فقط ، فجميع البحوث والدراسات والقطع الادبية الذاتية ، التي اتخذت من العرش ومواقفه التاريخية الخالدة موضوعا لها ، سواء صدرت في مناسبة عيد العرش ، او في غيرها من المناسبات ، تدخل فيما يسمى (ادب العرش) ونحن لو ذهبنا نتقصى هذا الادب في هذا المعنى الواسع ، لوجدنا حقبة بكاملها من حقب تاريخنا الادبي المعاصر .

وامر آخر لابد من الاشارة اليه ، وهو ان خطاب العرش يشكل مصدرا من اهم مصادر ادب عيد العرش هذا الذي نتحدث عنه . بحيث لا غنى للباحث عن

الرجوع الى خطب العرش التي القيت في كل مناسبات هذا العيد ، اذا شئنا التماس اعم مصدر من مصادر ذلك الادب ، والينبوع الفني الذي كان يلهمه ويزوده بالوقود لا لان الشعراء والكتاب كانوا يتخذون من تلك الخطب دستورالهم، وقاموسا ادبيا وسياسيا يستمدون منه مضامينهم وافكارهم ومبادئهم فقط، ولكن لانه كان مصدر الهام لهم ايضا ، يوحي اليهم ، ويضيء جوانب نفوسهم ، ويفتح امامهم آفاق الاشراق الروحي والفكري . فخطب العرش على هذا الاساس ، هي منبع للثقافة السياسية بالنسبة لرجل السياسة ، وهي وثيقة تاريخية بالنسبة لرجل التاريخ، وهي درس في الوطنية لرجل النضال ، وهي مصدر الهام للشاعر والفنان . توحي الى كل هؤلاء بما هم في امس الحاجة اليه ، كل في دائرة اختصاصه .

هذا الادب يجب ان يجمع ويبوب ، ثم يدرس بكل ما يستحقه من عناية ، كي يكون له كيان بارز ، ويوضع رهن اشارة الاستاذ والطالب والناقد والقاريء بصفة عامة ، يجد فيه كل هؤلاء مادة للدرس لعلها ان تكون من اغنى آدابنا الحديثة . فقد يكون من ابرز مظاهر تخلفنا الادبي اننا لا نعنى بجمع تراثنا المبعثر بين الصحف والقصاصات والاضابير ، حتى لا يضيع فنحرم الاجيال المقبلة من الاطلاع على فصول من تاريخ امتهم الادبي مهما كان مستواها من الخلق الفني والابداع . وقد يكون من المخجل حقا ان احدا لم يتصد ـ احد الآن ـ للقيام بهذا العمل الهام ، لانعاش ركودنا الادبي ، وتمتين الصلة بين ماضي المغرب الادبي وحاضره . ونفس الشيء نقوله بالنسبة لمختلف آدابنا الحديثة الاخرى بصفة عامة . نعم هناك من حاول محاولة او محاولتين في هذا الصدد ، ولكن كان ذلك في حدود ضيقة، ولو تضافرت معها محاولات اخرى ، لكانت بين ايدينا عدة مجموعات في فنون ادبية مختلفة تشكل في مجموعها معالم بارزة لادبنا القديم والحديث .

جمع هذا الادب ، او هذه الفنون من الاداب المغربية ، او تحقيق يكون له من النتائج ما يأتي :

1) اعطاء كيان لجهودنا الادبية المتفرقة

2) تيسير مادة ادبية غنية للباحث الذي يتصدى لرصد مظاهر تحولنا الادبي في خلال عقود من السنين .

3) انتفاع الاجيال الآتية بثمرة جهودنا الادبية

4) تصدير شخصية المغرب الادبية الى الخارج للتعريف بها واعطاء الدليل على وجودها .

5 ـ امتحان حصيلتنا الادبية في الازمنة الحديثة، قصد القيام بالنقد الذاتي الذي يحصي مواطن الضعف ومواطن القوة .

وفي رايي انه لا بد من تدخل الدولة لانجاز هذا العمل ، ويكون من المجازفة بتاريخنا الادبي ، ان يبقى الامر موكولا الى مبادرات الافراد وقابلياتهم العفوية . ذلك ان المثقف المغربي احد الآن، لا يستطيع في اغلب الاحوال، ان يقوم بمفرده وبامكانياته الخاصة بهذا العمل ، لما يتطلبه من تكاليف ونفقات . وكيف وهو يكتب قصة او ينظم ديوانا من الشعر، او يجمع مقالاته المتفرقة ، ويريد تقديم ذلك الى المطبعة فلا يستطيع ، لضعف امكانياته المادية . هذا بالاضافة الى ضآلة عدد القراء ، بحيث حتى لو فرضنا انه تمكن من شد الحزام ، لتوفير نفقات الطبع ، فان مردود كتابه سيكون تافها ، اذ قيس بما تحمله من نفقات المطبعة . لهذا اقول ان تدخل الدولة هاهنا يكاد يكون ضروريا، فهي بما تملكه من امكانيات وطاقات ، قادرة على تحقيق المشاريع الادبية الضخمة ، كالتي قامت بها مشكورة في تحقيق ذخائر من تراثنا القديم ، الامر الذي ينوء به كاهل الافراد .

والغالب على الظن ان المثقفين المغاربة لم تتجه اراداتهم الى جمع نصوص الادب المغربي قديما وحديثا لاسباب مختلفة اهمها ان بيئتنا الادبية والثقافية ، تعوزها التقاليد العلمية الاصيلة العريقة . اذ ان من مقتضيات هذه التقاليد حملها الباحثين على رصد الظواهر الادبية القديمة والحديثة ودراستها ، لكونها ضرورية لاقامة الدرس الادبي على اساس من معرفة الامكانيات الادبية البيئية ، قصد محاولة تجاوزها والتفوق عليها وعرضها على موازين النقد لتقييمها ووضعها اخيرا في موضعها المناسب من التاريخ الادبي العام .

وثانيها اننا هنا في المغرب، ما زلنا نجتاز تلك المرحلة الفكرية التي ترافق طفولة الحضور الادبي . ومن خصائص هذه المرحلة ان المثقفين المنتمين اليها ، تغلب عليهم النزعات الفردية ، ولا يقوون على ان يتجاوزوا انفسهم ، للاهتمام بالآخرين ، والعناية بنشاطهم الادبي بدراسته والتنويه بنماذجه التي حققت شيئا من براعة وابداع ، اعتقادا منهم بأن كل حسنة يعترفون بها لغيرهم ، تكون فضيحة لعيوبهم ونواحي قصورهم . وهذه ظاهرة من ظواهر التخلف الادبي ، توجد في جميع الاوساط الادبية المتخلفة .

وحتى اذا التفتوا الى غيرهم نالوه بالسنة حداد ، وجردوه من كل مزية ، بل قلبوا حسناته سيئات . وغالبا ما يعاملونه بلا مبالاة ، وباهمال تام ، متجاهلين وجوده بالمرة . ويرافق هذه الظاهرة عادة الاطراء المتبادل بين الاصدقاء ، وبناء شخصيات وهمية من لا شيء عن طريق التنويه بانتاج بعض الافراد ولو كان تافها في حد ذاته ، وايهام القراء بان له قيمة ما ، خضوعا لدوافع سياسية او عاطفية او طائفية ، ولكنها ليست ادبية على اية حال . ومع هذه الحالة يتعذر على المثقفين ان يوجهوا عنايتهم الى انتاج زملائهم بنزاهة وموضوعية ، وقد يشمل الاهمال حتى الاموات منهم .

ومنها قلة الالتفات الى الانتاج الادبي المحلي واساءة الظن به ، مع استكثار ان تكون له مزية ما ، في الوقت الذي قد تشتد فيه العناية بالاداب الاخرى، ولو من باب الاعجاب الاجوف ، الذي لا يقوم على اساس من الدرس الجاد العميق . اضف الى ذلك الكسل العقلي المثبط للهمم ، الحائل دون ارساء قواعد للدراسة الجادة الهادفة .

التخلف الفكري هو المسؤول عن اهمال الاداب الوطنية القديمة والحديثة ، بكل ما يصاحب ذلك التخلف من خصائص اجملت الحديث عنها . دعك من بعض الافراد الذين رزقوا من غنى النفس ، ورحابة الصدر ، وسعة الافق ، وانكار للذات ، ما استطاعوا معه التفوق على نقائص بيئتهم . فهؤلاء افراد قلائل جدا ، ولا يمكن اتخاذهم مقياسا لغيرهم .

وعندما توجد التقاليد العلمية ، ويحقق الفكر خطوات واسعة ، وتصبح للادب قواعد راسخة داخل البيئة المحلية ، تحل مشكلة الطبع والنشر . فالناشر لا ياتي قبل وجود المؤلف ، بتنظر ان يقدم اليه ما ينشره ، بل العكس هو الصحيح ، اي عندما يوجد مؤلفون وقراء يبحثون عما يقراون، تنشا عن ذلك مؤسسات النشر . لان هذه الاخيرة تعنيها الناحية التجارية بالدرجة الاولى . فهي تبحث عن اسباب الربح، وتتجنب اسباب الخسارة . وعلى ذلك فوجود من يؤلف ومن يقرا يستتبع وجود الناشر بطريقة شبه تلقائية ، اذ ان رواج كل بضاعة ادبية كانت او غير ادبية ، يؤدي الى كثرة الذين يروجون لها ، ويفسحون لها المجال في اعمالهم ومؤسساتهم .

نعم ، لابد ان يسير التطور الادبي مع وجود الناشر من اول الامر ، فبدون ناشر لا يمكن تحقيق اي تطور ، ولكن غالبا ما يكون النشر في المراحل التمهيدية قضية صعبة للغاية ، اما عندما تحدث النهضة الادبية، وتصبح البيئة الادبية مكونة من طرفين : منتج ومتلقي لا ينقطع ما بينهما من تفاعل وتجاوب ، فمسالة النشر تصبح سهلة نسبيا ، ولا تكون هناك صعوبة الا بالنسبة للمتادبين المجهولين من طرف القراء او بالنسبة للانتاج الادبي الهزيل ؛ الذي ترفضه بعض مؤسسات النشر، متى كانت تشترط فيما تنشره ، ان يكون ذا مستوى فني وفكري معين ، حفاظا على سمعتها بين جماهير القراء . وحينئذ يكون العائق هو الانتاج نفسه ، او شخص المنتج ، عندما لا يتلاءمان مع متطلبات الوسط الادبي .

فاس ـ عبد العلي الوزاني

محمد بن محمد الشريف في قوته وارتياحه للأدب

للأستاذ عبد الله الجراري

الــدولــة العلويـــة

قامت دولتنا العلوية الشريفة ـ على حماية البيضة الاسلامية ـ بهذه الديار المغربية ـ بعدما كادت ايدي العبث تجعلها في خبر كان ـ من جراء مـا عـرا دولة السعديين من الضعف والانحلال منذ غاب بطلها (المنصور) عن الرقعة ، وسقط المغرب في احضـان خلف ضعيف مثل ادوارا دموية داخل البلاد ارتكزت على اس النقاشة المنهار ، واصبح كل فرد من افـراد الدولة يرتجي وصلا لـسلمى ـ والدخلاء يسبحون في تلك الفوضى الداهمة بدعوى الانقاذ ، والاخذ بضبعي المغرب ـ والاجانب وقتئذ في ثغوره واطرافه يهتبلون الفرة ويلعبون ادوارها الاستعمارية دافعة ابناء الوطن الى حيث القضاء النهائي .

في هذا الظرف الضيق ، والمسارب المهولة ـ اضطر الاحرار من ابنائه للاستغاثة هنا وهناك (داخل نطاق التراب) رغبة في الاحتفاظ بالبقية الباقية من رمقــــه .

والنيات الحسنة ، والطوايا الطيبة لا تلبث (طال الزمان ام قصر) تدرك ما تصبو اليه مـن مقاصـد ، وترمي اليه من غايات .

امحمد بن محمد الشريف :

ذلك ان اللهـ تعالى اتى بالدولة الحسنيـة السجلماسية ، وعلى راسها امحمد بن محمد الشريف ابن علي الحسني السجلمـاسي ـ مؤسس الدولـة ـ كان ابوه امير سجلماسة في اواخر ايام السعديين واعتقله ابـو حسـون السملالـي (صاحـب درعـة والسوس) ـ في قلعة بالسوس ـ قريبا مـن سنـة 1045 ـ 762 .

في هذا الوقت نهض ابنه البطل المولى امحمـد فاستمال اليه جمعا من اهل سجلماسـة (او كنـز البركة) حسب اسمها القديم (1) اذ كـانت (قاعـدة تافيلالت) فبايعوه سنة 1050 هـ ـ 1640 م) وقاتل بهم السـملالي فتغلب عليه، واستولى على درعـة واعمالها ، واغار على مدينة « فاس الجديد » فافتتحها وبايعه اهلها واهل « فاس القديم » سنة 1060 هـ ـ 1650 م ثم اخرج منهما فانصرف الى مدن الصحـراء وشرق المغرب فبايعته عدة قبائل ، واستولى عـلى العاصمة الشرقية (وجدة الحبيبة) وجعل مقره بهـا تارة وبسجلماسة تارة اخرى واقام ينظم عمائـر الصحراء ـ في هذه الاثناء توفي والده الشريف محمد (سنة 1069) فجـددت لـه البيعـة ، ثـم توجـه للقضاء على حركة الدلائيين واصطدم برئيسهم الحاج الدلائي ودارت بينهما المناوشـات انتـهت اخيـرا بالصلح .

قوة امحمد بن الشريف :

كان المولى امحمد يتوفر على قوة جـسمانيـة ، وبسطة بدنية خولتاه الوصول الى اغراضه ومطامحه سياسيا واجتماعيا .

---

(1) وقد صحفت كلمتها بما نشأ عنه كلمـات ثـلاث « سجلماسة » بيت ، حلم ، اتيته .

انها خصلة كريمة تخلق من رجلها بالطبع ـ الكائن القدير على جذب القلوب وامالة النفوس عن طواعية واطمئنان ـ فترتاح الصدور لسياسته وقيادته ـ وتسير القافلة سيرا مرضيا يحدوه الامل والامل القوي في الفوز والانتصار ـ ولا ادل على هذا ما لمحنا اليه آنفا .

اضف الى هذا ما حكي عنه وهو يحاصر «بني الزبير» (بتابوعصامت) اذ جعل يده في بعض ثقب الحصن وصعد عليها ما لا يحصى من الناس حتى كأنها خشبة منصوبة، ولبنة مضروبة ، شيء ـ اذكرنا بقول الاصمعي : « لم ير احد اعرض زندا من الحسن البصري فكان عرضه شبرا » (1) فالرجل كان شجاعا بطبعه ، مقداما لا يكترث للعظائم ولا يدور بخلده الوهن والرهب ، بل لا يدري ما هي النكبات والاوجال ـ ظاهرة لا تعتم تحفز الجند ـ والاتباع للاقتداء خاصة برئيس دولة ، وشريف ارومة يتيمن به حتى ولو فقدت تلك الصفات البطولية وعرق النبوة .

وها نرى منافسيه بل اعداءه الدلائيين يقولون عنه في صراحة : الاجدل الذي تؤده هموم الليالي ، ولا مكايد الطبيعة والدواهي ، عقاب اشهب على قمة كل عقبة ولا يقنعه المال دون حسم الرقبة لا يقاوم في الصراع ، ولا يزاول في الدفاع .

صفات يجب ان تتوفر في الراعي ـ الاستعداد الفطري في المنزلة الاولى ـ وبسطة الجسم وكمال قواه المستلزمة لصحة الفكر . ومن حكم الامثال : « العقل السليم في الجسم السليم . ونرى هذا المعنى الكريم واضحا ومتبلورا في قوله تعالى : « قالت احداهما يا ابت استاجره، ان خير من استاجرت القوي الامين » (2) .

فمقال احدى البنات من جوامع الكلم والحكمة فمتى اجتمعت هاتان الخصلتان : الامانة والكفاية تكلل السعي بالظفر طبعا .

تلكم خصال تعد بحق دروسا عملية تبعث على ترسم خطاها، وتقل الاقدام على سوى مستواها ، فيندفع الافريقي بطابع فطرته للاقتباس من كتب (3) حيث تنطوي تلك الجولات الحربية على مغازي نبيلة تكتسب من ورائها صنوف من الاستماتة والصمود ، والوان من الرياضات البدنية ـ كرا وفرا واخذا وردا، عمليات تدرب كلا من الماشي والفارس على اساليب الاقدام والاحجام داخل الميدان عن بينة ويقظة يضمنان السلامة والظفر في النهاية .

والتاريخ لا يخفى انه ذو سلسلة فولاذية الحلقات، اصيلة الجاذبية ، لا تبرح متصلة الالتئام والالتحام مدى الزمان .

وهاك ذكر « والشيء بالشيء يذكر » . بعض غزوات المولى ادريس بن ادريس للخوارج الصفرية من البربر (وهم قوة مضاعفة متكاملة) اذ ركب فرسه وتقدم للمعمعة يخوض اطرافها ضاربا في هذا الجانب مرة ، ثم في الجانب الآخر مرة اخرى ـ واستمر يدافع وينافح حتى ارتفع النهار ـ فرجع الى رايته ووقف ازاءها والجند يقاتلون ، وهو تحت ظلال البنود يحرض ويشجع انها بحق خليقة نشأ عليها رجال الخلافة وملوك السلام الاول ؛ وفي مختلف عهود الاشراق والنور تجدهم وقد انطلقوا وانشرحوا وقوفا جنبا لجنب مع اخر جندي تشخيصا منها لروح الديمقراطية الحق وذوبانا في الاوساط الشعبية دون ان تأخذهم عزة الولاية او يعرفوا للاستقراطية المبتذلة مدلولا يصرفهم عن الاتصال بالرعية ـ مما يفسح المجال لهم عن ايمان واطمئنان للاقتداء والعمل في جد بروح مؤمنة بالصالح العام ، والسعي البناء في جهد صادق واخلاص تعلوه مسحة الاستماتة الى النهاية ، والنهاية الحميدة العقبى . وفعلا لم تمض غير فترة حتى اصبحوا جندا مدربا قويا مؤمنا برسالته عاملا على السير قدما في الخطة العملية التي رسمت له ، وكان بطبيعته على استعداد لتلقيها .

انها وايم الحق المدرسة يجب ان تكون في صف المعاهد التكوينية والتطبيقية على الاخص بل النموذج الحي الجدير اليوم وفي قرن العشرين ـ ان يعطي المثالية العالية في الموضوع ضرورة انها ـ اغلت في ظرف قريب واعطت نتائج ملموسة في الظفر والانتصار انها مدرسة المولى احمد بن محمد الشريف العلوي طيب الله ثراه .

وحتى ان اخاه المولى الرشيد قدس الله روحه عقب الشجار والطعان الواقع بينهما وكان المترجم

(1) من البيجوري على شمائل ابي عيسى الترمذي ص 22 .
(2) الآية 27 من سورة القصص .
(3) من كتب ـ لا عن كتب كما يقع لاقلام الكتاب .

ضحيته ــ ندم على فقده اشد الندم اذ ضاع منه رده قوي لا يعوض . رحم الله الجميع .

تشجيعه للادب والثقافة

ان همة العاهل امحمد بن الشريف لم تقف عند القوة والمصارعة بل تناولت نواحي اخرى في مقدمتها المعرفة وتشجيع رجالها ايمانا منه بمكانة التغذية الروحية ، وما يمكنها ان تلعب من ادوار في تحريك النفوس وتحويلها من تحجر وجمود الى انطلاق ولين واخيرا الى تقدير المسؤوليات ، واعتبار الواجبات الملقاة على عاتق المواطنين في شتى الجوانب على اختلاف الوانها ماديا وادبيا .

وهذا نموذج مصغر يعرب لنا عن هذه الحقيقة الثابتة التي لا اغالي ان قلت عنها انها علت على ما كان يقدمه الخلفاء والملوك في بلاطاتهم من صلات علمية وادبية ــ وها هو ذا يصل الاديب الشهير المتقدم في صناعة الشعر المعرب والملحون ــ ابا عثمان سعيد التلمساني صاحب القصيدة العقيقية وغيرها نحوا من خمسة وعشرين رطلا من خالص الذهب جائزة له على بعض امداحه .

انها جائزة (كما قلت) مشرفة ومشرفة اكثر اربت على ما عرف من الصلات ، وتحدث به التاريخ ــ خمسة وعشرون رطلا من خالص الذهب ــ نضار يقدر بنحو ثلاثة عشر كيلوغراما ذهبا خالصا بخ بخ (وعن الملوك فلا تسل) فكم لهذا القدر وكم له مما سجل ومما لم يسجل .

تلك ظاهرة نادرة تبرهن في جلاء على اريحية المترجم العلوي ، وما كان يوليه من عناية للادب والادباء ورجال الاقلام الثقافية على اختلاف الوانها.

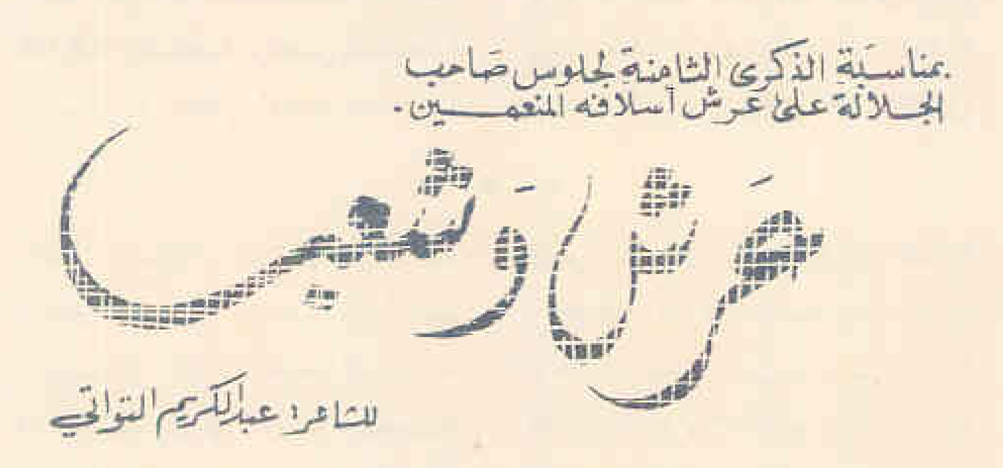
فرحمك الله يا ابا عبد الله .

والتاريخ صادق امين لا يلبث يحافظ على هذه المكارم والمحامد ويحوطها بعنايته المألوفة رباطا متنه لتلك السلسلة المحكمة الحلقات .

انها ورثنا مكرمة خالدة نلمسها ونلمسها حتى اليوم في عاهلنا المفدى الحسن الثاني ايده الله . ونحن نحتفل بذكراه الثامنة لجلوسه على عرش اسلافه المنعمين . فيعطي اعزه الله بكلتا يديه عطاء من لايخشى القل ، ضاربا اروع المثل في السماح والبذل ، مما يقصر القلم عن سرده وتعداده . وليس الخبر كالمعاينة (1) . حفظ الله مولانا الملك، وكلا ولي عهده سيدي محمد وباقي الاسرة .

الرباط ــ عبد الله الجراري

(1) حديث رواه احمد والطبراني وغيرهما عن ابن عباس وصححه ابن حبان والحاكم وغيرهما .



الله بـارك عرشـا للعلى بـدرا ... تتلو المفاخر مـن آياتـه سـورا
عرش بنتـه اصـول طـاب محتدهـا ... وسودتـه فـروع ، تعشـق الظفـرا
عرش على العـدل والايمـان اسـه ... « بنو علـي » فكـان النـور مزدهـرا

* * *

اللـه اكـبر ، ما كـانت مآثـره ... الا السـنـاء والا الـعـز والـفـرا
طـابت مغارسـه ، يا طيـب منبتهـا ... الخيـر تنبـت والاحسـان والـدرا
جلت أياديـه ، مـن يحصـي مكارمـه ... عزت مرامـا ، وعـزت مبتـغى و ذرى
الكـون والفلـك الـدوار يخـدمـه ... والله ، جل عـلاه ، صـاغـه قـدرا
والدهر يعنـو لمـا تملـي ارادتـه ... ويستطيب القضـا ما يبتغـي ويـرى

* * *

وانت يـا حسـن تعـمـى عظائمـه ... بك استطال ، ومنك استلهم العبـرا
فانتما فى المدى صنـوان ، قد شغفـا ... بالمكرمـات فنـالهـا ومـا انبـهـرا
قد رمتما المجد ، مـذ بالمجـد نالكمـا ... شـم الانـوف بنـاة العـزة الامـرا

* * *

يا ايها الحسـن الثـاني جـرى قـدر ... بأن تبـوا هـذا العـرش منتصـرا
وأن تتـوج بـاسـم الشـعـب رائـده ... للدين حصنا ، وللدنيا هـدى وثـرا

رقيت عرشا ، وسا اصلا ، وذروته ... فوق السماكين قامت ترشد البشرا

وعشت ، يا سرها ، تعلي مفاخرها ... والعظائم عشت الورد والصدرا

هفا اليك ، وقد بوئته ملكا ... يرى المحامد اسا ، والمعالي ذرى

هفا اليك عظيما يرتجي عظما ... ويقتضيك الذى قدرت مقتدرا

وانت يا حسن المجد تعشقه ... والعدل تعشق والاقدام والظفرا

* * *

والله اذ شاء ان ترقى مراقيه ... قضى ، فأحسن ما قضى وما قدرا

واختار عهدك ، للحسنى مناثرها ... واختار عيدك للاعياد ما بهرا

واختار « آذار » اعلاما لموسمه ... واختارك السمع ـ فى آذار ـ والبصرا

ما مثل عيدك فى الدنيا وبهجته ... الا الربيع والا الحب والوترا

«آذار» غازله ، يا حسن مقدمه ... الروض انعشى والارواح والفكرا

فالروض من حسنه تزهو خمائله ... والروح من جوه الفينان قد سكرا

والطير من سحره نشوان تيمه ... ريح النسيم ، فغنى للهوى سورا

والنهر من سكره جاشت منابعه ... وغازلت شفتاه الدوح والشجرا

جرى خريرا ، تهز النفس نغمته ... وترقص القلب والاحلام والذكرا

فيوم عيدك ، للارواح خمرتها ... وللحياة تحايا تلهم الشعرا

* * *

يا يوم عيدك ما ابهى روائعه ... وما احيلى ، هيامي فيه قد ظهرا

ارسلته نغما ، الكون ردده ... فى نشوة سبت العيدان والوتر

* * *

ما كان ربك اذ اجرى مقاديره ... واختار عيدك فى آذار واقتدرا

وقال للمجد : صن آمال امته ... وكن لها الصاحب الوفي والقدرا

وللقضاء ، ترفق واستدم ظفرا ... للعرش والحسن الثاني وما ندرا

وللزمان ، بأن تمضي حوادثه ... بما تريد ، وما املت مبتدرا

الا ... اراد بك الحسنى ، وان له ... بعرشك النبوي اللطف منتظرا

* * *

يا حسن عيدك من افراحه طفرت ... دموع شعبك ، عرفانا ، بما بدرا

العلم تبذر ، والاصلاح تكلؤه ... والدين تنصر ، والاخلاص لن تدرا

سل المزارع من روى ازاهرها ... ومن لها نذر الانعاش والخبرا
سل النجود التى قد اغدقت نعما ... غرسا وسقيا وتشييدا لما بهرا
وسل مدائنه ، ما شئت ، مشرقها ... او مغربا فستنبى الخبر والخبرا
على الشواطىء آيات له بهرت ... اولى النهى ، ما لها مثل ولا نظرا
معامل واساطيل واندية ... تبني الحياة وتحمي الدين والبشرا
وما السدود التى يعلي شواهقها ... فتنبت الخصب والانماء والوفرا
الاعصارة احشاه التى فطرت ... على الوفاء ؛ وحق الله ما فطرا
يا ابها الحسن الثاني جرى قدر ... بما تريد ، وحفت ركبك البشرا
جاءتك تهتف بالاقبال ، ان لها ... فى عيد عرشك ميعادا ومنتظرا
جاءتك والبسمات الغر ، تغمرها ... حمدا تطارحك الاشواق والفكرا
عودتها ، مذ سموت العرش ــ مشورة ... وانت تصدر عنها الراي والخبرا
وعودتك الولا والنصح طائعة ... وعاهدتك ، فنالت منك ما بهرا

* * *

يا ابها الحسن الثاني كبا زمن ... بآل يعرب ، والحظ الخؤون جرى
جرى عليهم ، بما ادمى حشاشتهم ... وما له مزقوا الاكباد والمررا
وبات فى المسجد الاقصى دماؤهم ... تراق ، يا ويلنا قد اهرقت هدرا
والعرض منتهك الاردان تنهشه ... ذئاب صهيون عدوانا لها بطرا
وضجت القبلة الاولى ، لما اقترفت ... صهيون واستنجدت ، الله والقدرا
واصبح العرب شذاذا بارضهم ... يا ويح يعرب ان لم ينهضوا زمرا
ما بالتمني ولا التهديد يقذفه ... هذا وذاك ينال العز من دحرا
ولا البكاء . بمجد ان يواصله ... ان الخلود لمن لا يحذر الخطرا

* * *

وانت يا حسن كهف الالى ظلموا ... فانصر بني الضاد واستنتج لهم ظفرا
واستنهض الهمم القعساء ثائرة ... وذكر الانفس الاباءة النذرا
فانت يابن رسول الله جنتنا ... وكنت للمعضلات السيف قد بترا
وكان عرشك للمقوين عدتهم ... به استجاروا ومنه التام ما كسرا
يا ويح صهيون ما بالعرب من خور ... وفيهم الحسن الثاني ، وقد بسرا (1)
الظلم تبسر ، والعدوان تردعه ... ما زاغ من هيج العقبان والخطرا

---

(1) بسره يبسره على وزن نصر ينصر : قهره

يا ايها الحسن الثاني وبي شغف ... لمدح عرشك ، اني جئت معتذرا
ما كان شعري وقد حاولت صادقه ... بمدرك من علاك الوصف والخبرا
ـ حاولت ـ جهدي ـ مجاراة المدى فناى ... عني المدى ، فاقتفيت النور والاثرا

* * *

وذا نشيد من الصحراء رجعه ... من روحه ، لفداء العرش قد نذرا
ونحن ـ يا عرش ـ مذ اقدارنا ربطت ... لبعضها قد وهبنا الروح والعمرا
ـ آمنا انك في الدنيا محجتنا ... واننا بك نحيي ما قد اندثرا
يا عرش ما كانت الصحراء مذ فطرت ... الا حماك ولا المنبت المطرا
والعرش والشعب مذ كانا بني لهما ... آباؤك الصيد ، مجدا بالسنا ازدهرا
الله والارض والتاريخ وحدنا ... وما تكتنا ، ولكن وثقتنا عرى
ومن دمانا سقينا الارض فامتزجت ... امشاجنا ودمانا ماءها وثرى
والعرش وحدتنا الكبرى، وما احتضنت ... الا الولاء تهادت طيبه البشرا
وانت يا حسن الشعب وحدته ... ومنك ترتقب الصحراء الجدى العطرا
فاحضن امانيها اللاتي بك ازدهرت ... وحن بنيها ، وعهدا منهم صدرا
فانت يا حسن آمال امتهم ... وفي حماك استطابوا العيش مهتصرا

* * *

فان تغنيت نشوانا بما حفلت ... به دناك ورددت الثنا سكرا
فقد سما بك جد كنت بانيه ... وتوجتك التي نالت بك الظفرا
فاسلم لشعبك ، يا مولاي ، ان له ... في ظل عهدك اسمى ما به انتصرا

فاس ـ عبد الكريم التواتي



للأستاذ حسن السائح

ليست الكلمة الادبية الا اداة للتعبير عن الفكرة ، تحمل طاقة عقلية ونفسية أيضا ، وكلما كانت صادقة منبعثة عن ايمان ووعي ، كانت حافزة على تاريث الحماس وايقاد الوعي وتاريخ الوضع بصدق وامانة.. تغزو القلوب فتحرك العواطف وتثير العقول فتبين الحجة ، وبذلك تحرك في النفس عوامل النضال الشريف لتحقيق الحرية والتحرر والدخول للتاريخ من بابه الواسع .

ولهذا فالادباء والشعراء والكتاب والفنانون كانوا روادا لحركتنا التحررية المغربية في مطلع هذا القرن ، فهم الذين اعلنوا الخطر الذي دق ناقوسه قبل بداية القرن العشرين ، ودعوا الى التعبئة النفسية والفكرية لمقاومة خصوم المغرب العربي المسلم ، والهبوا حماس المواطنين اجمعين لمواجهة خطر معركة الشرق والغرب ، ليكون العالم العربي متماسك الاطراف ، كما كان ادباء المغرب يحملون عبء الامانة ويقاومون ما وسعتهم المقاومة .. فانذروا الامة بما يحاك لها في الظلام من مؤامرات المستعمرين ، حتى اذا داهم الخطب كان اغلبهم في طليعة المعركة يدعو للمقاومة المسلحة والحرب المستمرة التي لا تحفل بمراحل انتصارات الخصوم ... واذا فان الادب المغربي ظل حيا مؤمنا برسالته ، وظل قويا يحقق الاهداف الانسانية المثلى ، مخلصا للمواطنين لا يستميت الا في الدفاع عن العقيدة والخير والجمال ، كما ظل في المعركة يلهب القلوب لتسيل دماء الاحرار وتخضب ارض الوطن العزيز ! فاذا كان لا يوجد في بلادنا شبر لم ترو تربته دماء الاحرار فلان امجاده سجلتها ملحمة الشاعر المغوار فتعانق السيف واليراع ، واللسان والسنان ، في كل معاركنا ضد الاستعمار .. لقد كان ادبنا جزءا من أدب الامة العربية المسلمة ، ولكنه ادب له ذاتيته ، وطابعه الخاص وهو مهما يكن جزءا من الادب العربي فمن السهل ان نتعرف على ملامح شخصيته ..

والواقع ان الادب العربي ادب امة واحدة ، يتشابه في المقومات والاسلوب وبواعث الانتاج ولكنه يتأقلم في كل بيئة حسب معطياتها وذاتيتها ، شأنه شأن الفنون الاخرى التي مهما تتشابه فانها تتفارق افتراق التكامل ، فاختلاف الملامح هو اساس الوحدة الادبية في الامة العربية لانه اختلاف التكامل لا غير .

وبما أن المغرب العربي كانت حركته الادبية من اقوى آداب بلاد افريقيا لانه كان مركز التقاط الاشعة المتوهجة المنبعثة من الشرق والغرب كما كان مركز ارسال الى افريقيا الجنوبية والاندلس العربية ، فقد تبلورت فيه الثقافة العربية الاسلامية حتى اصبح بحق مركزا مهما من مراكزها ، ولعل هذا يرجع لعاملين اثنين (الاول) صلة الجنس والدم بين سكان المغرب وسكان البلاد العربية الاخرى (الثاني) اعتزاز المغربي بعروبته نتيجة البعد الجغرافي عن البلد الام ، والام التي تنأى عن مهدها الاول يقوى حديثها عليه وحنينها اليه (والثالث) تمسكه بالقيم الاسلامية التي خلدها القرآن العربي ، ويخيل الي اننا كلما تساهلنا في تحديد الوحدة الادبية الا كان الادب المغربي جزءا من ادب البلاد العربية الاخرى لا نجد لذلك فرقا واضحا ، كما اننا كلما حاولنا أن نضيق المفاهم والتحديدات الا وكان الادب المغربي له ذاتيته المتكاملة مع الآداب العربية الاخرى ، وقد يعسر ان نضيق هذه التحديدات اذا نظرنا الى الادب الاندلسي على انه ادب مستقل عن الادب المغربي فالاندلس لم تكن بآدابها الا جزءا من الادب المغربي عندما يتوحد الحكم فيجتمعان وعندما

تنشب الخلافات بين الامراء فتتجزء الاندلس الى اجزاء قد تصل الى طوائف متعددة ويبقى الادب اكمل عامل الوحدة والائتلاف بل تظل الوحدة الادبية قوية في الاندلس والمغرب عندما تفرق السياسة والاهواء والاقطاعية بينهما ! وانا ما كان فاتنا نستطيع في كثير من اليسر ان نتفق على دقائق الوحدة الادبية والثقافية بين الاداب المغربية والاندلسية ولا يشق علينا ان تستجلي هذه الوحدة في باقي الميادين الحيوية الاخرى من اقتصاد وفن وغيرهما .

واذا كانت التطورات السياسية البعيدة المدى في البلاد العربية والاسلامية اثرت على الادب العربي كله ، فان الادب المغربي تاثر بها الى حد بعيد واثر فيها ايضا . واذا حاولنا نقد ادبنا في الحقبة الاخيرة من تاريخنا الادبي فان المراحل السياسية كانت أعظم مؤثر في انتاج أدب القرن العشرين وما قبله بقليل ، ومن السهل لنفهم الموضوع ان نقسم ادب هذه الحقبة اعني ادب القرن العشرين وما قبله بقليل الى ثلاث مراحل (ادب مرحلة ما قبل الاستعمار) و (ادب مرحلة الاستعمار و (أدب الاستقلال) كان الادب المغربي في المرحلة الاولى مرهفا شديد الحساسية يتطلع الى ايديولوجية وطنية ويعبر في صدق وتلهف عما يختلج في قلوب المواطنين من آلام وآمال وخوف من الارهاصات المتوالية التي تسبق العاصفة . بل كان كالام المستغيثة التي توشك ان تلتهم النيران وحيدها . فلم يكن ادب نضال ، ولكنه كان ادب قلق وحيرة واحساس .. فقد راى الشاعر تساقط المدن المغربية امام جحافل معاندين اقوياء وشاهد تكالب المتهزين على محالفة اعداء البلاد . وكان التجربة التاريخية القاسية من عوامل الفزع بل توحي باستسلام فلم يكن المغرب يجابه لاول مرة قوة عدوه بل انه كان في امتداد معركة تاريخية ضد حركة التعصب التي بدات في الاندلس ، ثم انقضت على الشاطيء المغربي فروعت الآمنين . وساندها الطغاة في العالم الظالم والغريب ان ادب هذه الحقبة كان التزاما يشايع المعركة فلم تتلهى لهاة الشعراء في الغالب بعواطف رومانتيكية بل كانوا السنة نضال تساند اسنة القتال . كانوا شعراء وكتاب داعين الى وحدة الراي ومقاومة المستعمر وكانت النكبات التي تتوالى على البلاد الاسلامية منبعا تفجرت عنه عبقرية الادباء والكتاب والشعراء فانطلقوا جميعا من بين صفوف الشعب يهتفون في طليعة بحياة العزة والكرامة ويمزقون الفاف التاخر ويحطمون كل ما يحول دون التحرر والانطلاق ، ولم يكن الكتاب والشعراء الا جماعة من رواد الاصلاح يلتفون حول زعماء اليقظة الفكرية الذين جسموا ما اصاب البلاد من ضعف وانحلال وما يسودها من فرقة وتخاذل وفقدان وعي . فكان ادب هذه الحقبة تصويرا لهذا المجتمع وتعبيرا عن هذه الحركة الاصلاحية ، كما كان ثورة عارمة ضد الضعف والاستكانة والتخاذل . بل نستطيع القول غير متهيبين ان الوطنية المغربية انشاها ادب هذه الحقبة .

وامام المكيدة والدس والمؤامرة والخداع والسلاح العتيد استسلم الشعب المغربي امام قوة اعدائه فظل الادب يومئذ الجذوة الملتهبة يورث الحماس ويقوي الوعي القومي ، ويلهب الشعور ، اداة تعبيره اللغة العربية الفصحى تارة وباللغة العامة الشعبية تارة اخرى ، وكانت الطبقة المثقفة تستعمل لغة القرآن ذات التاثير والفهم التلقائي بينما كانت الطبقة الامية تستعمل تعبيرا دارجيا في موضوعاتها ، فكانت تصور وتعبر بصدق وبلغة فنية رقيقة . لان لغتها كانت سهلة ولم تكن معجمية . وانما هي مقدودة من الوقع ينتزعها من معركة الحياة وينحتها في صميم الميدان ، ثم ينسجها في كلماته التعبيرية الصادقة .

واذا كانت مزية الادب الكلاسيكي المغربي في احياء مجد العروبة واقرار الايمان بها والعمل على انضاج الوعي الوطني فان مزية الادب الشعبي كانت صدق التصوير وعمق التعبير عن الالم وقوة الصلة بينه وبين حوادث بيئته ومجتمعه ولعل الخصائص الاولى التي تميز ادب القرن العشرين في المغرب هي ان هذا الادب اصبح حضريا ، وتركز في اهم عواصم المغرب كفاس ومكناس والرباط ومراكش بعد ان انهارت المراكز العلمية التي كانت تزاحم هذه المدن ، غير ان هذا لم يمنع من ازدهار ادب عربي في شنجيط وفي بلاد السوس الاقصى ، وان كان انتاجا قد تحجر في اسلوب معجمي ينقص بعضه الطبع والسليقة باستثناء شعراء كبار كالتمسارتي والمرغيثي والتركزي مثلا .

كما أن من خصائص ادب هذه الحقبة شدة ترقبه لادب البلاد الشرقية وثقافتها حتى اصبح من الضروري ان يستكمل الاديب ثقافته واطلاعه في بلاد الشرق كما فعل محمد ابن الطيب العلمي الذي كان أول قصاص مغربي ، واحمد الهلالي ، والشاعر التركزي الذي زار الاستانة وانشد قصائده في مؤتمر المستشرقين في السويد ، وتاثر هؤلاء بالادباء الذين سبقوهم كالعياشي واليوسي واحمد ابن ناصر ، كما امتاز ادب هذه الحقبة

بالتزامه الادبي ونشاطه السياسي وتاثر بالنزعة الشعرية الجاهلية . وساعدتهم المناصب على التخصص فى الميدان الادبي . وقد كان الملوك المتاخرون قبل عصر الحماية يختارون السفارة والوزارة والكتابة ادباء البلاد وشعراءها ، من هؤلاء السفير الزياني والوزير ابن ادريس والاديب غريط والشاعر ابن الموار ويرى المستشرق ليفي برفنصال ان الحركة الادبية فى العهد العلوي كانت محصورة على وجه التقريب فى دائرة الكتاب المخزنيين اذ الواقع ان بجانب هؤلاء الموظفين الادباء كثير من الشعراء والكتاب الذين ابتعدوا عن الحكم .. والمهم ان هذا الادب حلق فى الرومانطيقية التي تخلقها الوطنية والحنين الى مسقط الراس ومرابع الصبا . ولذلك لا تكاد تجد شاعرا الا وفى نفحات شعره هذه الظاهرة الصادقة .

وقد نبغ مآت الشعراء فى القرن التاسع عشر فى فن التعبير عن الوطنيات وتصوير آلام الشعب المقاوم ، ودحض آراء الاستعماريين وانصارهم ومن نماذج هؤلاء عبد السلام القادري وابن ريحة الريفي وعبد السلام بن حمدون جسوس . وكتاب نشر المثاني لمحمد القادري مادة خصبة لانتاج هؤلاء الشعراء وادبهم الوطني .

ولقد كان هؤلاء رواد الحركةالادبية التي ازدهرت فيما بعد على يد الشاعر السليماني وغريط والقري وابو جندار وعبد الله القباج وابن اليمني الناصري وحجي وغيرهم ثم جاء رعيل آخر قاد مشعل الشعر القديم تحدث عنهم كثيرا الاستاذ عبد الله كنون فى كتابه عن ادب المغرب المعاصر .. وقد تاثر هؤلاء بسلفهم اذ ان شعراء القرن التاسع عشر فى المغرب نهجوا نهجا قويما .

وحاول شعراء هذا العصر ان يجدوا لانفسهم طريقة تعبيرية جديدة ولذلك يقول محمد بن العربي الشرقي وهو من رواد الشعر فى اوائل القرن العشرين (ان اسم الشاعر لا يطلق الا على من وقف فى حرم المعاني بكل المشاعر ، اما من سلك طريقة واحدة ، فآراؤه فاسدة ، وبناؤه على غير قاعدة) .
واحتفظت آخر جالية من الموريسكو الاندلسيين التى استوطنت الرباط على طرائف ادب اجدادها فواصلت بعناية بالادب على الطريقة الاندلسية المهتمة بالمحتوى الانيق والمعنى الرشيق المعرب عن الم الذكرى ومرارة الفراق ولم تنس عندما تآمر المستعمرون على بلادنا ان توقظ الذكريات المريرة يوم غادروا فردوسهم المفقود بعد ان نكلت بهم محاكم التفتيش فكان ادبهم يتصل اتصالا وثيقا بادب اجدادهم كما كان حافزا على ربط الحاضر بالماضي . وقد شغف معظمهم بمعارضة فحول الشعراء الاندلسيين وذكروا من هؤلاء الشاعر بسير الرباطي وابن عمرو ، والشكلنطي وفى كتاب الاغتباط لابي جندار ومقدمة سوق المهر تراجم وافية وقطع شعرية لمعظم هؤلاء الادباء الذين امتاز انتاجهم بعمق الاحساس وصدق التعبير وجمال الاداء اما عن انتاج عهد الحجر والحماية فقد كان عهدها بغيضا صودرت فيه حركة الادب واكرهت الالسنة على الصمت ولكنها تكلمت ملتهبة صادقة فكان ادبها معبرا عن الم مكبوت وشعور فيه زفرة شعب مسلوب الحرية متالم بالحديد والنار ، كما كان ملحمة دامية تصور قسوة الاستعمار والحسرة على الاستقلال والتلهف على الحرية ، وخاض هذا الادب جميع الفنون وعبر عن عواطفه بمختلف ادوات التعبير بالقصيدة والملحمة والمسرحية والملهاة والماساة والادب الصحاف والادب الاذاعى . ومن ابرز شعراء هذه الحقبة المختار السوسي ، والقرى ، والبلغيثي .

وسار بجانب هذا الادب الفصيح ادب عامي شعبي ، فكان ادبا قويا مشحونا بالمفاهيم الوطنية الجديدة المعبرة عن ادق خلجات الامة المنكوبة ، وكان هذا الادب الملحون يردد فى اغاني شعبية واهازيج وطنية كما كان بجانب هذا الانتاج المغربي الصميم ادب مغربي فى لغة فرنسية انتجه ادباء لم يحرموا الوطنية الصادقة ولكنهم حرموا الالسنة العربية الفصحة فجاء انتاجهم فرنسيا فى لغته عربيا فى فحواه ومضمونه . ومع الاسف فان حصيلة هذا الانتاج لن تدخل تاريخ الادب المغربي . ولو عن طريق الترجمة لان كل ترجمة تفسد الادب رواءه وقوة بيانه ، ومن ابرز هؤلاء الصفريوي . والشرايبي.. اما ادب الاستقلال فقد استقبل عهدا جديدا مليئا بالتجارب الانسانية وامس الحاجات الى ادب معبر عن تجربة هذا الجيل الجديد ليشعره بقيمة الادب ومسؤولية رجاله والاجيال الصاعدة فى آكد الحاجة الى تربية سليمة ونماذج مثالية بناءة فلذلك فهي محتاجة الى ادب ملتزم مبدئيا واخلاقيا. وتطلع ادباء يكرسون جهودهم للنضال والكفاح وللهدم والبناء هدم الاوهام العتيقة والتماثيل المزيفة وبناء المجتمع المغربي المثالي المتعطش الى المساواة والحرية والكرامة فى غير مسخ ولا تشويه . ومن ابرز هؤلاء الشعراء الحلوي — والجاي — والمداوي — وعبد الكريم بن ثابت .

الرباط — حسن السائح

من أخبار القرصنة والجهاد البحري :

الأسطول المغربي أيام العلويين

للأستاذ السيد محمد حجي

القرصنة والقرصان والقراصنة وما اليها كلمات دخيلة فى اللغة العربية ، اخذت من الكلمات الاعجمية Cours و Corsaire ، وكانت تعني تكليف ربان سفينة لمدة معينة من قبل الدولة التي ينتمي اليها بمهاجمة سفن الاعداء والاغارة على شواطئهم . وقد تميزت القرصنة بتحديد مدلولها هكذا عن اللصوصية البحرية او (La Piraterie) ، فى القرن السابع الهجري (14 الميلادي) عندما ادخلت العناصر الاولى لتقنين شؤون القتال فى البحر باحداث ما يعرف برسائل القصاص أو الثار « Lettres de Représaille » ورسائل التمييز او التكليف « Lettres de marque » فرسالة القصاص تأذن لربان السفينة أو للتاجر الذي اغتصبت بضاعته فى البحر أن يقتص بنفسه لنفسه فيأخذ قهرا من اية سفينة تنتمي لجنسية خصمه ، ما يساوي قيمة بضاعته الضائعة . ورسالة التمييز تسلم لرب السفينة (القرصان) كاذن قانوني لاعتراض سبيل سفن الدول المعادية ومهاجمتها فى مدة تتراوح بين ثلاثة اشهر وسنة . فاذا استرسل البحار فى عمله بعد انتهاء المدة المحددة له ، اعتبر من لصوص البحر . وطبقت عليه العقوبة المخصصة لهم وهي الشنق على اعواد سارية السفينة .

على انه كثيرا ما اختلطت ــ نظريا وعمليا ــ اعمال القرصنة واللصوصية البحرية .

وعن تاريخ القرصنة ، يذكر انها قديمة قدم اشتغال الانسان بالاتجار عبر البحار . وكما كان اللصوص وقطاع الطريق يهاجمون القوافل . كان القرصان يهاجمون السفن التجارية ، ما دام ليس هنالك قوة تضمن سلامة المسافرين فى البر والبحر . وربما كان الاغريق اقدم قراصنة الدنيا ، فقد اشتهروا باعتراض اساطيل الفينقيين المشهورين فى العصور القديمة بالاتجار مع شعوب البحر المتوسط ، حتى قال بعض المؤرخين (ان الاغريق كلهم لصوص بحر) . ومنذ منتصف القرن الثاني قبل الميلاد صار الفينقيون القرطاجنيون قراصنة البحر المتوسط يترصدون السفن الرومانية وينتهبونها انتقاما من غالبيهم ومذليهم وعانت روما من خطر القرصنة ما كان يهددها أحيانا بالمجاعة ، لاعتمادها على منتجات امبراطوريتها المترامية الاطراف . واستفحل امر القرصنة اكثر فى البحر المتوسط بعد انهيار الامبراطورية الرومانية اواخر القرن الخامس للميلاد . حيث انعدمت السلطة وراح الاقوياء يتسلطون على الضعفاء برا وبحرا .

واذا رجعت الى تاريخ العرب القدماء فانك لا تجد لهم نشاطا فى ميدان القرصنة ولو أن عرب اليمن خاصة خاضوا لاغراض تجارية خاضوا عباب البحر الاحمر والخليج والمحيط الهندي منذ ازمنة عريقة فى القدم ، والظاهر ان تلك البحار التي كانت طريق التجارة مع الشرقين الاقصى والاوسط ، عرفت هي بدورها عمليات السطو قديما من طرف قراصنة هنود وغيرهم ، ولو ان اقدم نص تحدث عن ذلك ــ فيما اعرف ــ لا يتعدى القرن السابع الهجري (13 م) فيما كتب الرحالة الايطالي (ماركو بولو) عن رحلته الشرقية. ولم تظهر الاساطيل العربية فى البحر المتوسط الا فى منتصف القرن الاول الهجري ، حيث شاركت فى حرب الفتوحات منذ خلافة عثمان . وبدات انتصاراتها فى معركة ذات السواري الشهيرة ، حينما اشتبكت نحو الف سفينة بيزنطية ومائتي سفينة عربية . وفتح الاسطول العربي اثر ذلك جزيرة قبرص وتوالت فتوحاته لجزر البحر المتوسط .

وقد استكثر الامويون فالعباسيون من السفن واسسوا دور صناعتها فى مصر وتونس وغيرهما من الاقطار التي امتد اليها سلطان المسلمين حتى اصبحوا سادة البحر المتوسط (ولم يعد للامم النصرانية قبل



وهي فركاطة ذات طبقتين عليا وسفلى في كل طبقة صفان من المدافع النحاسية وكانت هذه السفينة في الاصل لاهل العدوتين صنعوها من بقية أخشاب جامع حسان واضافوا لها اقامة من اخشاب دورهم فاخذها منهم السلطان سيدي محمد وكانت تسمى المعونة (وسفينة الكراكجية كما في تاريخ الضعيف) ولما كانت في صنعتها خشونة وجهها لجبل طارق فتولى الانجليز اصلاحها واعادوا صناعتها من جديد وسميت فركاطة وجاءت من احسن الامثلة حسبما تدل لذلك صورتها وعدد بحريتها 330 ومدافعها النحاسية 45 ورئيسها سلام الطرابلسي ٠

الاتحاف لابن زيدان ، الجزء الثالث ، صفحة 259 ٠

باساطيلهم بشيء من جوانبه) كما يقول ابن خلدون . وظل ظهور المسلمين في هذا البحر زهاء خمسة قرون كانت اساطيل المسيحية لا تقوم بالقرصنة فيه الا لواذا وفي غمرة من المخاطر . ثم دار الزمن دورته واصبح الروم يهاجمون شواطىء البلاد الاسلامية في الحروب الصليبية الشهيرة . وظلت الاساطيل المسيحية تصول في البحر المتوسط وتجول حتى قام في وجهها الاسطول التركي الجبار .

اما البحرية المغربية ، فلها — ضمن اطار البحرية الاسلامية — طابعها الخاص، انشأها المرابطون في شمال افريقيا والاندلس ، وتعهدها الموحدون وعنوا بامر توسيعها فبلغت اوجها ايام يعقوب المنصور الموحدي ، وهو الذي راسله صلاح الدين الايوبي اواخر القرن السادس الهجري (12 م) ليساعده بقطع من اسطوله ، يستعين بها في مدافعة الصليبيين ومنازلتهم في ثغور عكا وصور وطرابلس الشام . وتقول احدى الروايات ان المنصور استجاب لهذا الطلب وامد صلاح الدين بـ 180 سفينة حربية كان لها الفضل في منع النصارى من سواحل الشام . ويستنتج ابن خلدون من هذه المراسلة اختصاص ملوك المغرب من بين سائر ملوك الاسلام يومئذ بالاساطيل الجهادية . غير ان انكسار الموحدين في معركة العقاب بالاندلس وما اصابهم من تنازع وخذلان ، ادى الى ضعف قواهم في البر والبحر ولم يستطع المرينيون ان يستعيدوا عظمة القوة البحرية ، فكان الاسطول المريني — بعد تجديده — في موقف الدفاع اكثر منه في موقف الهجوم . ولو ان المصادر القديمة لا تمدنا بتفاصيل لاعمال القراصنة المسيحيين وهجوماتهم على الشواطىء المغربية منذ اواخر القرن الهجري السابع (13) فاننا ندرك من مختلف الاحداث المتفرقة في الكتب المعاصرة ، ان القرصنة المسيحية — نشطت في تلك المدة على طول السواحل المغربية الامر الذي دفع المرينيين الى اقامة الربط والمحارس من آسفي حتى تونس . فكانت بمثابة مراكز دائمة للمراقبة ضد القراصنة المسيحيين الذين اعتادوا الهجوم على شواطىء بلادنا لسلب ما تصل اليه ايديهم وبخاصة اختطاف اطفال البدو ونسائهم ليبيعوهم ارقاء في اوربا .

كانت لهذه المحارس البحرية طريقة غريبة للاشعار السريع والاستنفار ، في كل محرس رجال مرتبون في ابراج لاستطلاع البحر ، فلا تبدو سفينة للعدو تقصد الشواطىء المغربية حتى يوقدوا النار في اعلى البرج فيراها البرج القريب ويوقد النار بدوره وهكذا فيتم الانذار بالخطر في ليلة او في بعضها في مسافة تسير فيها القوافل شهرين ، وبذلك يتأهب المجاهدون لمدافعة المهاجمين ، ولا يؤخذون على غرة.

وكان القرن التاسع (15 م) افظع القرون بالنسبة للبحرية المغربية ، فالاساطيل المرينية — بعد انحلال امر هذه الدولة — لم تعد قادرة على مهمة الدفاع لا عن المغرب ولا عن الاندلس ، فاخذت الثغور المغربية تسقط في يد البرتغاليين تباعا حتى لم يبق منفذ بيد المغاربة الا ثغر سلا ، وضيق الاسبان الخناق على مملكة غرناطة الضيقة ، فانتزعوا منها الثغور لقطع كل مدد خارجي قبل ان ينقضوا عليها ويوجهوا اليها الضربة القاضية .

وانطلاقا من ازمة القرن 15 برز الجهاد البحري المغربي وتطور الى ما عرف بحركة قراصنة سلا . ذلك ان هجرة الاندلسيين الذين فروا بدينهم او ارغموا على الخروج من ديارهم بطريقة او اخرى ، حطوا رحالهم — او طائفة مهمة منهم على الاصح — في سلا وتطوان، وعملوا مع البحارة المغاربة على الاستكثار من السفن والسلاح ، وراحوا يتعقبون اعداءهم الاسبان والبرتغال ويهاجمون شواطئهم وشجع هؤلاء ظهور البحارة او القراصنة الاتراك في مياه تونس والجزائر وبخاصة الاخوين عروج وخير الدين (بارب روس) الذين دفعتهما الغيرة الدينية الى انجاد الاندلسيين المستضعفين والانتقام من معذبيهم في عقر ديارهم وفي الثغور التي يحتلونها بهذه العدوة . واذا كنا لا نستطيع الدخول في تفاصيل الاحداث فاننا نشير الى ان حركة الاتراك هذه انتهت بطرد الاسبان من معظم ثغور الجزائر وتونس وليبيا ودخول هذه الاقطار في حكم الخلافة العثمانية .

اما حركة البحارة المغاربة والاندلسيين فيمكن القول بانها اجتازت ثلاث مراحل .

1) **المرحلة الاولى** — وتشمل بالتقريب القرن الهجري العاشر (16 م) — وهي مرحلة النشوء والنمو ، تكاثرت فيها سفن المجاهدين ، وتمرسوا على القتال في البحر ، ولم يعد عملهم قاصرا عن الاسبان والبرتغال بل راحوا يهاجمون غيرهم من المسيحيين ، انجليز وفرنسيين وهولانديين ، وصار الاوربيون يلقبون مجاهدينا (بالقراصنة) فلا يتحرج هؤلاء من ذلك ، وقد عرفنا ان القرصنة في الاصطلاح الدولي اذ ذاك كانت حربا بحرية مقننة وشائعة لدى المسلمين والمسيحيين على السواء .

ونظرا لقيام الدولة السعدية في هذه الفترة وانتشار نفوذها في ارجاء المغرب كله فان رجال البحر أو القراصنة كانوا خاضعين لنفوذ الدولة ومراقبتها . ولدينا وثائق عديدة تؤكد هذا . من ذلك المعاهدة الاولى التي ابرمت بين المغرب وانجلترا حوالي عام 983/1576 نصت على التزام محمد المتوكل السعدي الا يتعرض قرصان المغرب بسوء للسفن الانجليزية لقاء التزام اليزابيث نفس الشيء فيما يخص قرصان الانجليز اذا لقوا المغاربة — وتذكر هذه المعاهدة في الاخير اسم قائد الثغور المغربية المشرف على خطة الجهاد البحري من قبل السعديين وهو الباشا احمد بن علي بن عبد الله . وتذكر الوثائق المتعلقة بسفارة عبد الله عنوري الذي وجهه المنصور الذهبي الى بلاط عاهلة انجلترا عام 1008 هـ /1600 م انه حمل معه كهدية الى الملكة اسرى هولانديين وزيلانديين ممن غنمهم المجاهدون المغاربة في البحر ، وذلك اعتبارا لصداقة انجلترا آنذاك للبلاد الواطئة .

2) **المرحلة الثانية :** وهي مرحلة اكتمال حركة القرصنة في المغرب في عهد الاضطراب الطويل الذي اعقب وفاة احمد المنصور السعدي حتى توحيد البلاد على يد الرشيد بن الشريف العلوي (القرن 11 هـ او القرن 17 م) وفيه برز المجاهدون البحريون بمدن سلا (سلا والرباط والقصبة) واشتدت شوكتهم في حين انحلت السلطة المركزية بمراكش ولم تعد في اغلب الاحيان قادرة على القيام بشيء لا لهؤلاء المجاهدين ولا عليهم . فتكون ما عرف بجمهوريات ابي رقراق ، وهي عبارة عن حكم ذاتي يباشره ديوان منتخب . كانت السلطة العليا في هذه المنطقة في العقود الاولى من هذه الفترة بيد المجاهد امحمد العياشي ، وفي العقود الاخيرة بيد الدلائيين ، يمثلهم عبد الله بن محمد بن الحاج الدلائي . او امير سلا كما يدعوه الاوربيون . واذا بحثنا عن ميزة هؤلاء القراصنة السلاويين وسبب انتشار ذكرهم في آفاق اوربا ، وجدنا ذلك راجعا الى مركزهم الجغرافي الممتاز وعملهم وحدهم من بين سائر القوى الاسلامية في عرض المحيط الاطلنطقي الذي اصبح اذ ذاك يحتل الدرجة الاولى في المواصلات البحرية العالمية بعد اكتشاف امريكا وطريق الرجاء الصالح . لذلك كان خطر القرصنة السلوية اعظم من خطر الاسطول التركي على كثرة اجفانه وانتشار مراكزه في شواطىء تركية وليبيا وتونس والجزائر وبعض جزر البحر المتوسط ، لان ميدان نشاط الاتراك ظل محصورا في نطاق المتوسط الذي نزل الى المرتبة الثانية في طرق المواصلات الدولية .

وقد اتسع ميدان عمل المجاهدين المغاربة او قراصنة سلا فاجتازوا السواحل الانجليزية الايرلندية شمالا ووصلوا الى الشواطىء الاميركية غربا وهاجموا كل السفن المسيحية عدا سفن المعاهدين .

وكمثال للغنائم الكثيرة التي كان يحصل عليها هؤلاء القراصنة السلاويون نذكر انهم غنموا في ظرف عامين اربعين سفينة واستولوا فيها بين سنتي 1618 — 1626 على ستة آلاف اسير مسيحي و 15 مليون ليرة ...

3) وهي مرحلة ابتدأت بسيطرة المولى اسماعيل على اسطول الجهاد البحري فاصبح يتمتع بتأييد الدولة وعطفها ، وكثرت الاتصالات مع الدول الاوربية بقصد افتكاك الاسرى المسيحيين ، وابرام المعاهدات . **وما امر توسيع مباني مكناس بواسطة الاسرى الاوروبيين بسر ، ولا ما كتبه هؤلاء الاسرى ورجال الكنيسة الذين عملوا على افتكاكهم بخاف على احد** . على ان للاسطول المغربي طابعا خاصا ايام المولى محمد بن عبد الله الذي جدد تكوينه بعد فترة الاضطرابات العسكرية التي تلت وفاة المولى اسماعيل . وقد كان للمولى محمد بن عبد الله اهتمام بالغ بالاسطول البحري منذ كان نائبا عن والده بمراكش ، فاكرم وقادة رؤساء البحرية بالعدوتين وأمدهم بالمال والعتاد ، حتى اذا تسنم العرش انشا مصانع للسفن الحربية بمرسى العدوتين والعرائش . وقد عقد صاحب كتاب (اتحاف اعلام الناس) في الجزء الثالث (من ص 256 الى ص 265) فصلا لاهتمام المولى محمد بن عبد الله بالاساطيل البحرية واعتنائه برياسها ، اتى فيه على كثير من التفاصيل . ونقل عن تاريخ الضعيف المتخصص في تاريخ العلويين والمولى محمد بن عبد الله بصفة خاصة: « بلغ عنده رؤساء البحرية ستين كلها بمراكبها وبحريتها . وكان عدد مراكبه البحرية عشرون كبارا من المربع وثلاثين من الفلاكيط . وعدد عسكره البحري من المشارقة الف ، ومن المغاربة ثلاثة الاف ومن رماة المدفع اربعون ومن عسكر ارقاء العبيد خمسة عشر الفا ومن الاحرار سبعة الاف .

وقد بنى المولى محمد بن عبد الله في جملة ما انشا من السفن بمرسى سلا سفينة عظيمة ذات طابقين انفق عليها نحو اربعين قنطارا من الذهب في كل طبقة صفان من المدافع النحاسية بلغ مجموعها 54 مدفعا ، وعدد بحارتها 330 وأسند قيادتها للرئيس سالم الطرابلسي ..

الرباط — محمد حجي

يا أيها الحسن العظيم ...

للشاعر: محمد بن محمد العلمي

هذي مفاخرنا ، قيادتنا اسمعي … اصداء ما يبني المليك الألمعي

مالاح في الآفاق امر شائك … الا تفضل بالدواء الانجع

والجود والاحسان فيه جبلة … اعظم بأول محسن متبرع

افلا يحق بان يكون ولاؤنا … تلقائيا للقائد المتضلع :

علم واخلاق وحسن سياسة ، … ومهارة في كل امر مزمع

ودروسه كانت وما زالت لنا … نهجا يقود الى السبيل الانفع

نصغي بأفئدة رقاق خشع … لجواهر الملك الامام اللوذعي

(دار الحديث) لقد تفتح زهرها … وتضوعت نسماتها في الاربع

اكرم بتاج حفه نور السما … ء وبالعيون وبالقلوب مرصع

روح الامانة قد تجلت هاهنا … في مسجد او معهد او مصنع

والكل يعمل بالقريحة قائلا : … « روح المليك وصوته دوما معي . »

تلك المحبة اذ توحدنا به … حلت مع البشرى باشرف موضع

انا رضعنا الحب عذبا خالصا … للعرش من اوفى وارحم مرضع

يا حبذا عرش تولع بالعلا … اذ فاخر الدنيا بشعب مولع

* * *

في كل ركن من بلادي نهضة … تدعو الى العيش الكريم الممتع

ان المشاريع التي تسعى لها … ترضي الضمائر بالدليل المقنع

اوراشنا بسواعد مفتولة … شادت صروح نموذنا المتطلع

وبكل قلب طاقة فوارة ... وبلادنا للعزم أعزز منبع

خطوات تنمية البلاد وبعثها ... تدعو الى الاعجاب دون تصنع

والكنز في المجهود يكمن دائما ... اذ يحصد الخيرات من لم يزرع

ان الصواريخ التي تغزو الفضا ... تدعو الى الاسراع من لم يسرع

فالاقوياء على العوالم سادة ... والعاجزون مصيرهم للبلقع

في سد (توريباز) و (زيز) آية ... و (سبو) و (الكوس) و (امامة) مرتقى

طاقات انتاج البلاد بفضلها ... تنمو ، وتصبح دائما في المطلع

وسدودنا في كل صقع خيرها ... قد فاق كل الناتج المتوقع

(مليون هكتار) ستجني برها ... بسدودنا ، ولنحن اجدر من يعي

(قانون الاستثمار) جاءت قبله ... (عملية الحرث) التي لم تقطع

في كل ما يبني المليك مهارة ... بهرت فؤاد الجاحد المتطلع

ولقد توحد شعبنا بصفوفه ... خلف الامام بجهده المتجمع

سبحان من نظم الجواهر كلها ... في شخصه المتوهج المتورع

حتى تصير بلادنا في نعمة ... كالجنة الفيحاء ، اجمل مربع

ما خاب من ضحى ليهنا شعبه ... فالله في الحسنات غير مضيع

* * *

يا ايها التاريخ مهلا اننا ... دوما نسارع للمقام الارفع

تربو على الجوزاء همة عرشنا ... ولنحن ابناء المليك المبدع

(ايفني) لقد عادت، فيا مرحى لما ... بذل المليك من الجهاد الاروع !

وكذلك التاريخ يرجع نفسه ... متجددا بمناطق لم ترجع

ما خاب شعب بات يطلب حقه ، ... والويل يكتسح الدخيل المدعي

* * *

ما فاح ذكر مليكنا في مشهد ... الا وراق بعطره المتضوع

من دوحة النسب الشريف نجاره ... اعظم بها وبغصنها المتفرع

سبط الرسول احق بالمجد الذي ... برضاه للاحرار خير مشرع

في الشرق والغرب استبان بحكمة ... بهرت شعوبا في العوالم اجمع

والمغرب العربي يعمل دائما ... لبنائه في يقظة وتتبع

مرحى لوحدتنا . لتصبح معقلا ... ما كان فيه لغيرنا من مطمع

بالضاد والقرآن يجمع شملنا ... اكرم بدين الله من مستودع !

هلا توحدت القلوب ، فانما ... تبلى الشعوب بصفها المتوزع

والى العروبة ننتمي ، وكفى بها ... فخرا لنا ضمن الوجود الاوسع

وجراح أولى القبلتين جراحنا ... وبلاؤها فى قلبنا المتصدع

اذ لا حدود تصدنا عن اخوة ... فهمو هنا بين الحشا والاضلع

✻ ✻ ✻

عفوا اذا كان البيان يخونني ... ولو انني أوتيت علم (الأصمعي)

ماذا عساني ان اقول ، وقد طغى ... حبي على شعري فاسكر اجمعي ؟

يا ايها الحسن العظيم المرتضى ... ابشر ، فانك فى المقام الارفع

قد ثرت ضد تخلف وتقاعس ... فلأنت للانماء اصدق مرجع

بينت كل صغيرة وكبيرة ... فلأنت ينبوع البيان الطيع

سل فى المحافل والشعوب منابرا ... تنبئك عن نفس الخطيب المصقع

وبعثت فى الوطن الحبيب مطامحا ... جلى ؛ لكل مواطن متطوع

بوسائل شتى ، لقصد واحد ... اعظم بأروع وحدة وتنوع

لا ترتوي ؛ فالقلب دوما ظامىء : ... هات الشراب بكل كوب مترع

✻ ✻ ✻

مولاي عشت وعاش شعبك ناهضا ... جم المفاخر فى الجهات الاربع

وولي عهدك لاح بدرا ساطعا ... بين النجوم النيرات الطلع

الرباط ـ محمد بن محمد العلمي

الوزيران الصاحبان

ابن إدريس. واكنسوس

للأستاذ عبد القادر زمامة

... ان الكيان الثقافي ظل شامخ البنيان بفضل الرعاية التي كان محاطا بها من طرف الدولة وملوكها العظام ... الذين جعلوا من حملة الاقلام ، رجال تدبير. وحكم. وسياسة. وسفارة...

شاهد المغرب خلال القرن الثالث عشر الهجري نهضة عامة شملت سائر الميادين : الدينية ، والعلمية ، والادبية . وتمخضت هذه النهضة عن نتائج كان لها اعمق الاثر في المغرب الحديث ... على ان الاطار العام لهذه النهضة كان متجليا في ازدهار الحياة الادبية وكثرة العلماء ووفرة الشعراء والكتاب والمؤلفين في فنون المعرفة المختلفة ... ورغم الاحداث السياسية الكبرى التي شاهدها المغرب في هذا القرن بالذات وهي :

- معركة زيان
- ومعركة اسلي
- وحادثة تطوان

ورغم ظهور المطامع الاجنبية بوجه سافر .. فان الكيان الثقافي ظل شامخ البنيان بفضل الرعاية التي كان محاطا بها من طرف الدولة وملوكها العظام .. الذين جعلوا من حملة الاقلام : رجال تدبير ، وحكم ، وسياسة ، وسفارة ..

في هذه البيئة عاش الصاحبان الوزيران :

- ابن ادريس
- واكنسوس

وقد كانا مفخرة من مفاخر العلم ، والادب ، والنزاهة ، والاستقامة ، والاخلاص في العمل ... ولكل منهما آثار ادبية قيمة جديرة بالدرس والتحليل ..

وسنرسم لكل منهما صورة مصغرة باعتبارهما من وزراء الدولة ومن افذاذ رجالها ..

- فابو عبد الله اكنسوس عرف نور هذه الحياة في احدى القرى السوسية في الجنوب سنة 1213 هـ وفي تلك البيئة الشهيرة بالاستقامة ، والذكاء ، نشأ نشأته الاولى . وتلقى ما كان يتلقى امثاله من ثقافة ، وتربية ، واخلاق ، الى ان شب ، فارتحل الى مدينة فاس ليشرب من حياض دروسها وليأخذ العلم عن اساتذتها ... وفاس في ذلك العصر جمعت اعلام الثقافة الاسلامية الذين كانوا مستظلين بظل المولى سليمان ومكونين معه مجمعا علميا نادر المثال .

وفي حلقات دروس القرويين اتصل الشاب السوسي برفيق حياته وصديق شبابه .. ابي عبد الله ابن ادريس فتعاونا واشتركا في طلب العلم ، والادب ، حتى نال كل منهما رغائبه المنشودة ، واصبح صاحب قلم ، وفكر ، وشهرة ، ومنصب ... ولعل هذه الصداقة المبكرة هي التي طبعت كلا منهما بطابع خاص ، من بين الطلبة الذين كانت تعج حلقات

الدروس بهم ؛ وهذا الطابع هو الطابع الادبي ، الذى ظهر به كل واحد منهما .. فقد ملك عليهما الشعر والترسل طريقهما .. فتزودا من النحو واللغة والصرف والعروض والتاريخ بزاد وافر لم يحظ به غيرهما من الطلبة الذين شاركوهما مجالس العلماء .

ويروي اكنسوس فى كتابه القيم : « الجيش العرمرم » ذكريات شيقة عن حياته فى فاس أيام طلب العلم .. وعن صديقه ابن ادريس بنوع خاص..

وقد اعجب اكنسوس بفاس واتخذها دار مقام وسكن ؛ يتمتع فيها الى جانب صديقه ابن ادريس بالاشتراك فى الحياة الثقافية ، ومجالس المناظرات ، والمحاورات ، والمناسبات التى يتبارى الشعراء فى عرض انتاجهم فيها ...

وابو القاسم الزياني اذ ذاك فى اوج شهرته وجاهه .. فعرفه الصاحبان معرفة عميقة واستفادا كثيرا من احاديثه وكتبه وتجاربه .. ولكل منهما معه مواقف واخبار .. نعرف عنها الشيء الكثير ...!!

وجاءت الشهرة الادبية لترفع اكنسوس الى مقام الكتابة والوزارة فى دولة المولى سليمان .. بعد موت احمد البخاري سنة 1235 هـ وبعد معركة زيان التى خلفت مصاعب ومشاكل عويصة ..!

وفى ذلك الظرف العصيب الذى اجتازته البلاد طيلة اربع سنوات كان اكنسوس هو المتولي لشؤون الدولة باعتباره الساعد الايمن للمولى سليمان ...

ويسجل لنا فى كتابه « الجيش العرمرم » اخبار هذه الحقبة بقلمه السيال واسلوبه الرائق ومشاهداته وملاحظاته الدقيقة ..

وودع اكنسوس حياة الوزارة والمسؤولية بعد موت المولى سليمان سنة 1238 هـ .. ولكنه لم يودع حياة العلم ، والادب ، والنظم ، والتاليف ، والتفكير ..

ويشاء القدر ان يحتل منصب اكنسوس صديقه ابن ادريس .. فتالم لذلك واتهم الخصوم والوشاة والسعادة ..! وكاد يلحق بهم ابن ادريس نفسه ولكنه عاد فاستسلم للقضاء والقدر ... واحتفظ بمودة صديقه القديم .. وانتقل الى مراكش ليعيش فى خلوته بين كتبه واوراقه محتفظا بمكانته العلمية والادبية عاكفا على المطالعة وقراءة القرءان .. والورد التجاني ...

وقد نكب الوزير ابن ادريس وابعد عن منصبه سنوات لكن اكنسوس كان وفيا عفيفا مخلصا فى وده .. فلم يتشف .. ولم يظهر حقدا .. وانما تاسف واعتبر بصروف الحياة وملابساتها ومتناقضاتها ..

ومات الوزير ابن ادريس فسجل اكنسوس بسطور من الاسى والحزن موت هذا الصديق الذى ملأ الدنيا شعرا ونثرا .. وكان زينة الدنيا وفخر الدولة وركن السياسة .

وقد عاش اكنسوس بعد صديقه نحو الثلاثين سنة لم يفتا عن ذكره بكل اعجاب وتقدير .. وتوفي سنة 1294 .

وكتابه الجيش العرمرم اوفى تاريخ كتب للدولة العلوية وهو عنوان شخصية اكنسوس وما تمتاز به من دقة فى الاسلوب وسعة فى الاخبار ونصاعة فى اللغة ..

اما شعره فانه شعر الاديب المتمكن من فنه . ولا شك انه يكون ديوانا من الشعر الجيد الرصين .. مثل قوله :

فؤادي دعاه الحب من بعد كبوة
وما للهوى بعد المشيب وماليا

ولكن ادواء الهوى ان تمكنت
لواعجها لم تلف منهن شافيا

الا حي مغنى للحبيب وان نأى
وماذا على حب يحيي المغانيا

ونحن وقد حق الكتاب معاشر
رضينا الهوى فليقض ما كان قاضيا

ـ اما ابو عبد الله ابن ادريس فقد عرف نور الحياة فى فاس ونشا نشاة صالحة فى بيئة أسرة ينتمي افرادها الى الخير والنبل والفضل . وتربى تربية مثالية فى الحصانة والعفاف وكريم الاخلاق ... وعرفه الناس طالب علم وحافظ قرآن .. ومعلم اطفال .. وعرفه الاساتذ مجدا فى الطلب ، حريصا على الاستفادة والتعلق باذيال اهل العلم والادب ، وحضور مجالس الشيوخ ودروسهم الى جانب صديقه اكنسوس ..

وفى الطور الاول من حياته شاهد تلك النهضة العلمية الادبية التى كانت، تغذيها دولة المولى سليمان بالتقدير والتشجيع والاهتمام .. كما عرف شيوخ

الدولة ووزراءها وكتابها وشعراءها . واتصل اتصالا وثيقا بالوزير المؤرخ أبي القاسم الزياني ، حيث كان يسكن الى جوار منزله . ويجالسه ويستفيد من كتبه ومؤلفاته .

وفي هذا الصدد يحدثنا الزياني عن الوزير ابن ادريس في شبيبته ويذكر لنا انه اتخذ منه ناسخا لمؤلفاته التاريخية والادبية .. وقد دامت هذه العلاقة مدة طويلة الى ان تكدرت وانقطعت لاسباب شرحها الزياني .. ثم استؤنفت بعد تدخلات ووساطات ..!!

كما اتصل ابن ادريس بالشيخ حمدون ابن الحاج وهو اذ ذاك شاعر الدولة السليمانية واستاذ من اعيان اساتذتها ... وبواسطته وصل شعراء ابن ادريس الى المولى سليمان . ونال جائزته ..

وجاءت شهرة ابن ادريس لترفعه الى منصب الكتابة مع المولى عبد الرحمن يوم تولى الخلافة عن عمه في مدينة فاس .. وهناك تجلى نبوغه وذكاؤه كما تجلت استقامته واخلاصه في القيام بالواجب .

وتولى الوزارة للمولى عبد الرحمن بعد موت المولى سليمان سنة 1238 هـ. وقد حدثنا اكنسوس عن هذه الوزارة وقارنها بوزارة ابن العميد ، ولسان الدين ابن الخطيب ، والوزير المهلبي لما شاهده الجميع من طول باع هذا الوزير في السياسة والتدبير ...

وقد واجه ابن ادريس مشاكل عديدة داخلية وخارجية منها احتلال الجزائر .. ومشكلة الودايا .. وقضايا اخرى عويصة .. فكان له راي وتدبير وحزم وعزم وصبر على حل المشاكل بما يتطلبه الواجب ..

لكن الايام وملابساتها جرت ابن ادريس الى العزل بسبب قضية الودايا فابعد عن منصبه خمس سنوات ثم اعيد اليه بعدما ظهرت براءته من كل ما نسب اليه ..

ونحن مدينون لصديقه اكنسوس بتلك الاخبار التي احتفظ لنا بها وجمعها .. ولولا ذلك لضاعت اخبار هذا الوزير الشاعر الفذ ... كما ضاعت اخبار غيره ...!

وجادت قريحة ابن ادريس بعدة قصائد فيها الكثير من الجيد المتين الذي لا يقل جودة عن روائع الشريف الرضي والبحتري والمتنبي .. ولو طبع ديوانه لكان درة في تاج الادب المغربي بدون جدال .. ففيه من قصائد الحماسة ، والمدح ، والوصف ، والغزل ، والرثاء والحنين ، والشكوى ما يثلج الصدور ...

وسجل ابن ادريس في (كناشات) خاصة عددا من الاحداث والوقائع والذكريات تدل على اهتمامه ورغباته وافكاره وملاحظاته .. وقد استفدنا منها الشيء الكثير ..

وعاش ابن ادريس في وزارته الثانية يصارع الاحداث ويصبر على الشدائد ويخلص في العمل الى ان لحق بربه سنة 1264 هـ وترك فراغا كبيرا في المنصب والمقدرة التي كان يملكها ...!!

ومن شعره هذه الابيات التي يصف فيها حفلا نسويا اقامته نساء قبيلة زمور للموكب الرسمي في طريقه الى الرباط .. ابتهاجا وفرحا ..:

اظباء زمور سليتم مهجتي
بقنا القدود وصارم اللحظات

وهتكتم بالقهر حصن تنسكي
بجيوش حسن خريدة ومهاة

شنت علينا بالنواظر غارة
فأخذتم الالباب في الشارات

كفوا لحاظكم الكحيلة وارددوا
اسلاب الباب على المهجات

او لا ابيحوا للشفاه شفاءها
ولتستحلوا لثم ذي الوجنات

قالت : افي شرع الغرام تحكم
أرايت من حكم على الفتيات

نحن الملوك على الملوك وانما
احكامنا بالقهر والغلبات

الجور عدل : عندنا والظلم حـ
ـق بيننا والذنب كالحسنات.!

وموقف ابن ادريس في احتلال الجزائر موقف نبيل مشرف حيث تحمس لمساعدة المجاهدين ماديا وادبيا .. ونظم عدة قصائد .. وكتب عدة رسائل في الموضوع ...

وانه لدين على الثقافة المغربية ان تحيي التراث الادبي لهذين الوزيرين الصاحبين : ابن ادريس واكنسوس :

فاس — عبد القادر زمامه

إشراقة أولى من تاريخ الدولة العلوية

للدكتورة آمنة اللوه

ثلاثة قرون او تزيد ..
تلك حصيلة الزمان من عمر العرش العلوي المجيد ..
عقود مضت .. واخرى آتية .. والعروة الوثقى باذن الله باقية .

ينبع النخل

نبع ونخيل ..! تلك مقومات حياة لامة غيرت مجرى التاريخ القديم وقررت مصير دول وحضارات وديانات ..

ان العربي الذى اندفع بعقيدته الى الصين شرقا وما وراء البرانس غربا لم يكن الا ربيب هذه البيئة الاصيلة ، بيئة النبع والنخل .. فاعطى الدنيا فيضا من الصفاء .. ورق النخل العربي متساقطا رطبا جنيا على كل مكان وصل اليه الفاتح المسلم ..

وهنا ، فى المغرب ، وفى اقصى الجنوب منه ، تفجر النبع واخرج النخل طلعه النضيد ..

كان امتدادا لذلك الايمان الذى حمله الرعيل الاول من المسلمين وهم فى منطلقهم الى مجاهل الارض ينشرون العدل والسلام ..

كان المسرى من ينبع النخل فى الحجاز .. وكانت اللقيا بسجلماسة من ارض المغرب الاقصى ..

فكيف كان المسرى وكيف كان اللقاء ..؟

هنا تتدفق الذكريات لتغمر الحاضر بفيض من الحقائق ممزوجة بكرامات ..

ففى كل الاحداث الكبرى كرامات ولمسات من السماء ..

وفى كل عمل بطولي خيال مجنح وشيء من المعجزات .

انها هالات اعجاب واكبار تواكب الاحداث فتمتزج فيها الحقائق بالاساطير .. فكأن هذه الاهتزازات النفسية لا تجد انعكاسا الا فى خوارق العادة ترسلها هينة لينة تعبيرا منها عن اثر الاحداث فى اعماقها .. وقصة المسرى واللقيا من هذه الاحداث التى هزت الكيان المغربي .. بل هي ارهاصة من تلك الارهاصات التى تجدد الامم وتمنحها الخلود ..

وتصل الينا الاصداء عبر اخبار حفظها لنا التاريخ ، فلندع التاريخ يحكي :

حكاية تقول :

« ضنت سجلماسة بخيرها وشحت بثمارها على اهلها فذهب بعض قومها الى ارض الحجاز ، فاتوا برجل من اهل البيت تبركا وتيمنا .. فحقق الله الرجاء واصلح الثمار حتى عادت بلادهم هجر المغرب .. »

وحكاية اخرى تقول :

« لم يكن ببلاد سجلماسة احد من آل البيت الكريم فاجمع راي كبرائهم واعيانهم ان ياتوا بمن يتبركون به من آل ذلك النسب الشريف ، فقيل : ان الذهب يطلب من معدنه والياقوت يجلب من موطنه ، ان بلاد الحجاز هي مقر الاشراف . فذهبوا الى الحجاز .. وجاؤوا بالمولى الحسن .. فاشرقت شمس البيت النبوي على سجلماسة واضاءت ارجاؤها وظللتها من الشجرة الطيبة ظلالها وافياؤها .. »

وتمضي الروايات قائلة :

« ان اهل سجلماسة لما طلبوا من المولى قاسم بن محمد ان يبعث معهم احد اولاده .. وكان يومئذ اكبر شرفاء الحجاز ديانة ووجاهة اختبر من اولاده من يصلح لذلك ، وكان له على ما قيل ثمانية من الولد .. فكان يسأل الواحد منهم بعد الواحد ويقول له : من فعل معك الخير فما تفعل منه انت ؟ فيقول : الخير . ومن فعل معك الشر ؟ فيقول : الشر . فيقول له اجلس . الى ان انتهى الى المولى حسن الداخل فقال له كما قال لاخوته فقال : من فعل معي الشر افعل معه الخير . قال : فيعود ذلك بالشر ؟ قال : فاعود بالخير الى ان يغلب خيري على شره . فاستنار وجه المولى قاسم وداخلته اريحية هاشمية ودعا له بالبركة فيه وفي عقبه فاجاب الله دعوته .. »

وعن اقامته تقول حكاية اخرى :

« ولما استقر المولى حسن بسجلماسة واطمانت به الدار زوجه الشيخ ابو ابراهيم ابنته وسكن بموضع يقال له المصلح .. »

وهكذا تمضي الروايات تستقي من معين لا ينضب ..

وسواء اكانت كلها حقيقة ام بعضها ، فالصحيح ان الايام ابانت عن اصالة هذه الارومة وعن عبقريتها في صنع التاريخ المجيد ..

تلك قصة المسرى واللقاء .. وانه للقاء له ما بعده ...!

حسن الداخل

على مشارف الصحراء وقف وقفة التاريخ ..

نداء ازلي من سجلماسة دعاه لوعد صادق في الغيب مكنون ..

سعى من ينبع النخل كشعاع من نور ليغمر تافيلالت ثم انبثق من بين شعابها لينتظم الوطن كله .

ذلك هو حسن الداخل « الصالح الناسك العالم » جد الاسرة المالكة بالمغرب .

اطمانت بحسن الداخل سجلماسة فاب منها الى اهل وعشيرة .. وتعانق الشرق المسلم مع الغرب المسلم في ذريته وبنيه ..

وجاء ابناؤه من بعده ، فساروا على سيرته الطيبة وحملوا امانة الاصلاح باخلاص .. وادوا الرسالة فاحسنوا الاداء ..

فهذا حفيده المولى علي ، كان من الذين صدقوا الله .. فحملتهم وقدتهم الدينية الى بلاد الاندلس فاقام بها مجاهدا في سبيل الله .. وابلى البلاء الحسن .. وعى المسؤولية حق الوعي .. مسؤولية المومن الصادق الذي لا تثنيه حدود عن الجهاد في سبيل الله .. وكان وعيه هذا مما جعل اهل الاندلس يكاتبونه بالحاح ويتضرع لقبول بيعتهم بعدما عز المجير وشغرت بلادهم عن القائد الامين .. ولكنه ابى الملك ، عزوفا عن الدنيا وزهدا فيها ..

وتمر الايام وتمضي .. ويتعاقب على هذا العرش العلوي ملوك امجاد يتوارثون بذرة الصلاح والنسك والعلم — خصال ابيهم الجد — بجانب خصال الملك الذي اوتوه ..

سمات تتجلى فيهم واحدا بعد واحد حتى تبلغ في بعضهم حد القداسة .

محمد بن الشريف

في سكون الصحراء العميق وجلال الليل الرهيب .. اتخذ الامير محمد بن الشريف مكانه عند جذع

النخلة .. ورنا الى الافق البعيد .. وملأ مسمعه اصداء آتية من بعيد ..

ان اخبارا مريبة تتوارد على الاقليم وفي طيها احداث خطيرة تنذر بشر مستطير .. وان فتنة عارمة لتجتاح البلاد ..

واخذت الاحداث تمر امامه كالشريط :

بالامس انثلم مجد الاسلام بسقوط غرناطة ـ يا للجرح الفاغر الذي لا يندمل ـ فتقلص ظله عن ارض عاش بها ثمانية قرون او تزيد .. وان المحنة لم تنته بعد ، بل هي في امتداد .. فهذه مدن شواطىء المغرب تتساقط واحدة تلو اخرى :

العرائش ، طنجة ، المعمورة ، اصيلا ، البريجة ، سبتة ، مليلية كلها اليوم في حوزة الاعداء المتربصين .. فهل ستتكرر المأساة ..؟

والسعديون ـ يا للمجد الشامخ كيف هوى !

فمنذ وفاة المنصور والسعد فارق دولتهم .. ان ابناء زيدان ليتقاتلون على الملك .. ويصل بهم القتال الى حد استصراخ العدو .. ليعيدوا بذلك حكاية ملوك الطوائف .. واقتسم المغرب في ايام اولاد زيدان بن المنصور فكان حاله كحال الاندلس ايام طوائفها .. »

وضياع الزمام منهم .. ادى الى ظهور هذه الامارات المنبثة في جوانب شتى من البلاد .. امارات قامت على اساس الجهاد ودرء الخطر الاجنبي عن البلاد من جهة .. ويحارب بعضها بعضا من جهة اخرى ..

امارات تعددت وتكاثرت

ورؤوس فتنة اينعت في كل مكان

ومصير البلاد مهدد بل هو على جرف الانهيار ..

وانتفض الامير انتفاضة المحموم ..

وتنفس الفجر . ومع جلوة الفجر آيات اليقظة والانبعاث

ومع بشائر الصبح ، سيصدع بالحق قبل فوات الاوان ..!

منطلق الامير

الا بوركت الصحراء .. فما زالت مهدا للابطال ، ومتبنا للرجال الذين استرخصوا ارواحهم في سبيل الله فوهبوا وطنهم الخلود .

من لهيب رمضائها كانت الانطلاقات الكبرى التي كتبنا بها آيات الحضارة الانسانية في كل العهود ..

عهود تلو العهود .. والبدايات .. بداية الزحف المقدس من هناك والوية النصر عقدت على الدوام لابطال الصحراء ..

ومن هذه الصحراء الضاربة في الآماد كان منطلق الامير محمد بن الشريف. وكانت سجلماسة شجرة الرضوان .. ففيها تمت البيعة واستحكمت فكان المولى محمد اول ملك مفتتح للملك العلويين .. سنة 1050 هـ بداية هذا الملك العريض .

وسرى الخبر ترجعه الركبان ..

ولفح ذكر هذه البيعة البارقة في الجنوب امراء الطوائف فقالوا : ملك مشيد على الرمال .. ان هي الا اسطورة من تهاويل الخيال ..

وابتدأ الزحف الصحراوي الملتهب ..

الرشيد

اني لاقف مبهورة مأخوذة امام شخصية الرشيد ..

وقف في خضم الاحداث وقد تكالبت عليه عوامل الفتن ، داخلية وخارجية .. فاستطاع بدهائه وشخصيته ان يهزمها كلها .. ثم ينصرف بعد ذلك الى التشييد والبناء في ظرف لا يتعدى ست سنوات ..!

ست سنوات .. استقرت فيها قواعد الملك ، وتمهدت فيها امور الدولة .. ووضحت معالم الطريق .. طريق المجد الذى سار عليه بعد ذلك الملوك : اسماعيل العظيم ، وسيدي محمد بن عبد الله ، والمولى سليمان ، والمولى عبد الرحمن ، والحسن الاول ، وسيد الملوك محمد الخامس ، والحسن الثاني، العلق النفيس من هذه السلسلة الذهبية المباركة ..

استوعب الرشيد الموقف ، فقد كانت الاحداث تجري وجرياتها يصك الآذان .. فأخذ يهيء لليوم الموعود .

وابتدات الجولة ..

جولات استطلاعية وتمهيدية في مختلف اقاليم البلاد .. اختبر فيها الاوضاع .. وجس النبض ..

وادي به المطاف الى احواز تازا ، عند الشيخ ابي عبد الله اللواتي الذي اكرمه وانزله منزل التبجيل ..

وهناك ، وهو عند الشيخ مقيم ، تداعت الى سمعه انباء اقضت مضجعه .. هناك يهودي متطاول بجبروت المال والمتاع .. فاستباح الحمى واهان الدين وجعل اهله اذلة ..

انه ابن مشعل قد امر امره .

وراى الرشيد من امره ما راى .. وحققت الرؤية ما تهامس به الناس .. فقرر ، وقراره نافذ ، ان يقطع دابر هذا الطاغية مهما كان الثمن ..

وكان الرشيد عند وعده .

فقد تمكن من ابن مشعل ، فوضع حدا لذاك الاقطاعي المتمرد .. وجعل امواله لصالح المواطنين .. فانهارت بذلك قلعة من قلاع البغي .. وكان عمله هذا اول صيحة من صيحات الانتصار التي توالت بعد ذلك باستمرار ..

وكان لهذا الحدث الجري، اثره العميق في النفوس .. فالتفت قبائل بني يزناسن ـ مسرح هذه الاحداث ـ حول الامير المغوار .. وبعد الالتفاف والاكبار .. تمت البيعة العامة ..

فكان النصر وكان التمكين ..!

وواجه المواقف العصيبة التي كانت تضطرم بها البلاد .. فكان جذيلها المحكك .. وانطلق كالاعصار الهادر يقوض معاقل الفتنة وينسف حصون الثوار..

واتته البيعات يتري بعضها بعضا ..

وانحدرت امام زحفه فلول الشاغبين .. وتصدى للامارات فتساقطت امامه كأوراق الخريف ..

وتوالت الانتصارات :

« توجه الرشيد الى الريف فاستسلم له الرئيس ابو محمد اعراس بعد وقعات ..

فتح فاس واستقام امرها .. وفر اميرها ابو عبد الله الدريدي ..

قضى على الخضر غيلان وهزمه باصيلا ..

غزا احواز مكناسة وقضى على آيت واللال من البربر شيعة محمد الدلائي ..

مال الى تطاوين فقبض على رئيسها ابي العباس النقسيس .

غزا زاوية اهل الدلاء .. وانهزم الدلائيون ببطن الرمان بعازاز .. وقبض على ابي عبد الله الحاج، وطمس معالم الزاوية .

فتح مراكش وانهى قصة «الشبانات» بنهاية رئيسها ابي بكر بن عبد الكريم الشباني .

وانثنى بعد ذلك الى بلاد سوس فاستولى على تارودانت، وانضمت اليه امارة السملاليين .. »

« وتابع غزواته .. الى ان دانت له البلاد بالطاعة والولاء.. فعفا عن الناس وبسط على السكان جناح الرحمة واغدق عليهم من فضل الله .. فانتشر الامن .. وعم الرخاء ..

وهكذا، وفي ظرف وجيز ، استطاع ان يضع حدا للثورات استشرت ابان الفراغ الرهيب .. فاعاد للبلاد وحدتها واخضعها برمتها لسلطة مركزية واحدة .

والتفت بعد ذلك الى الخطر الرابض على الشواطيء ..

فكون من شراقة نواة الجيش المغربي .. وبدأ حملة الجهاد لاسترجاع طنجة وبقية المدن الاسيرة .

وانصرف بعد ذلك الى التشييد والبناء .. فاهتم ببناء القناطر والاسوار ، وتأسيس المدارس ، وحفر الآبار ، وسك النقود وتشجيع التجارة ..

وشغف بالعلم ، فكان مولعا بمجالسة العلماء متواضعا معهم .. وشهدت مجالس العلم بالقرويين حضور الرشيد . وقدر العلم حق التقدير .. ولا ادل على ذلك من السنة الحميدة التي كرم بها الطلبة وتركها في عقبه .. وسارت تقام كل سنة كمهرجان طلابي وكتقليد جامعي انفرد به المغرب .

يحتفل الطلبة بهذه السنة ، سنة « سلطان الطلبة » فيكونون دولة صغيرة طلابية بسلطانها ووزرائها وبكامل هيئتها لمدة معلومة تقدم اليهم خلالها الهدايا السنية .. ويتقابل سلطان البلاد مع سلطان الطلبة في محفل رسمي .. ويغدق عليهم النعم والمنح وينفذ رغبات سلطان الطلبة .

وعلا ذكر الرشيد ، وتضوعت مآثره . فقصده الناس من كل مكان ، وشد اليه اهل المشرق المطايا ..

حصيلة اعمال مذهلة .. تمت فى ستة اعوام ..!

فهو الصورة الواضحة لمؤسس الدولة العلوية المجيدة .. والنموذج الفذ الذى حذا حذوه الملوك بعد ذلك .

شيد ملكه على دعائم من الحق والعدل والدين .. فبارك الله فى ملكه ، وبقى واسخا رسوخ الرواسي الثابتات .. وجعل على كل فترة من فتراته ملكا مصلحا يجدد شباب الدولة ، ويصل حلقات امجادها ، ويعيدها سيرتها الاولى ..

ويتساءلون اليوم عن سر هذه المسحة الدينية العميقة المتجلية فى ملك لا يزال فى نضارة الشباب ، وقد عزت هذه المسحة عند الشباب ..؟

ويقبل بعضهم على بعض يتناجون عن هذه المجالس الدينية العلمية التى ذكر بها مجالس الاسلام فى عصوره الذهبية ..؟

هى البذرة الطيبة الصالحة التى انبتت الدوحة العلوية الشماء واستظل بظلها مغرب الامس واليوم والغد ..

واليوم ، والذكرى تقام ..

ذكرى وصل الحاضر بالماضى .. ذكرى اعتلاء الحسن الثاني عرش اسلافه الميامين .. اتطلع الى هذا العرش المكين .. فاجد فيه نفس المعاني التى وجدتها فيه وانا اتتبع ذكريات التاسيس الاولى ..

فهو بالنسبة الينا – معشر المغاربة – الرمز الخالد والضمانة الكبرى لوحدة هذه الامة واستقرارها . والحافظ الامين لكيانها ووجودها .

وكل ذكرى .. وجلالة الملك ترعاه افئدة الشعب وتكلاه عين الله التى لا تنام ..

الرباط – د. آمنة اللوه

في العرش يلمع ثانيا

للشاعر الحاج أحمد بن شقرون

رايتك يا مولاي لبني المعاليا   فجئت بشعر لم يزل بك شاديا

وما الشعر الا لولا همة ومجادة   وملك وعرش يستحث الدواعيا

وما الشعر الا حكمة وبراعة   تخط اثيل المجد اخلد باقيا

وما الشعر الا ترجمان عن الذى   يغالب فى هذا الزمان الدواهيا

وما الشعر الا صوغ كل تجلة   بيانا قويا او قريضا مناغيا

وما الشعر الا ما يجيش به الحجى   فينبع شؤبوبا من الفكر صافيا

وما الشعر الا مرمر من حصافة   ينم به النقش الجميل مباهيا

وما الشعر الا ذوب كل نحيزة   خيالا نضاريا وسيفا يمانيا

وما الشعر الا زهر كل مخلد   من العزم : فواحا مع الدهر ساريا

وما الشعر الا آس كل معطر   من الراي : متبوعا وللزند واريا

وما الشعر الا ملهب عزم جحفل   بمعمعة الفرسان يصرخ حاديا

وما الشعر الا ديدبان مدافع   عن «العهد» فى صدق يصاغ قوافيا

* * *

ومن قال : ان الشعر يعذب كاذبا   توارى عن الآداب ابعد نائيا

اليس هو الديوان : ديوان يعرب   يؤرخ امجادا ويشجب واهيا

الم تر «حسانا» ينافح بالذى   يحيد عن السوآى وبصدق حاميا ؟

وفى مسجد يعلو على منبر الهدى   ويسرد اشعارا تريح الخوافيا

الم ترنا فى عهد عاهلنا الرضى نحاول ــ رغم العجز ــ وصفا محاديا

مآثر متبوع تصاغ قصائدا فتخلد فى بطن السجل مجاليا

مآثر بناء مليك مظفر سما حسنا فى العرش يلمع ثانيا

ومن دوحة مغمورة بمباهج سلالة امجاد تسوق المعاليا

مشاعل آيات من المجد اشرقت على مغرب ــ بالنور اصبح حاليا

فمن عهد اسماعيل : عهد صيانة وامن ــ الى عهد الذى عاش هاديا

وكافح فى وجه الطغاة بعزمة ودافع بالحق الصراح مناديا

دعته فرنسا للحياد عن الذى يروم ؛ فخابت ؛ واستمر فداليا

وقال : اخاف الله ــ ذاك ابن يوسف اقام لدى المحراب شهما مناجيا

عن القصر امسى عازفا فى شهامة وفضل فى ذات الاله المنافيا

ومن ذا الذى ينسى تجاسر لحظة على ملك امسى عن القصر نائيا !

وليس له من ناصر فى بعاده سوى ولي للعهد يصحب راعيا

يشد به ازرا ويعقد عزمة ويغلب الاما ويقهر عاديا

فاعظم واكرم بالمليك محمد امام الهدى من كان بالله راضيا

واعظم بشبل خالقه عناية وغذي تهذيبا تخلق ساميا

وتوج تاجا للفخار فلم يزل يشرف عرشا فى المجرة راسيا

يسوس بعدل واقتدار وحكمة ويبدو على هام المحامد ثاويا

* * *

ففى عهده شيدت مساجد جمة واضحى مجال العلم بالعلم زاهيا

وجند فى «دار الحديث» لحفظه شبابا فجلى للمعارف واعيا

و«مصحفه» المرموق جاء مبرزة تروق لمن امسى من الناس تاليا

دروس ضريح سنة علوية اعادت لنا من كان للعلم راويا

ولكنها فى عهده قد تبلورت بدروس له لما يزل متساميا

وفى فتحه «الكتاب» للطفل حافز تنبه عن جافى واصبح ناسيا

* * *

لئن عجز التبيان عن وصف هالة ومأثرة فالعجز عذر بيانيا

دعوت الاهي ان يعم بحفظه مليكا ابي النفس فاق تساميا

وان يكلأ الشبل الامير محمدا سمو ولي العهد ابتغ ناميا

وان يحرس العقد النظيم وتاجه واسرته اصلا وفرعا مباهيا

فاس ــ الحاج احمد بن شقرون

نحن جنود العرش ...

لشاعر الوحدة : محمد الكبير العلوي

نعم ، نحن اولى ان نطول وتكبرا … ونعتز بالعرش المجيد ونفخرا

وحق لنا ان نبلغ الافق عزة … ونمشي الهوينا في البلاد تبخترا

وحق لهذا الشعب ان يبلغ السما … ويشمخ في عليائه متكبرا

وحق لنا ان نكبر العرش نعمة … فنحمد مولانا الحميد ونشكرا

وحق لنا مدح المليك امامنا … فقد كان احرى بالثناء واجدرا

وانا لاحرى ان نزف له الثنا … وننظم فيه الشعر مدحا ونثرا

تسامت به فوق البلاد بلادنا … وسارت به اسمى واعلى واشهرا

وطالت لتجتاز السماء سيادة … ومجدا وفضلا وارتفاعا ومفخرا

به شرفت اعوامنا وشهورنا … لتفوق السنين الخاليات والاشهرا

به اعتز هذا العصر وازدان وازدهى … ففاق القرون الماضيات والاعصرا

هو الحسن الثاني هو المنقذ الذي … سما المغرب الاقصى به وتحررا

اظلت اياديه وافياء عدله … وفجر من نعمائه ما تفجرا

وقد ثار حتى حرر الشعب غالبا … واحرز نصرا في الجهاد مؤزرا

واردى النفوذ الاجنبي وذاته … وحطم اغلال الغلاة وكسرا

اعاهلنا احرزت كل سيادة … وصرت لها دون الاكارم مصدرا

وجاوزت في العلياء جوزاء افقها … فاقصر عنها من سواك وقصرا

الى ما التسامي في المكارم بعدما … تجاوزت فيها الحد فردا مكبرا

الى اين تسمو بل الى اين تعتلي … وعن مجدك الامجاد تنحط والذرى

سموت الى ما لا نهاية فوقه … سموا وخلفت الملوك الى الورا

واحللت هذا الشعب ما كان يبتغي — رقيا ووعيا شاملا وتطورا
وحررته من كل قيد وربقة — وثرت وحققت الجلاء مظفرا
افاءت لنا آيات حكمك انجما — وفاض علينا فيض جودك ابحرا
ملكت قلوب الشعب يا خير عاهل — تملك حبا فى النفوس مسيطرا
اذا سرت سار الشعب خلفك مغرما — يتيه حماسا هاتفا متأثرا
ومهما تناد الشعب لباك مسرعا — يزيل وينفي الشك عمن تحيرا
هنالك يبدو حبه وولاؤه — ويعرب عن ايمانه بك مخبرا
امولاي اوضحت السبيل لمهتد — وارشدت نحو الحق من كان مبصرا
نشرت علوم الدين من بعد طيها — وجددت منها دارسا كان مقفرا
الى مكرمات لا يحاط بكنهها — تعاظم قدرا ان تحد وتحصرا
اذا ما اصيب الشعب يوما بنكبة — طبيعية او حادث او تضررا
راينا امير المومنين يحوطه — بعطف عظيم جل ان يتصورا
فبادر فى انقاذه متعجلا — وجاد عليه بالمواهب ممطرا
ولما راى جهل البلاد وفقرها — وحاجتها للجد جد وشمرا
اعد لها مما تحاذر مخرجا — وقد كان ادرى بالامور وابصرا
وهيا تصميما سينمي اقتصادها — وتنمية تنمو لتكسبها الثرا
وعمم تعليما وشيد معليا — مدارس تسمو فى العواصم والقرى
فما هو الا عاهل شرفت به — بنو المغرب الاقصى على امم الورى
وما هو الا عاهل العصر اشرقت — وضاءت بها الارجاء وانكشف المرا
وما هو الا المكرمات تجددت — وما هو الا النبل جاء مصورا
وما هو الا البحر فاض سماحه — وما هو الا الغوث والغيث امطرا
فلم يك الا للفضائل صورة — ولم يك الا للمكارم جوهرا
ولم يك الا للمقاصد كعبة — ولم يك الا للمحامد محورا
تناديه شتغبط وتهتف باسمه — مليكا حبيبا فى القلوب مؤمرا
ونحن جنود العرش نقسم باسمه — لننقذ ذاك الجزء ممن تجبرا
نحرر ذاك الجزء من قبضة العدى — ونقهر فيه الطاغي المتكبرا
نوحد اجزاء ونجمع مغربا — ونجبر من اعضائه ما تكسرا
ونقهر فيه المعتدي ونذله — ونخرجه منه طريدا مصغرا
ونطرده بالسلم طردا فان ابا — ارقنا الدم الحر الزكي المطهرا
نريق دماء فى الجنوب كريمة — ونرسل من ويلاتنا الويل الاكبرا

وترفع فيها للمليك بنودنا ... ترفرف اجلالا وتبهر مظهرا
ورايتنا الحمراء خفاقة على ... مناطقنا تسمو جلالا ومفخرا
ونحن اناس لا نريد توسعا ... ولا ندعي امرا بيطل ولا افترا
نذافع عن صحرائنا وجنوبنا ... وشنقيطا حتى تنال التحررا
وصحراؤنا حبلى باعظم ثورة ... تقيم على البر كان قيظا ومسعرا
بها كل شيطان مريد اذا دعا ... الى الحرب وافته الشياطين حضرا
بها كل مقدام على الحرب قاطع ... صبور كريم النفس لن يتأخرا
بها كل مرهوب المصال ملثم ... تعرفه صولاته ان تنكرا
بها كل مسود اللثام مقنع ... يمثل عزرائيل والموت الاحمرا
رجال يرون الموت بالعز عزة ... ولا يرتضون العيش بالذل ادهرا
اذا ما رضوا كانت خفافا طباعهم ... وان غضبوا كانوا اعز واوعرا
قد ارتبطوا بالعرش والتحموا به ... وكانوا له جيشا قويا مظفرا
امولاي آخيت العوالم ناشرا ... سلاما ووحدت العروبة معشرا
ووحدت في الاهداف والراي مغربا ... عظيما وقويت الاواصر والعرى
امولاي لو انى مدحتك مطنبا ... لجئت بما اطنبت فيك مقصرا
فاقررت بالعجز الذى انا اهله ... عساني فى ذاك القصور ان اعذرا
امولاي دم للعرب مفخرة ودم ... لعصرك نبراسا مضيئا نورا
امولاي دم للحق تبطل باطلا ... تؤيد معروفا وتنكر منكرا
ودومي لنا يا اسرة المجد والعلى ... ودم يا ولي العهد فينا معمرا
ودم ايها العرش المجيد معظما ... مكينا عظيما فى النفوس مقدرا
صلاة وتسليم على افضل الورى ... وآل هداة بعده ارشدوا الورى

محمد الكبير العلوي

أدباء من العصر العلوي

للأستاذ : محمد الأمري

هناك حقيقة لابد من ابرازها اولا ، وهي أن الدارس للادب المغربي يجد شيئا من الحرج في تطبيق التقسيمات المتعارفة للادب العربي على هذا الادب وعلى الادب الاندلسي كذلك مع فارق . وذلك حينما نواجه الحقائق التالية :

1) العوامل التي اطلق بسببها على عصر الانحطاط هذا الاسم لم تكن منطبقة تماما على الادب المغربي ، فهجمات المغول والتتر والاحتلال العثماني، ومناهضة اللغة العربية . واتخاذ التركية لغة رسمية بدلها ، كل ذلك لم يعرفه المغرب .

2) ان هذا العصر الذي يمتد حسب اصطلاح مؤرخي الادب العربي من احتلال هولاكو لبغداد سنة 1258 الى القرن الثامن عشر نجده من ازهر عصور الادب عندنا ، ذلك للدور الثقافي الهام الذي كانت تلعبه بعض الزوايا المنبثة في مختلف جهات المغرب على عهد السعديين والعلويين فيما بعد ، وبالنظر ايضا الى موجات الهجرة من الاندلس الى المغرب بعد سقوطها في يد الاسبان .

فالزاوية الدلائية، والزاوية الفاسية، والعياشية، والبكرية، وغيرها كلها كانت تعنى الى جانب الدراسات الدينية بالدراسات الادبية واللغوية ، بصرف النظر عن اهتمامها بتلقين بعض الاوراد وتلاوتها على طريقة من الطرق كالطريقة الشاذلية ، وغيرها . فرجال الزاوية الدلائية مثلا كانوا في اغلبهم من الادباء الذين لهم باع طويل في الشعر والنثر معا ، كما كان لهم اهتمام بالغ بتدريس كتب الادب كمقامات الحريري، والكامل للمبرد ، والامالي ، ومختلف الدواوين الشعرية . ولم يقل عن ذلك اهتمامهم بتدريس علوم اللغة ، وقد استفاد من هذه الزاوية خلق كثير انتشر في انحاء المغرب (1) ، يضاف الى ذلك الاشعاع الثقافي الذي كانت تقوم به جامعتا القرويين وابن يوسف ثم التشجيع الذي كان الطلبة والمثقفون يلاقونه من ملوك الدولة السعدية ، ثم الدولة العلوية منذ عهد المولى الرشيد .

3) العوامل التي يقدمها مؤرخو الادب العربي كارهاصات لعصر النهضة لا يراها دارس الادب المغربي تنطبق حذو النعل بالنعل على المغرب ، فالانتفاضات القومية التي يساق كمثال لها انتفاضة محمد بن عبد الوهاب بالحجاز في القرن الثامن عشر ، وقبلها انتفاضة فخر الدين المعني الثاني بلبنان ، وانتفاضة مصر على اثر حملة نابليون (1798 ـ 1799) وقيام محمد علي الكبير (1805 ـ 1848) لم يكن لذلك كله تاثير مباشر على النهضة الادبية بالمغرب في شكلها الحديث ، اذ ان تلك الانتفاضات قام بعدها ضد الاتراك ، والبعض الآخر ضد الغزو الفرنسي بالاضافة

---

(1) الزاوية الدلائية للاستاذ محمد حجي ص 75

الى ذلك ، ولم يكن بالمغرب احتلال تركي بالمرة ، بينما لم يقع بسط الحماية عليه من لدن فرنسا الا في سنة 1912 اي قرن ونيف بعد ذلك التاريخ الذي استهدفت فيه مصر للغزو الفرنسي ، ومع ذلك فاننا لا ننكر ان بعض تلك العوامل لم تكن لتخلو من صدى لها بالمغرب، كالاصلاح الديني ونبذ الخرافات، ومحاربة الشعوذة ، ومناهضة الطوائف الهدامة ، كما وقع في عهد السلطان مولاي سليمان العلوي. اما الشعور بالقومية، فقد ظهر هنا غير منفصل عن الشعور الديني اثر الحملات الاسبانية والبرتغالية والانجليزية على الشواطىء المغربية ، ولم تتميز معالمه القومية الا بعد الاحتلال الفرنسي والاسباني ، وان لم ينفصل هذا الشعور بتاتا عن الوازع الديني؛ على ان ميزة الاستقلال التي امتاز بها المغاربة من قديم عن الخلافة في الشرق ، سواء منها العباسية او العثمانية ، ان كانت لا تخلو من دوافع قومية بالنسبة للخلافة العثمانية فانها لم تكن لنفس الدوافع بالنسبة للخلافة العباسية .

وحقا ما ذهب اليه الاستاذ الكبير عبد الله كنون في محاضراته حول الادب المغربي الحديث من ان النهضة الادبية هنا تاخرت الى ما قبل نشوب الحرب العالمية بقليل (1)

4) لم تكن المعالم الادبية للمغرب قد اتضحت وتبلورت في تلك العصور التي ازدهر فيها الادب العربي بالمشرق والاندلس ، ولا نعدو الحقيقة اذا قلنا بان بدء اتضاح هذه المعالم لم يكن قبل العصر الموحدي، الا ان هذا لا يعني مطلقا خلو المغرب قبل ذلك من ادباء وشعراء ، سيما وقد كان للتدخل المرابطي بالاندلسي اثره في تردد العلماء والادباء بين العدوتين ، انما الذي نعنيه ان المغرب منذ العصرين الموحدي والمريني بحكم تكاثر موجات الهجرة من الاندلس ، واحتكاك المغاربة بالعناصر المهاجرة وتحمل عناصر اندلسية مختلف المسؤوليات في المغرب كالوزارة والقضاء والكتابة وغيرها ، كل ذلك كان له اثره القوي في وضوح الوضع الادبي ، وهو وضع لا نعدو الحقيقة اذا حكمنا بانه لم يكن الا امتدادا للوضع الادبي بالاندلس، حتى اذا حل عهد السعديين كان قد بلغ الذروة التي لم ينحرف عنها الا قليلا قبيل عصر النهضة ، ولا نتجاهل في هذا الصدد ان اكبر موجة للهجرة الاندلسية تمت على عهد الوطاسيين اي قبيل عصر السعديين ببضع سنوات ، وذلك بعد سقوط غرناطة آخر معقل اسلامي بالاندلس سنة 897 هـ - 1492 م .

وما ان تم للعلويين الاخذ بمقاليد البلاد حتى كان النشاط الادبي قد اسعت رقعته دون ان ينزل عن مستواه ، وقد ساعده على ذلك ما كانت تمارسه مختلف الزوايا من نشاط ثقافي على ما ألمعنا سابقا ، كما ساهم في ذلك بالنصيب الاوفر ما كانت تلاقيه شؤون الثقافة من تشجيع كبير من لدن ملوك الدولة العلوية ، وكمثال على ذلك نشير الى ما ذكره العلامة ابن زيدان في « الاتحاف » من ان السلطان سيدي محمد بن عبد الله وزع خزانة كتب المولى اسماعيل على مختلف المساجد المغربية « وكانت تزيد على الاثني عشر الف مجلد ، رجاء نفع عموم الناس، وسعيا وراء نشر العلم وتحصيله » (2)

ونخلص مما تقدم الى حقيقة واضحة وهي ان ازدهار الادب المغربي - غير الحديث طبعا - يقع معظمه فيما اصطلح على تسميته بعصر الانحطاط ، ولا يسع الباحث بعد ان يبذل بعض الجهد في البحث والتنقيب الا ان يعترف بذلك ، حيث يلتقي بادباء فطاحل غير قليلين ، برعوا في الشعر والنثر على الطريقة الاندلسية ، ولا اعتقد ان هناك اي واحد من المهتمين بالادب ينكر على اديب كابن الخطيب السلماني فحولته الادبية ، والواقع ان الكثيرين من ادبائنا المغاربة قد لا يقلون عن ابن الخطيب ، ولم يكن ينقصهم الا نفس العناية التي لاقاها هذا الاخير ، ليس في العصر الذي تلاه فحسب ولكن في العصر الحديث ايضا ، حيث لا يزال كثير من الباحثين المحدثين يتناولون حياته وآثاره بالدراسة والبحث .

وكان من حسن حظ ادبائنا المغمورين ان تصدى للكشف عنهم جماعة من الادباء المحدثين ياتي على راسهم الاستاذ عبد الله كنون الذي اثمرت جهوده المشكورة عن التعريف بطائفة هامة منهم في سلسلة « ذكريات مشاهير المغرب (3) » وقبل ذلك في

(1) طبعت تلك المحاضرات في كتاب يحمل اسم « احاديث عن الادب المغربي الحديث » صادر عن معهد الدراسات العربية التابع للجامعة العربية ص 9

(2) الاتحاف ج 3 ص 185 .

(3) منها «الوزير محمد بن ادريس» و«اكنسوس»

« النبوغ المغربي » والاستاذ محمد الفاسي الذي عرفنا بطائفة هامة منهم في مختلف المجلات المغربية ، واهتم اخيرا بالكشف عن ادب الرحلات فاصدر رحلة محمد ابن عثمان المكناسي المعروفة بـ « الاكسير في افتكاك الاسير » مع دراسة هامة عن حياته ونشاطه الثقافي والسياسي كوزير وسفير .

ولا ننسى في هذا الصدد مجهودات اساتذة آخرين ، الا ان المجال سيبقى فسيحا لمزيد من البحث والباحثين ، والتعريف والمعرفين .

وقد اخترنا اربعة ادباء فطاحل من بين ادباء العصر العلوي . هم : ابو العباس احمد الغزال ، وابو العباس احمد بن عثمان المكناسي ، ومحمد بن ادريس العمراوي . وابو عبد الله محمد بن احمد اكنسوس.

ابو العباس احمد الغزال :

ذكره صاحب سلوة الانفاس بما يلي : « الاديب الكاتب الفقيه السيد المهدي الغزال ، كان رحمه الله فقيها اديبا ، بل كان آخر ادباء الوقت ، بعثه السلطان سفيرا لجزيرة الاندلس مثل ابيه من قبله والف في سفره رحلة ذكر فيها عجائب تلك الارض ، وله غيرها من التاليف ، توفي رحمه الله سنة 1191 هـ ودفن بصحن الزاوية المذكورة (1) » وذكره صاحب الاتحاف من بين كتاب السلطان سيدي محمد بن عبد الله ، كما ذكره من بين شعرائه ، حيث سماه هكذا « ابو العباس احمد بن المهدي الغزال الحميري الاندلسي المالقي الفاسي السفير الكاتب المتوفي سنة 1191 هـ » ويذكر فصولا من رحلته التي سجلها عن سفارته لاسبانيا والمعروفة بـ « نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد » وذكره صاحب الاستقصا من الكتاب المعتبرين للسلطان محمد بن عبد الله ، كما ذكر معه احمد بن عثمان المكناسي . ولا نعلم شيئا عن تاريخ ولادة الغزال ، الا اننا نعلم انه من اقران ابي القاسم الزياني ، حيث ذكر هذا الاخير في الترجمانة الكبرى انه بعد رجوعه من الحجاز مع والده سال « عمن كان يالفه من الطلبة في القراءة والانس ، فوجد اكثرهم تعلق بخدمة السلطان سيدي محمد بنعبد الله » وذكر من بينهم صاحبنا الغزال ، واحمد بن عثمان المكناسي .

وحسب القصائد التي اوردها ابن زيدان في الاتحاف ، يبدو الغزال متمكنا من صناعة الشعر ، ومتمرسا به كل التمرس ، وموجها عنايته بصفة خاصة الى المدح الذي الزم نفسه فيه بضروب من الطرق التي استنبطها، مجهدا نفسه في ان ياتي كل سنة بجديد وعن ذلك يقول في الاتحاف « الى ان فتح عليه في طريق ما سلكها قبله ذو ذهن ثاقب ، ولا عبرها من سمت منه في الادب مناقب (2) » ومن ذلك ثلاث رسائل تحمل الاولى اسم « اليواقيت الادبية بجيد المملكة المحمدية » وتحمل الثانية اسم « الاطروحة الشطرنجية الانسية » اما الثالثة فوسمها بـ « نتيجة الفتح المستنبطة من سورة الفتح » وقد الزم نفسه في تلك الرسائل بضروب من التفنن والابتكار تلاعب فيها بالبحور والاوزان كما اهتم بذكر تواريخ اهم الاحداث في عهد السلطان محمد بن عبد الله عن طريق الرمز بالحروف . ومن ذلك قصيدة من بحر الوافر سماها « نزهة الملك المنصور ، في مستعذب وافر البحور »

(ر)حيب البذل بادي العدل مسدي
جزيل الفضل عن كرم وجود

(ف)ضائله الغزيرة ليس تحصى
ومن يحصي الجواهر بالعقود

واخرى دعاها « نزهة الامام الكامل في جواهر الكامل » ومنها :

(ب)حمى دمار المسلمين بعدله
وبسيف حق كف كف المعتدي

(د)امت صنائعه الجميلة في الورى
امد المدى امدادها لم ينفد

(ص)افي المشارب كوثري طعمه
في ورده نيل المنى والمقصد

وقد تعمد ان يفتح ابيات كل بحر بنفس الحروف التي وضع اولا في مربع وبديهي الا نفاجأ باستعمال الجناس وباقي المحسنات ، فقد كانت من مقومات الشعر على ذلك العهد ، وخلو القصيدة منها كان يعرض صاحبها الى ان يتهم بالقصور وعدم الالمام

(1) الزاوية الفاسية بالقلقليين بفاس . سلوة الانفاس ج 1 ص 331
(2) الاتحاف ج 3 ص 342

بالبلاغة . كما يرمي الكتاب بذلك اذا خلت كتابتهم ورسائلهم من السجع على ذلك العهد ايضا ، وليس على الناقد او المؤرخ الادبي ان يضيق صدره بظاهرة اسلوبية اعتبرت فى عصر من العصور من مقومات الاجـــادة .

ومما ورد فى الرسالة الثالثة قوله :

وابـى عــز وفــخــر
لمـن لـه الذكـر ذاكـر

تلـك الـسعـادة ممـن
حاز العلـى عـن اكابـر

فكـن امـــام المعـــالي
لانعـم اللـه شـاكـر

فقد بلغـت الأماني
وحزت اسمى الذخائـر

اما فى رسالته الثانية فيعتمد على سير قطعة الفرس فى لعبة الشطرنج حيث تتألف فصول اربعة يعتمد فى جمعها وتصنيفها على حروف ابيات وضعها فى مثمن ، وبدون شك فان الغزال الذى كان يتوفر على براعة فائقة فى هذه اللعبة ، حيث انتصر على احد كبراء الاسبان فيها كما حدثنا عن ذلك فى رحلته السفارية الآنفة الذكر ، حاول ان يقتبس منها هـذا الاسلوب فى وصف بعض الابيات الشعرية ، ولا ينسى ان يذكر ان طريقته تعتمد على اسرار الحروف وخواصها وان ذلك مما كان يعتمده ملوك العجم واليونان . وتبعهم فى ذلك العرب ، وعلي اي فان الطريقة التى نهجها الغزال تنبئ عن تمكنه من صناعة الشعر ، وتلاعبه بموازينه وبحوره ، واخضاعها لغرضه فى مدح ممدوحه ، وذكر تاريخ بيعته ، واسمه واسم ابيه وجده واخبار مملكته ، ولا نعدم اشياء من هـذا القبيل عند ابن زيدون والمعتمد بن عباد، وابن الخطيب، وابن زمرك، وقبل ذلك بديع الزمان الهمداني صاحب الرسائل المنقوطة الحروف وغير المنقوطة ، والابيات التى تقرا من اولها فتفيد معنى ، فاذا عكست افادت معنى آخر ، كما يبدو لنا تمرس الرجل بعمود الشعر فى قصيدته الطويلة النفس فى مدح السلطان المولى محمد بن عبد الله ، وفى هذه القصيدة نلاحظ اهتمام الشاعر باستقاء تشبيهاته من الطبيعة ، مما يؤكد ولوعه بها ومن ذلك قوله :

فبالك روضا من بكاء غمامه
تبسم من اثغار أكمامه الزهر

كأن به الادواح تهتز نضره
عرائس تزهو فوقها حلل خضر

كأن بها ورق الحمائم سجعا
قيان لها فى صوغ الحانها جهر

كأن ثغور الاقحوان مباسم
تسلسل من ظلم الرضاب بها خمر

كأن الشفاه اللعس منها شقائق
تناسق فيها تحت قانئها در

كأن احمرار الورد فى ريق الحيا
خدود غواني الغيد لاح بها بشر

كأن ذيول النرجس الغض عادة
لواحظ من اهواه ماج بها سحر

ويستمر على هذا النفس ليأتي بالمشبه به

خلال امير المومنيـن (محمـد)
اذا صيغ فيه المدح او نظم الشعر

ومما يزيد من قيمة هذه القصيدة ما تحفل به من معلومات تاريخية ووصف لمجد المغاربة على ذلك العهد وانتصاراتهم الباهرة على مختلف الدول الاجنبية الغازية ، وافتكاك بعض الثغور كقوله :

تزلزل اهل الشرك منها واذعنوا
وعم على آفاق اجناسهم قهر

وصاروا عبيدا من مهابة بأسها
ولم ينجهم فى الارض بر ولا بحر

يؤدون بالاذلال والهـون جزية
يقون بها الانفاس فهي لهـا عمر

وكقـولـه :

كما حاق بالمهدومة الخير جهرة
وحل بها من سوء افعالها خسر

تصدى لها فخر الملوك بغزوة
تزعزع منها الجو والبـر والبحـر

الى ان يقول :

فبالـك من عـز تكامل سعـده
وبالك من فتح به سمح الدهر

وفى عرضه لمناقب السلطان يقول :

وعادت رياض الفتح عابقة الشذا
تغرد من افنان ادواحهـا الطيـر

وشدت ذرا الآداب فاعتز اهله
وصار لهم فى كل شاسعة فخر

ابو العباس احمد بن الرضى بن عثمان المكناسي

كان من ابرز كتاب السلطان سيدي محمد بن عبد الله ، كما كان من بين العلماء الذين انتدبهم للقيام بتدريس العلم فى مساجد مراكش ، وصفه سليمان الحوات بالاديب البليغ الهمام ، وذكره الزياني من جملة (الحضرة السلطانية المحمدية) ووصفه بالمشاركة ، وقال عنه صاحب الاتحاف « نابغة زمانه، علامة مشارك، محدث نقاد ، فصيح ، بليغ ، ذو ملكة واقتدار ، ناظم ناثر الخ .. ثم يقول : « استكتبه السلطان الاعظم سيدي محمد بن عبد الله فى بساط ملكه ، وقدره قدره ، واسدل عليه اردية الاجلال والاكبار » وهو شخص آخر غير محمد ابن عثمان المكناسي صاحب الرحلات « احراز المعلى والرقيب » و « البدر السافر بهداية المسافر الخ » و « الاكسير فى فكاك الاسير » وهذا الاخير حققه الاستاذ محمد الفاسي وطبع على يده .

ولم اعثر بعد على تاريخ ولادته ولا تاريخ وفاته فيما اطلعت عليه من بعض المصادر التى تعرضت له ، غير اننا نعلم من خلال ما كتبه الزياني انه من قرنائه وقرناء الغزال الآنف الذكر ، الا ان صاحب الاتحاف (1) ذكر جملة من اساتذته هم : ابو حفص الفاسي المتوفي فى شهر رجب عام 1188 دفين زاويته بمخفية فاس ، والشيخ ابو عبد الله محمد التاودي بن سودة، وابو عبد الله محمد بن الحسن بناني المتوفي سنة 1194 .

شاعريته :

ومن خلال بعض القصائد التى ساقها له صاحب الاتحاف يتبين لنا مدى تمرس الرجل بالشعر ، ورقة حاشيته . ومن ذلك قوله فى التغزل :

واشنب أبدى الحسن فيه بدائعا
ازاهرها تجلى على غصن القد

ترى العود ان جسته منه أنامل
كغيداء قد تاهت فرقت فى الوجد

على انه مهما ترنم منشدا
اراك حلول الروح فى الجسد الصلد

فديتك بدرا فى سما الحسن كاملا
به بين ارباب النهى وريت زندي

وقوله فى الطبيعة :

لهفى على تلك العشايا التي
قضيتها تحت وريف الظلال

ما بين ازهار زهت بالرذا
ذ وبين ازهار جرت بالزلال

والورق فى الاوراق راقصة
وجامات الراح براح الغزال

قد اودعت فى خده لونها
واثرت رقتها فى الشمال

لا زلت فى سكر لواحظه
فكيف اقوى سكر بنت الدوال

وكلما رمت اقتطاف جنى
من وجنتيه رشقتني النبال

فان رجعت القهقري لدغت
عقارب الصدغين مني القذال

وان احم حول حمى نفره
تلسعني النحل ، فضاق المجال

من منقذي من اسر طلعته
من حاذري من حب بدر الكمال

رايه فى الشعر :

ذوو الدوق ان كانوا بروضهم مكثا
باجمعهم قالوا فجئت به بثا

اذا موهت اقلام ذي ادب فمن
خشونة طبع المرء يستعمل الحثا

وليس كلام الشاعرين بعمدة
يحث على تحقيقه ذو النهى حثا

مغالطة حينا وحينا خطابة
وحينا وحينا فهو لم يستدم مكثا

وقد عده اهل اللطافة وردة
تشم فان تضم تكسبها رثا

ويختم هذه القطعة ببيت لعله موجه الى احد المنتقدين لبعض قصائده وفيه هجو لاذع !

---

(1) الاتحاف ج 1 ص 354

وفي رثاء شيخه ابي حفص عمر الفاسي يقول من قصيدة طويلة :

الدمع يروي عن فؤاد الاكمد
بمسلسل وبمرسل وبمسند

فاجعل حديث الدمع عندك حجة
واطرح مقالة جاهل لم يرشد

وابك العلوم أصولها وفروعها
وابك الدروس ولا تكن كالجلمد

وابك السماحة والصباحة والفصا
حة والبراعة واليراعة تهتدي

عظم المصاب بفقد من ساد الألى
قد احرزوا رتب العلا والسؤدد

بحر المعارف والعوارف والهدى
كهف المريد السالك المسترشد

نور العلوم وتاجها وبهاؤها
وضياؤها قطب الشيوخ الرشد

عمر اخو التحقيق والتدقيق والتح
رير سبط العارفين الزهد

من معشر فوق السماك منارهم
شم الانوف من الطراز الجيد

وقال من قصيدة في مدح السلطان سيدي محمد بن عبد الله :

غرام لا يحيط به بيان
وشوق ليس يشرحه لسان

وقلب لا يزايله اضطراب
عظيم كيف يمسكه العنان

لحا الله المتيم لا يبالي
بما يلقى وان عظم الهوان

اطارحه الهوى آثار قوم
عليها الحصر يقصر والبيان

تقروا مسلكا صعبا تساوى
به البطل المسود والجبان

ولكن لو لناظرهم تبدى
سنا الملك المؤيد ما استكانوا

مليك في بسيط الحسن شدت
مناطقها لخلعته الحسان

وقبلهم رأينا الشمس تعنو
له وبدا لعمرك ما تهان

تقبل اخمصيه لدى شروق
وان غربت كما شهد العيان

وفي العتاب نعثر له على هذه الابيات الرقيقة :

اجبتنا حتى الحروف تحرمت
وحتى يراع السلم قد حارب الحبرا

فاصبح معمور الرسائل منكم
مهامه لا تنفك موحشة قفرا

وعذبتمونا بالجفا دون زلة
كأنا جنينا الود في دينكم وزرا

وخاطب شيخه ابا عبد الله محمد بن الحسن بناني قائلا :

ابدرا لاح بين الشهب بدرا
فنارت منه نيرة النفوس

وبحرا خاض بحر العلم حتى انـ
ـثنى بالجوهر الصدفي النفيس

الى ان يقول :

وبرد غلة الصادي باحلى
مذاقا من معتقة الكؤوس

بقيت لفك مشكل كل فن
ففتحك في المجالس والطروس

ولا تنفك بين الناس تاجا
ابا عبد الله على الرؤوس

ولا تزال في حياة هذا الاديب جوانب هامة تحتاج الى اضواء كاشفة توضح تاريخ ولادته وحياته وتاريخ وفاته ، وتآليفه التي لا نشك لحظة واحدة في انها هامة بالنظر الى قيمة الرجل العلمية والادبية .

وفي فرصة اخرى سنتعرض بحول الله للاديبين الوزير محمد بن ادريس العمراوي ، وابي عبد الله محمد بن احمد اكنسوس .

وزان ـ محمد الأمري



لا يعرف شيء يستحق الذكر عن حياة عبد الله ابن عائشة السلوي قبل ان يظهر زعيما للقرصنة البحرية بحوض ابي رقراق .

وقد ولد عبد الله بن عائشة في اواسط القرن السابع عشر الميلادي وزاول القرصنة شان كثير من القادمين من الاندلس والذين استقر بعضهم بالمدن الساحلية من المغرب .

وكان ابن عائشة يضايق السفن الفرنسية والانجليزية حيث يبتعد ببواخره في شواطىء المحيط الاطلسي متجها صوب المياه المجاورة لفرنسا وانجلترا، وفي سنة 1680 م، وقع اسيرا في قبضة باخرة انجليزية ، وكان قد اشتهر يومئذ كزعيم حقيقي لقراصنة سلا والرباط، وقد ظل في بريطانيا مدة ثلاث سنوات حتى اهتم بأمره جاك اخو شارل الثاني ملك بريطانيا وتدخل لاطلاق سراحه ، فحفظ ابن عائشة للاسرة الملكية هذه المنة سائر حياته .

وعندما اصبح جاك الثاني ملكا توجه ابن عائشة باسم السلطان « مولاي اسماعيل » الى انجلترا لتهنئته .

وكانت مشكلة العلاقات التجارية والاسرى الفرنسيين تشغل بال الحكومة الفرنسية التي كانت سفنها عرضة للحجز من طرف قراصنة المغرب ، وقد اجريت مفاوضات واتصالات كثيرة فيما قبل بين السعديين والبلاط الفرنسي بشأن الاسارى ، وتوبعت المفاوضات في عهد مولاي اسماعيل حيث رست سفن فرنسا عند حوض ابي رقراق تحاول محاصرة السفن المغربية ، وكان الاسطول الفرنسي بقيادة شاطو رونو الذي حصل على التو على عقد هدنة بين الطرفين في يوليوز 1681 ، واتبعت هذه المعاهدة بسفارة مغربية الى فرنسا يقودها الحاج محمد تميم سنة 1681 واخرى سنة 1685 ولم تؤديا معا الى نتيجة هامة .

وقطعت فرنسا والمغرب علاقاتهما التجارية مدة سنتين 1686 – 1688 ؛ وحضرت بعثة فرنسية الى المغرب سنة 1689 بقيادة بيدو « Pidou de Saint-Olon » فلم تحصل على طائل .

وفي 1698 حضر شاطو رونو « Château Renaud » لمراقبة عبد الله بن عائشة في بعثة من اهم اعضائها علي بن عبد الله قائد تطوان ومعنينو اخو قائد سلا ، وذلك بعد ان امضى السلطان معاهدة هدنة مع لويس الرابع عشر لمدة ثمانية اشهر ، وحمل السفير المغربي رسالة اعتماد موجزة ، تحمل تاريخ 23 – 3 – 1110 وفيها يلقب السلطان ابن عائشة بقبطان البحر وبالرئيس ، وقد صحب ابن عائشة عدد من الخدم والمهنة .

وكان ابن عائشة يتقن الاسبانية والانجليزية ، وقد سهل له مقامه كأسير ببريطانيا لمدة ثلاث

سنوات، ، اطلاعا وافيا على عادات المجتمع الاوروبي ، وتصفه المراجع الاجنبية بالذكاء والدهاء ووصفه استيل « Esteile » بالعدو اللدود للفرنسيين .

وصحبه في هذه المرحلة ترجمان من التجار الفرنسيين المقيمين بالمغرب واسمه « Fabre » وتحركت السفينة الفرنسية التي اقلت ابن عائشة ومرافقيه من حوض ابي رقراق في 17 اكتوبر 1698 ثم رست بميناء بريست حيث اقام السفير مدة شهرين لاسباب تشريفية اذ كان لويس يريد ان يحيل ابن عائشة على بعض رجال دولته لمفاوضته ، دون ان يستقبله ، ولكن ابن عائشة احتج بشدة على هذا السلوك ورفض لكل مفاوضة قبل ان يتم استقباله من طرف الملك ، واخيرا سويت هذه المشكلة .

وغادرت البعثة المغربية بريست في ثاني عشر يناير 1699 متوجهة الى باريز وفي جميع تنقلاتها كانت تثير فضول الفرنسيين الذين كانوا يتسارعون في الطرقات والشوارع للترحيب به والتطلع اليه . ويقول مصدر معاصر وهو شاهد عيان ايضا (انظر خطبة عبد الله بن عائشة ضمن المراجع الفرنسية) ان السفير اصبح بعد الحادثة السابقة الذكر موضع رعاية فائقة من طرف المسؤولين والشعب الفرنسي على السواء .

وقبل ان يلقي ابن عائشة خطبته باللغة العربية بمحضر لويس الرابع عشر ، حسر هذا الاخير عن راسه ، ثم القى السفير كلمته برباطة جاش واثار كلامه اعجاب البلاط كله ، ثم ترجم خطابه الى الفرنسية من طرف دولاكروا . وبعد ذلك جرت محادثة ودية قصيرة بين السفير والملك ، وتوبعت المفاوضات حول الاسارى من غير نتيجة ، وهكذا عاد ابن عائشة الى المغرب بعد ان اتصل في باريز بعدة شخصيات على راسها جاك الثاني ملك بريطانيا السابق الذي اختار فرنسا منفى له بعد اقصاء اسرة ستيوارت عن الحكم ، وقد تقدم ان جاك الثاني كان قد تدخل لاطلاق سراح ابن عائشة عندما كان اسيرا ببريطانيا .

وقد ترك ابن عائشة اصدقاء كثيرين بفرنسا ظل يراسلهم بعد عودته الى المغرب ، ولسوء الحظ لم تكن مهمة ابن عائشة محددة بدقة حتى في رسالة الاعتماد التي صحبها من البلاط العلوي ، وهكذا فان المراجع لا تفيد بشيء ، عن تفاصيل هذه المهمة الغامضة التي نعلم ان قضية مفاداة الاسرى كانت من اهمها .



رسالة المولى اسماعيل الى لويس الرابع عشر ملك فرنسا يخبره فيها بان مبعوثا مغربيا يوجد في طريقه الى فرنسا ، وذلك في اواخر ربيع الاول عام 1103 هـ (21 دسمبر 1691 م) .

وتجمع المصادر الاجنبية على ان ابن عائشة قد شاهد اثناء مقامه بباريز ابنة للويس الرابع عشر وتدعى دوكونتي « De Conti » فاعجب بجمالها الذي كانت تتحدث عنه المحافل الفرنسية باعجاب ، واقترح على مولاي اسماعيل بعد عودته الى المغرب سنة 1699 ان يخطب هذه الفتاة . ومن المحتمل ان يكون قد راسل والدها فعلا بهذا الشان ولكن لا توجد وثيقة مغربية حول هذه الخطبة ، على ان المصادر الفرنسية تثبت ان لويس الرابع عشر لم يتقبل بارتياح هذه الفكرة ، وانه عرض على السلطان ان يتنصر كشرط اساسي لموافقته .

ولكن سياق الاحداث يدل على ان السلطان مولاي اسماعيل لم يثر غضبه او يتصرف دبلوماسيا على الاقل بما يقتضيه مثل هذا الرفض ، ففي ربيع الاول 1111 هـ عرض على لويس الرابع عشر ان يتابع ابن عائشة مفاوضاته بالطرق الدبلوماسية مع رجال الدولة الفرنسيين وفي نفس السنة طلب منه في خطاب طويل ان يوجه اليه بعدد من مهندسي القناطر ، والفنيين ، مقابل عروض سخية لهؤلاء .

فمن المحتمل والحالة هذه ان تكون المفاوضات حول الخطبة المذكورة قد اختلقت اختلاقا لتضفي على البلاط الفرنسي وملكه مظهر العظمة الممزوجة بالاستخفاف بطلب الملك المغربي ؛ كما يحتمل من جهة اخرى ان تكون هذه المفاوضات ، قد تولى كبرها ابن عائشة وحده لما كان له من نفوذ لدى السلطان ولرغبته الحقيقية في التقارب بين الطرفين . وهكذا فان السلطان المغربي لا يبدو انه ارسل باسمه عرضا حتى ولو سمح لابن عائشة بمراسلة المقربين الى العائلة المالكة .

وكيفما كان الحال فعرض مبدأ التنصر على المولى اسماعيل يتناقض مطلقا مع عرضه هو لمتابعة المفاوضة بين البلاط الفرنسي .

واذا كانت الظروف لم تساعد السلطان كثيرا على تقوية الاسطول المغربي فقد صرف عنايته لتقوية الجيوش البرية سلاحا وعددا ؛ وتدل رسالة له الى جاك الثاني المدعو بجيمس على ما يجده من نقص في قواه البحرية التي لا تمكنه من مساعدته على استرجاع ملكه وهي مؤرخة بشعبان 1109 .

وقد تناقصت قطع الاسطول الذي كان تحت قيادة عبد الله بن عائشة حتى بلغت ستا او سبعا، سنة 1710 ؛ ولا نعلم شيئا عن مصير هذا القائد بعد هذه السنة ، وقد كان الى جانب صفاته السابقة قويا باموالة وممتلكاته ؛ وكان مع ذلك دينا ورعا حتى لفت تدينه انتباه الفرنسيين عندما كان بفرنسا .

ويمكن ان نعد ابن عائشة آخر امراء البحر المغاربة العظام حتى يومنا هذا .

ابراهيم حركات

مراجع :

(1) ابن تاويت محمد : من زوايا التاريخ ص 142 مجلة تطوان 1962 .
(2) اوجين بلانطيط : Moulay Ismail et la Princesse de Conti باريس 1893
(3) جاك كايي La petite histoire du Maroc ص 233 ج 2 .
(4) جاك كايي : السفارات والبعثات المغربية الى فرنسا ص 164 مجلة تطوان 1962 .
(5) جوليان دالدري : Histoire de l'Afrique du Nord ج 1 ص 234 – باريس 1929
(6) طيراس (هنري) Histoire du Maroc
(7) دوفونتان : Moulay Ismail
(8) Harengue faite au Roi de Versailles, le 5 février 1699, par Abdallah Ben Aicha (S. date d'imprimer)

الحسن الثاني ... ومقاومة التخلف الفكري

للأستاذ : محمد محيي الدين المشرفي

ان الاعمال الموجهة الهادفة التي نحمل انفسنا على القيام بها استجابة لرغبة شخصية او تلبية لدعوة لا تدخل تماما في نطاق ارادتنا الخاصة لا يمكنها ان تثمر وتزدهر حتى تكون بطبيعة الحال منبثقة عن نية صادقة ، مستجيبة للمثل الاعلى الذي نهدف اليه ، سائرة في طريق بينة واضحة المعالم ، ولابد ان تكون هي الاخرى في مستوى الاغراض السامية التي نكرس حياتنا من اجلها ، الا ان الذين يضطرون بحكم تلبيتهم لهذا النداء الى المساهمة في مشروع معين ، مهما تكن قيمته ، قد لا يجدون دائما في انفسهم ذلك الدافع الباطني القوي الذي يتمكنون بفضله من متابعة المسيرة حتى آخر المطاف ، وذلك اما لضعف في ارادتهم او نهك يصيبهم احيانا خلال مباشرتهم للنشاط المفروض عليهم ، وهو ضعف كثيرا ما يصيب اولائك الذين لم يتمكنوا بعد من ادراك اهمية المشروع الذي يعملون من اجله ولا استطاعوا ان يحيطوا به من كل جوانبه ، فلذا نراهم في حاجة ماسة الى من يقوي عزيمتهم ، ويحملهم على المضي في السبيل دون التواء ، والتجربة علمتنا ، فوق ذلك ، انه ليس هناك من يستطيع ان يقوم بهذا الدور الطلائعي الخطير ، اكثر ممن كانت تربطه بهم علاقة الصداقة والود والمحبة المتبادلة .

* * *

والدليل على ذلك كثير ، فمهما كانت ، مثلا ، رغبة الولد شديدة في التعلم والدرس فانه لا يستغني عن النصائح والتوجيهات التي يقدمها له والده او القائم على امره من حين لحين ، وما قيل في الوالد والولي يقال ايضا في القائد بالنسبة للجنود التي هو محمول على توجيهها والاشراف عليها ، فسواء عليه كانت الايام سلما او كانت الحالة التي يعيشها اولائك الجنود تدعو الى مزيد من الاحتياط والحذر فان ذلك القائد مضطر ابدا الى افادتهم بنصحه وسديد ارشاده .

واذا كانت التوعية امرا واجبا مؤكدا في كل ما يرجع للشؤون الحيوية العادية ، فما بالك بها في ميدان له اهميته القصوى كالذي يتصل بسياسة امة باسرها وتوجيهها توجيها تستطيع به تحقيق مشاريع بالغة الفائدة ، وضعها من اجلها هذا القائد الشهم الكريم يتعاون مع الشعب في جو من التفاهم والمحبة والاخلاص المتبادل .

والواقع ان سياسة الشعوب والممالك امر من الخطورة بحيث لا يتاتى الا لمن وهبه الله علما وحكمة ــ « ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا » . ومعلوم ان جلالة الحسن الثاني ــ ايده الله بنصره المبين ــ بعد ، بحكم انتمائه لبيت النبي صلى الله عليه وسلم ونتيجة للتربية الصالحة التي كانت من حظه في مدرسة والده المنعم ، طيب الله ثراه ، من ملوك الدولة العلوية القلائل الذين حباهم الله عقلا نيرا، وخلقا كريما ، وذكاء وقادا .. صفات قلما اجتمعت في غيره من الملوك والرؤساء، فكان من الطبيعي ان

يسخرها ـ اطال الله عمره ـ في خدمة شعبه الوفي واسعاد هذه الامة المتفانية في حبه . وعمل كهذا لا يتحقق الا اذا كان هناك انسجام وتجاوب بين الملك والشعب ، انسجام وتجاوب في المشاعر والاحساسات التي تحرك كلا منهما ، وهي مشاعر ربطت على الدوام امة المغرب بملوك هذا البيت العلوي المجيد .

وغني عن الاثبات ان هذا التجاوب يقتضي من الشعب اولا وقبل كل شيء ان يكون من حيث التفكير وادراكه للامور في منزلة لا يجد معها مشقة ولا صعوبة في متابعة الاعمال والمخططات التي يضعها جلالة الحسن الثاني ويسهر بكل قواه على تحقيقها . .

ولكم يحلو للفيلسوف ابن خلدون ان يحلل هذه الفكرة الاخيرة باسلوب الفذ وتفكيره العميق ، فيقول فيما يرجع لضرورة هذا التجاوب بين الحاكم والمحكومين ما مؤداه : اما اذا كان الفرق كبيرا في الاسلوب الذي يسلكه كل منهما في التفكير وادراكهما للامور بحيث يكون الملك شديد اليقظة والفهم بينما يكون الشعب متخلفا متأخرا جاهلا فانه يكون من العسير بل من المستحيل على الامة ان تدرك ماهية المشاريع التي يقررها الملك ، ثم يستطرد في ذلك فيقول « ان الملك اذا كان شديد الذكاء واليقظة فانه يكلف الرعية فوق طاقتها لنفوذ نظره فيما وراء مداركهم واطلاعه على عواقب الامور في مبادلهـا بالمهيه » ، (1) . ومن اجل ذلك ايضا قال صلى الله عليه وسلم «سيروا على سير ضعفائكم» . ومخافة ان يسلط الحاكم فرط ذكائه على الناس ما جاء في قصة زياد بن ابي سفيان لما عزله عمر عن العراق ، فقال : « لم عزلتني يا أمير المؤمنين ؟ العجز ام لخيانة ؟ » فقال عمر : « لم اعزلك لواحدة منهما ، ولكن كرهت ان احمل فضل عقلك على الناس (2) » ، كأنه يشير الى ان الفرق كان عظيما بين قوة ابي سفيان في التفكير والادراك وما كان عليه شعب العراق من تخلف وانحطاط في الراي ؛ فلم يكن بينهما انسجام ولا تجانس في الراي الامر الذي عاقهما عن القيام باي عمل مشترك مثمر .

يستخلص ذلك كله ان الملك متى كان شديد الذكاء غزير العلم ، واسع المعرفة كما هو الشان بالنسبة لجلالة الحسن الثاني بات من المؤكد ان تصرف الجهود برمتها لكل ما من شانه ان يعمل على اختصار البون الملاحظ في التفكير والادراك بين جلالته وشعبه بصفة عامة . لان الامة اذا كانت متاخرة او ضاربة بسهم في الجهالة فان ذلك يعوقها عن تفهمها لحقيقة الامور ، ولا يعينها بالتالي على ادراك ما يجري في الدواوين الحكومية من نشاطات ترمي الى تحقيق مشاريع اقتصادية واجتماعية معينة .

❊ ❊ ❊

من ثم تظهر لك من جهة اهمية الجهود التي يبذلها جلالة الملك بسخاء في ميدان التربية والتعليم ، حرصا منه ـ حفظه الله ـ على نشر المعرفة بكل وسيلة بين طبقات الامة كلها ، وما يقوم به من جهة اخرى من توعية وارشاد وتوجيه مستمر لهذا الشعب حتى يرتقي به ادراكا وتفكيرا الى المرتبة اللائقة بحيث يصبح قادرا على تفهم الاحداث ومسايرة الظروف التي تحياها بلادنا بحكم انتمائها للعالم المتحضر ، ومساهمتها في المجهود القيم الذي تقوم به الدول الاخرى . ومتى ادركت الامة بصحة تفكيرها حقيقة هذه الامور اصبحت اذ ذاك مستعدة للاسهام في المشاريع الحكومية والعمل على ابرازها للوجود في كثير من الفعالية والنشاط .

وللحسن الثاني مذهب خاص في توعية الشعب المغربي بغية دعم حركة البناء والتشييد التي يقودها بفخر واعتزاز باعتبارها مظهرا من مظاهر الرسالة العظمى التي يتحملها عن رضى وطيب خاطر ، فتارة يتحدث الى شعبه الوفي بواسطة خطبة العرش ليجدد ذلك الميثاق الذي جمع بينهما ، بصورة لا تنفصم عراها ، وتارة اخرى يستغل الخطب المتعددة التي يوجهها للامة في شتى المناسبات كي يطلعها على مخططات الحكومة ، متحدثا اليها باسهاب عن الاسباب القريبة والبعيدة التي حملت جلالته على سلوك هذا الطريق دون غيره . ثم انه ينتهز ـ حفظه الله ـ حلول شهر رمضان المعظم من كل عام ، فينظم دروسا دينية قيمة داخل قصره العامر ، يدعو اليها ثلة من علماء المغرب والمشرق ، فيطرقون امام جلالته طائفة من الموضوعات الدينية والاجتماعية التي تفيد الشعب ايما فائدة بما يسبغه عليها اولئك العلماء الاجلاء من توجيه وارشاد يهتدي بهما المومنون في اي مكان الى طريق

(1) المقدمة : المطبعة الاميرية بولاق ج 1 ، ص 179 .
(2) نفس المصدر .

النور والعمل الصالح ، وواضح ان الدين الاسلامي الحنيف يدعو الى العمل في هذه الدنيا بقدر ما يدعو للعمل الصالح استعدادا للآخرة ، « وللآخرة خير لك من الاولى » ! ثم أن جلالة الملك المعظم لا يقف عند هذا الحد من النشاط بل يشارك في نفسه الكريمة في تتويج تلك الدروس بالقاء حديث قيم من عنده في ذلك المجلس الموقر، فيتطرق خلاله الى مخاطبة الامة المغربية قاطبة لما يعلمه من اثرها الفعال في نفوس المومنين ، وقد ادرك ، حفظه الله ، بفضل احساسه المرهف وايمانه العريض فائدة تلك الدروس ، فامر ابتداء من هذه السنة بتمديدها واقامتها يوم الخميس من ءاخر كل شهر ، في نفس المدينة التي يحل بها ركبه السعيد باعتبار تنقلات جلالته عبر المملكة المغربية، يضاف الى ما تقدم انه كلما دعته الضرورة الى الانتقال لاحدى تلك المدن بحكم ما يحمله من اعباء السياسة والحكم انتهز فرصة وجوده بها لجمع الطبقة المنتخبة من السكان والموظفين السامين ليتحدث اليهم عما انجزه من مشاريع أو ما هو مصمم على تحقيقه . ولا عجب اذا وقعت تلك الاحاديث موضع قبول واستحسان من المستمعين ، يسوق اليهم تلك الاحاديث في صدق لهجة وصراحة قول ، فلا تنفك ان تنصب في قلوبهم وتتغلغل لانها صادرة من قلب حي مومن بما يقول وما يفعل ، همه الاسمى هو اشراك طبقات الشعب والمسؤولين على اختلافهم في العمل الحكومي الذي يريد تحقيقه بعد اقناعهم بالحجة والموعظة الحسنة ، لا بواسطة الضغط والاكراه .

وجلالة الملك يعلم علم اليقين ان طريقة الكبت لا تسمن ولا تغني سواء كان الامر يتعلق بالتربية والاقتصاد ، او كانت له صلة بتوجيه الشعوب وسياسة الامم ، ومن الطبيعي ان الحديث اذا صدر عن نفس مومنة بما تقول كان له رد فعل يحمل في طياته بوادر العمل المثمر ، والدليل على ما نقول كثير ، فلم يكد يقترح جلالته على شعبه الوفي زيادة نسبية في مادة السكر لاجل أن تتوفر للحكومة بفضلها ما يعينها على بناء عدد من السدود التي لا تخفى فوائدها بالنسبة للاراضي الضائعة حتى بادر الناس عن بكرة ابيهم مستجيبين للنطق الملكي الكريم . والذي يزيد احاديث جلالته قبولا واستحسانا هو انه لا يميل الى التركيب المعقد الصعب او اللفظ الذي يتعذر ادراكه على الناس ، بل يستخدم في تلك الاحاديث كلها اسلوبا سهلا مبسطا ، ولذلك لا ينفك ان يسري مفعولها بسرعة في نفوس المستمعين . وطريقة كهذه في الكتابة والحديث لا تتوفر عادة الا لمن احاط بفنون الخطابة والانشاء وكان ، فوق ذلك ، على علم بخوالج النفوس البشرية ، وليس في ذلك ما يبعث على العجب وقد تربى الحسن الثاني على يد رجل عبقري كان بالنسبة لمن قدر لهم ان يقتربوا منه او يعملوا بازائه مركز اشعاع روحي مستمر ، بحيث ما كان يشرع – تغمده الله برحمته – في حديث مع متكلميه حتى يعمل فيهم ذلك الحديث فعل التيار الكهربائي ، فيجلبهم اليه جلبا تقوى به عزائمهم بصورة يصبحون معها قادرين على تحريك الجبال اذا ارادوا ، فضلا عن القيام بما يفرضه عليهم الواجب الوطني المقدس ، ثم إن جلالة الحسن الثاني لا يسلك طريقة واحدة في توعية هذا الشعب ، فان كان يتولى بنفسه القيام بهذه المهمة الخطيرة في كثير من الاحيان ، فقد يرى احيانا ان يضع هذا الحمل على اعوانه من الوزراء وخدامه المخلصين ، فيشير عليهم بالانتقال الى مختلف جهات المملكة لعقد ندوات واجتماعات هناك مع المواطنين ، والتحدث اليهم حول البرامج التي تعول الحكومة على تحقيقها ، كالمخطط لخماسي مثلا او التي شرعت بالفعل في انجازها ، وذلك ليكونوا على بينة من مخططات الدولة من جهة ولئلا يقال بان الحكومة انما استاثرت برايها في شؤون تعتبر حيوية بالنسبة لمصير المواطنين من جهة اخرى .

والروح الديمقراطية التي تطبع نشاط الحسن الثاني كله هي التي حملته على ان يسلك هذا السبيل ، سبيل توعية الجماهير على يد وزراء الدولة ، مشيرا عليهم بضرورة الاستماع الى آراء المواطنين جميعا وخاصة منهم اولائك الذين لهم دراية واختصاص بموضوع تلك الندوات والملتقيات ، وهذه الخطة التي سار عليها جلالته منذ ان قلده الله امر هذه الامة مستوحاة من تعاليم القرآن الكريم الذي يحثنا حثا على ضرورة قرن القول بالعمل في كل امورنا ، لان الاقوال وحدها لا تكفي ، بل كثيرا ما تكون مثبطة للهمم ، معرقلة لعملية الخلق والابتكار ، ربنا اجعلنا من الذين يقولون ويعملون، ومن اولئك الذين نزلت فيهم هذه الاية الكريمة : « فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ، ذلك هو الفوز المبين » .

هذا وان جلالة الحسن الثاني ليعلم جيدا « ان الحاكم اذا كان مفرط الذكاء والكيس مثلما كان عليه زياد بن ابي سفيان وعمرو بن العاص ، فان ذلك يتبعه بالطبع نوع من التعسف وسوء الملكة ، كما يقول

ابن خلدون فى مقدمته ، مما يفضي به الى حمل الوجود على ما ليس فى طبعه » ، طالما يبقى الشعب الذى يسوسه ذلك الحاكم ضعيف التفكير قليل الادراك . وذلك لان البلادة تكون بالنسبة له بمثابة العائق دون تفهمه للمشاريع التى يرمي اليها الحاكم خاصة اذا كان هذا الاخير عبقريا بالغ الفطنة والكيس .

وقد ادرك الحسن الثاني بفرط ذكائه ونفوذ بصيرته ضرورة العمل على تلافي هذا النقص عن عموم طبقات الشعب ، ومن اجل ذلك راح يعمل على توعيته بكل وسيلة للرفع من مستواه حتى يصبح قادرا على مسايرة سياسة الحكومة بادراكه لمخططاتها، الامر الذى يمهد له السبيل بعد ذلك للمساهمة فى تلك المشاريع مساهمة فعالة ، والعمل على تحقيقها بأوفر نصيب .

* * *

وبقدر ما يهتم جلالة الملك المعظم باعداد الامة المغربية للمشاركة فى العمل الحكومي عن طريق توعيتها، ومقاومة ما يظهر عليها من علامات التأخر والتخلف الفكري بقدر ما يحرص حفظه الله على ان يوفر من الآن اسباب العمل المثمر لولي العهد المحبوب سيدي محمد ــ أصلحه الله ــ وذلك بتربيته تربية شاملة كاملة تجعله فى حالة يشعر معها بما يشعر به شعبه الوفي من محبة متبادلة وتضحية فى سبيل المصلحة العامة ،هي التى يكرس والده المعظم حياته من اجلها بالضبط ، عملا بالميثاق الذى يربطه بهذا الشعب النبيل « لو انفقت ما فى الارض جميعا ما الفت بين قلوبهم ولكن الله الف بينهم ، انه عزيز حكيم » (1)

وهكذا ستستمر الدولة ملكا وشعبا فى القيام بما يفرضه عليها الواجب من عمل بناء لفائدة مجتمع واع متطور، لا يزيدهما هذا العمل المشترك الا تفاؤلا بالمستقبل الباسم ولا يزداد الميثاق الذى يجمع بين الملك والشعب الا قوة واستحكاما على مر الايام والعصور .

الرباط ــ محمد محي الدين المشرفي

---

(1) سورة الانفال .



شعبية محمد الخامس طيب الله ثراه

للأستاذ محمد بن إدريس العلمي

ان مظاهر شعبية الملك الراحل جلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه اكثر من ان تحصيها مقالة متواضعة ، او حديث قاصر ، لم يكتب له الشرف بالاتصال لجلالته الا في مناسبات معدودة ، ولكني ارى انه من باب وجوب شكر المنعم على ما أسدى من معروف ، عملا بالحديث الشريف « من اسدى اليكم معروفا فكافئوه فان لم تستطيعوا ذلك فادعو اليه » سأسرد بعض ما بقي عالقا بذهني من صور من شعبية نادرة المثال ، امتاز بها الملك المغفور له محمد الخامس ، وربى عليها ولي عهده البار جلالة الحسن الثاني نصره الله ، وباقي الامراء والاميرات ، وكل من كانت تضمه حاشيته ، او يتصل به من قريب او بعيد .

نعم اذكر وانا لا زلت في ريعان الشباب مواقف جليلة ، كان يقفها محمد الخامس ، حيث يخترق جميع الحواجز والسدود من اجل مخالطة ابناء شعبه سراءهم وضراءهم ، حتى انه كان يغتنم بعض المواسم والحفلات الرسمية وغير الرسمية ، فلا يشعر الجمهور وهو في غمرة الاحتفالات الا وصاحب الجلالة قد انغمر معه ، وصار يشاركه ، فلا يتمالك ابناء الشعب الوفي الا ويظهرون من الحفاوة والاجلال ما يقتضيه مقام الجلالة والمهابة ، ولكن محمد الخامس طيب الله ثراه ، لم يكن يعبأ بالرسميات في مثل هاته المواقف ، لانه كان يقصد من ذلك ما هو اسمى واغلى من مجرد ترتيبات ومراسيم يستوجبها الادب الرسمي ، وتقتضيها ظروف الملك .

وان انس فلن انسى تلكم الزيارة الفريدة من نوعها التي قام بها لمدينة فاس خلال سنة 1934 او 1935 — لا اذكر بالضبط — حيث التحم الشعب بالعرش في منظر لم يوجد له مثيل من قبل ، ورغم ما بيته الاستعمار ، وما قام به من جهود لتلافي مثل ذلك لانه كان يعتبره بمثابة مسامير تدق في نعشه ، وهو آئل الى الاضمحلال — لا محالة — وقد اندس في صفوف الجمع بايعاز من المستعمرين بعض الذين حاولوا تشويه حقيقة الاعراب عن حب الشعب لملكه المتفاني في مصلحته ، فقاموا ببعض الاعمال التي تخل بالادب الرسمي ، ولاسيما مع روح الشعب وقائده العظيم ، ولكنه رضي الله عنه كان يقظا بكل ما في الكلمة من معنى ، واغلى واسمى من ان يتأثر بما يلفقه الاستعمار وينشئه من دعايات فارغة ، القصد منها محاولة قطع ما بين العرش والشعب من علاقات روحية نتيجة عهود عريقة املتها تقاليد دينية وسلالية لا يستطيع احد مهما بلغ من القوة والامكانيات فصمها .

ومنذ هاته الزيارة الملكية الكريمة والعلاقات بالعرش والشعب تزداد متانة وتتخطى جميع الحواجز والاشواك وقد تبلورت سنة 1937 حيث احتضن جلالته طيب الله ثراه التعليم الديني والتعليم الحر نظرا لصبغتهما الشعبية من جهة ولكونهما كانا يقومان بغرس الاخلاق الفاضلة والشيم النبيلة في نفوس النشء المغربي ، بالاضافة الى التعليم الصحيح المرتكز على روح القومية والاخلاص لله ، والوطن ،

والملك ، هذا الثالوث : (الله، والوطن، والملك) الذي ظل قسما يقسم به وشعارا للوطنية وعقيدة تدين بها الجماهير الشعبية رغم اختلاف طبقاتها وتعدد عناصرها ، ولطالما كان يعجبك الجرمر (الكشاف الصغير) وهو مرتد بذلته الانيقة ، وعلى وجهه تباشير الحماسة والنشاط والامل في المستقبل المشرق الوضاء، وهو يردد: الله ـ الوطن ـ الملك، هاته الكلمات التي كانت تتبلور في سلوك قويم ومحبة صادقة ، لم تكن نتيجة مصادفة او عمل بايد ، ولكنها استمرار لتاريخ مجيد ، عملت على نصاعته همم عالية تلين دونها الصخور وتندك لها الرواسي .

والحقيقة انني كنت ممتزجا بالشعب نظرا لظروفي المهنية والوطنية ، وكنت اشهد مواقف ومواقف ، احمد الله تعالى على ان شرفني بها مثلما شرف كثيرا وكثيرا من ابناء وطني العزيز، لم يكن محمد الخامس طيب الله ثراه يريد ان تقتصر حفلاته وحتى العائلية منها على شخصيات لها وزنها وقيمتها الرسمية والعلمية فقط بل كان يريدها مزيجا من ابناء الشعب ، حتى ياتي الجمع بالخير العميم والنفع الكثير ، وستعود عائدته على البلاد والعباد، وكانه رضي الله عنه كان ينشد مع الشاعر العربي :

فلا هطلت علي ولا بارض
سحائب ليست تنتظم البلاد

واذكر في هذا المقام مناسبة احراز ولي عهده البار جلالة الحسن الثاني نصره الله على شهادة البكالوريا ، وانا اذ ذاك مدير (مدرسة التقدم) بفاس وقد امر اعزه الله الاستاذ عبد السلام الفاسي بان يكتسي هذا الحفل صبغة شعبية ايضا ، فيحضره بعض المتفوقين من تلاميذ المدارس الحرة التي كان يرعاها ويتعهدها دائما ، وهكذا كتب لي ايضا حضور هذا الحفل مع ثلة من تلاميذ المدرسة صاحبوني الى القصر الملكي العامر ، وكانت حفلة زاخرة زاهرة صارت بذكرها الركبان . .

وتاتي سنة 1943 م وهي السنة التي اجتمع فيها جلالته باقطاب الحلفاء ، وصدر فيها شريط (الاطلنتيك) المشهور وفيها قام جلالته بزيارة اخرى الى مدينة فاس ، ولكنها لم تكن كسابقاتها . فقد كان رضي الله عنه يغشى المجتمعات والاماكن المحتشدة بابناء الشعب ، ويقوم بتفتيش الادارات الرسمية والحكومية، مختفيا ليطلع على سير الامور ويقوم برفع المظالم عن ابناء شعبه الوفي ، وقد تركت هاته الزيارة آمالا كبيرة في نفوس الشعب المغربي ، وامتلأ بها قلب الاستعمار البغيض غيظا وحنقا، اضافة الى سلسلات وسلسلات من النكايات التي كان يلقاها من المجاهد الاكبر، محمد الخامس ، والحقيقة ان كل نكاية للعدو تعتبر جهادا في العرف الديني ، وقد جاء في القرآن الكريم « ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح ، ان الله لا يضيع اجر المحسنين » .

اما سنة 1944 التي تعتبر سنة الاشراق والاعراب عن الوجود والذاتية في المجال الرسمي والدولي بعد تخطي كل الحواجز وتكسير جميع العراقيل فقد برزت منها شعبية محمد الخامس بشكل آخر وبمظهر جديد لفت جميع انظار العالم وبخر كل الدعاوي والترهات التي كان يلفقها دهاقين الاستعمار محاولين بذلك التغطية عن المخازي واظهار الشعب والعرش بالمظهرين الغير اللائقين بهما . وتعتبر سنة 1944 سنة المطالبة بالاستقلال سنة الاجماع الشعبي والالتفاف الكامل نحو رائد البلاد ومحررها جلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه حيث العرائض تترى والاصوات تنطلق من كل جانب محبذة خطة الامام الاعظم ومبرهنة بكل صراحة وفصاحة عن اخلاصها لشخصه وعرشه وحبها العميق لعائلته الطاهرة الكريمة وهنا يبرز مثال آخر جديد اصح واقوى من الامثلة السابقة الدالة على شعبية شاملة كاملة اذ يجلس الملك والشعب في حلقة واحدة ويعبر كل منهما للآخر عما يكنه من عبارات تخرج من القلب وتقع في القلب وهنا برهن محمد الخامس انه يعتبر ان له عرشا حقيقيا كاملا يوم يحرز شعبه على الاستقلال ويوم تنفك عنه القيود التي كان يشعر انها تخنق انفاسه وتحول دون ما كان يريده من خير لشعبه وامته . واذا كانت سنة 1944 تعتبر بهاته المثابة فان سنة 1947 لها رنة اخرى ولون جديد ازدى بجميع الالوان والاشكال حيث كان الخطاب التاريخي بطنجة في المجال الدولي وعلى مسمع ومرآى من جميع امم العالم بدون تخصيص وهنا يؤكد بعض الحاضرين انه رأى بعض قواد الجنوب الذين كانوا مشهورين بولائهم التام ومساندتهم الغير المشروطة للاستعمار وهو يذرف دموعا تنهمر على وجهه وقد عمه الخشوع وتملكه العطف ودخلته الوطنية من كل جانب ولعل هاته السنة في عرف القانون الدولي تعتبر هي سنة استقلال المغرب وحريته الكاملة وتأييد هذا الاستقلال من جميع طبقات الشعب وان كل ما اعقبها من تمويهات وتأويلات لمواقف بعض قواد

المغرب انما هو عمل ابتر غير مشروع فكل التصريحات التى دونت سواء عن طريق الاذاعة او الصحافة او فى مجال الحفلات الرسمية والحرة الماتكتسي صبغة خاصة وليست له قوة كقوة الاجماع الشعبي الذى ظهر سنة 1947 فى مدينة طنجة (الدولية) فى ذلك الوقت .

وتاتي سنوات 50 – 51 – 52 حيث تتجدد العهود وتحكم المواثيق بين العرش والشعب وتتقوى مقاومة الاستعمار البغيض ويقوى الحماس الشعبي ويزداد التحام عناصر الامة واتحادها تحت الراية الحمراء وفى حظيرة العرش العلوي العتيد وتحت قيادة الملك العظيم ابي النهضة المغربية جلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه . وقد شهد جوان وابرلك لابون وكيوم دبواي دولاطور وكرانفال وهم مقيمون عامون لفرنسا بالمغرب سابقا شهدوا جميعهم من مظاهر تعلق العرش والشعب ومن امثلة شعبية محمد الخامس ما جعلهم يتحققون ان الاستعمار بالمغرب آئل الى الزوال وان الشعب المغربي اراد الحياة ولابد ان يستجيب له القدر ..

وقد اصبح الامر واضحا لدى الاستعمار بعد ان ضاق ذرعا بالامثلة والبراهين القاطعة على تعلق الشعب المغربي بعرش محمد الخامس الاب الحنون المخلص فصار يحوك الدسائس والمؤامرات من انواع متعددة ومنها العمل على التفرقة بين العرش وقادة الحزب المتزعم للحركة الوطنية تحت قيادة الملك الرشيد حيث وقع الضغط من طرف الاستعمار على محمد الخامس ليتبرأ من حزب الاستقلال ومن قادة الحركة الوطنية ولكنه بما عهد فيه من حكمة وحنكة ودهاء سياسي وتوفيق رباني استطاع ان يعرف القوم وان يفشيهم وهم لا يعلمون . وهنا عزم المستعمرون على اتخاذ وسائل القوة والارهاب بعد ان اعيتهم جميع الوسائل ولكنهم لم يزيدوا النار الا اشتعالا حيث وقف الملك ومن ورائه شعبه الوفي موقف المومنين الصابرين فى البأساء والضراء وحين الباس ، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وما بدلوا تبديلا ؛ وازاء ذلك نفذ المستعمرون قرارهم الشنيع بنفي محمد الخامس زعما منهم بانه اذا نفي وابعد استطاعوا ان يقوموا باي عمل مهما كان نوعه ولكنه طيب لله ثراه كان عالما بكل ذلك واتخذ لكل حال لبوسها ونظم مع الوطنيين المخلصين تشكيلات المقاومة المسلحة ووقتها باوقاتها حتى لا يقع تهور ولا تدهور فى الموقف المتصلب الشعب المغربي تحت قيادة ملكه الهمام .

وقد كان نفي محمد الخامس بمثابة انفجار البركان الذى ظل يغلي زهاء نصف قرن رغم الرماد المتكاثف الذى يذره عليه اعداء البلاد وعناصر السوء ، نعم كان نفي محمد الخامس طيب الله ثراه ختاما لمسرحية الاستعمار البغيض وايذانا بان ساعة خلاص الشعب قد دقت ومثلا حيا آخر من امثلة الشعبية الحقة ولم يمر اكثر من سنتين حتى خسر الاستعمار كل شيء وانكسر امام المقاومة الوطنية المنظمة ورجع محمد الخامس حاملا معه الاستقلال الذى ضحى هو وشعبه من اجله وابتدات مرحلة البناء بعد مراحل الكفاح القاسي . واذا كان الشعب راى ملكه فى القمر ولم تمر بعض الليالي على نفيه وانما ذلك لكون حبه مغروسا فى القلوب وفى شغافها بل اصبح جزءا لا يتجزا منها وهنا اتذكر بعض الصوفيين الذين كانوا غارقين في شهود الحق فلا يرون الا الله فى جميع حركاتهم وسكناتهم وتلك نتيجة الحب الخالص والاخلاص الذى لا يشوبه اي شيء

ان شعبية الملك الراحل محمد الخامس طيب الله ثراه – كما ذكرنا – بحر زاخر لا يستطيع احد الاتيان عليه من جميع نواحيه واطرافه وكل واحد يغرف منه بقدر امكانياته ووسائله وفى حدود اختصاصاته . وقد كان الحسن الثاني نصره الله يعمل مع والده المنعم على تعميق هاته الشعبية حتى تبقى مستمرة فى العرش العلوي الى الابد يمتاز بها بين العروش العالمية الاخرى ، ولطالما تحدثت عنها الصحف العالمية فى كثير من المناسبات ولطالما نعتها الشعراء والادباء وذوو الاقلام السياسية باكبر النعوت واشرفها .

البيضاء – محمد بن ادريس العلمي

مِن مظاهر الإصلاح الاجتماعي في عهد الملوك العلويين

للاستاذ عبد القادر الجلادي

سبق لي ان قمت ، منذ حوالي الثلاثين عاما ، ببحث حول مسائل تتعلق بالاقتصاد المنزلي ، وركزته بوجه خاص ، على تجلية ما طرأ على « الصداق » و « الشورة » من تطورات في كبريات مدن المغرب وقراه ، وذلك لتكون لي فكرة عن اسبابها ومختلف مظاهرها وعن مدى تأثيرها في البيئات الاسروية .

استنتجت من الاجوبة التي توصلت بها اذ ذاك ، ان اكثر المغاربة ، الاغنياء منهم والفقراء يستنكرون ما تستلزمه « الاعراس » من نفقات فادحة ، وما تجره وراءها ، في بعض الاحيان ، من منازعات فاضحة .

ان جل الذين تفضلوا بمكاتبتي في هذا الموضوع اعربوا تصريحا او تلميحا ، عن اخفاق ما قاموا به او شاهدوه من محاولات لرد ذلك السيل الجارف من الاسراف في الافراح ، والمغالات في التزيين والتشوير ، والتنافس الاهوج في الاطعام وضروب الاشهار ، واعترفوا ان تلك « الضلالات » ناتجة عن الخضوع الاعمى — ولاسيما من لدن النساء — لعادات وتقاليد فاسدة عششت وباضت وفرخت في حضانة الجهل وعدم التبصر يتعهدها حب الظهور ، ويعلي من شأنها القصور ، عن تمييز اللب من القشور .

وقد قال شاعر مغربي :

« للناس عادات وقد الفوا بها
لها سنن يرعونها وفروض
فمن لم يعاشرهم على العرف بينهم
فهو ثقيل عندهم وبغيض »

هذا وكل منا يعرف ان النساء ، وخصوصا الجاهلات منهن ، اسرع الناس انقيادا لتحكم العادات واخفهن استجابة لدواعي المباهاة والغرور حتى قال بعضهم :

اذا رأيت امورا
منها الفؤاد تفتت
فابحث عنها تجدها
من النساء تأتت

ففي الوقت الذي قمت فيه بالبحث المذكور كانت الصحف والمجلات المغربية ، على قلتها ، حافلة بالمقالات المنتقدة للتقاليد المؤدية الى الافلاس والضياع ، وبالقصائد المنددة بالمحدثات المنحرفة عن سواء السبيل ، وبجانبها مقالات وقصائد اخرى الغاية منها التنويه بكل عمل يعود بالخير على ابناء الامة كبناء المدارس الحكومية والحرة ، وفتحها في وجوه البنين والبنات ، واقامة الاندية الادبية ، وتأسيس الملاجيء الخيرية لليتامى والعجزة والبؤساء ، ومحاربة الازياء الاجنبية الخ ..

فمما نشر فيها للتنديد بعيد العوائد ، قول الاستاذ الحسن بن بناصر الحاج الداودي (حوالي سنة 1930) .

ـ الى م نجاري ذا الثراء تنافسا
ولسنا لغير الاغنياء نرى القلبا

ـ فنأتي عن ضعف فعالا منيعة
ونرقى عن عجز بنا مرتقى صعبا

ـ ويا ايها المثرون ان ضعافكم
شهرتم عليهم من عوائدكم حربا

ـ ولو ان للاحسان سوقا دعاكم
لكان جواب السائلين به سلبا

وقول الشاعر المرحوم محمد القري :

قومي رضيتم بالهوان علاقا
ورضيتم الاقلاس والاملاقا

رضيتم هذي العوائد سنة
الى العوائد والهدى تتلاقى

لم تنفقوا فلسا على ابنائكم
لم تشفقوا من حالهم اشفاقا

انفقتم الاموال فى الافراح والا
عراس واعتدتم لها الانفاقا

. . . . .

واراكم نحو السفاسف والملا
هي والعوائد والخنا سباقا

لا تحسن الاخلاق ان لم تعلموا
ان العوائد تهدم الاخلاقا

ان هذه الحملة ضد العادات القبيحة كانت تعتبر من باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الا انها كانت تهدف قبل كل شيء الى توعية الشباب من بنين وبنات ،وتنبيه اوليائهم من آباء وامهات الى ما ينتج من اضرار عن تقصيرهم في مقاومة العادات المضرة واخذ الاحتياطات لصد سيول البدع الهدامة .

لقد قوبلت هذه التوعية بل هذه الحملة الاصلاحية بنوع من الجفاء والحذر من لدن رجال « الحماية » الذين كانوا يحرصون على «ان يحموا الامة من كل خير» ولكن من الحق ان نقول ان بذورها صادفت بجل اقطار المغرب ، بشماله وجنوبه ، بغربه وشرقه ، جوا ملائما وتربة طيبة خصبة وذلك لان الامة المغربية امة قيض الله لها ، فى فترات متتابعة من تاريخها ، قادة من ملوك وعلماء يقدرون المسؤوليات حق قدرها ، همهم الاكيد السعي فى تدعيم كيان خلاياها التى هي الاسر، وتوطيد معالم شخصيتها وذلك بالحض على ضبط النفقات التى يقتضيها تاسيسها ، وصيانة اموال ايتامها ومحاجيرها بزجر العابثين والانتهازيين ، وخلاصة القول برعاية هذه الثروة البشرية واحاطتها بما يضمن لها سلامة الابدان ، وصفاء الاذهان وكرامة النفوس .

ان مشاكل البدع المسببة للتبذير والاسراف ، ولاسيما فى الاعراس والافراح عرفت بالمغرب منذ المئات من السنين واشتدت وطاتها على وجه الخصوص بالحواضر الكبيرة مثل فاس ومراكش نتيجة التمادي فى الترف والاسراف . وكثيرا ما تصدى القادة المتبصرون لمعالجتها بوسيلة من الوسائل ، فالملك ابو الحسن المريني مثلا ، صرف عن الخطبة والامامة بجامع القرويين الفقيه المحدث ابا الفضل محمد بن الفقيه الصالح ابي الحسن يحيى بن ابي القاسم عبد الرحمن بن محمد بن يوسف بن عمران بن الفتوح المزدغي لا لشيء الا لانه « كان كثير الانفاق لنفسه وحاشيته ، ولاسيما فى الولائم والمواسيم ، الى ان ارتكبته ديون وغفل عن ضبط ماله » حيث راى ان ذلك يقدح فيه .

ومن جملة الاعمال الاصلاحية التى قام بها الملك المغفور له **سيدي محمد بن عبد الله** رسالته للقضاة سنة 1203 هـ . يأمرهم فيها :

ـ بالا يباع على غائب او عاجز ، ذكرا او انثى ، عقار او ربيع .

ـ بتصوين مال الايتام حتى لا يفوت ملك بغبن او بخس فى الثمن .

ـ بالا يلزم الطلاق رجلا حلف بالحرام وحنث ، الا اذا شهد عليه بذلك اثنا عشر رجلا من اهل حومته او دواره او سوقه .

ـ بالا يكتب فى **الاصدقة** ازيد من اربعين مثقالا، ولا يكون الصداق الا ناجزا لا يؤخر منه شيء .

ـ بالا يطالب اب او ولي « بشورة » ؛ (اي تجهيز البنت المتزوجة) . بل يكون ذلك موكولا الى مروءته .

وكتب رسالة اخرى للعمال والقضاة يحض فيها على مراعاة الاقتصاد في تنظيم الولائم واطعام الطعام بمناسبة الافراح .

كما وجه للامة نصيحة يحذر فيها « من الخروج عن مناهج الشرع في دينهم ودنياهم » كالتعامل بالربا والتساهل في امر الزنا والتغاضي عما يفسد الانكحة.

ووجه **المولى الحسن الاول** ، رحمه الله للامة رسالة عرفت بالنصيحة القرلية – (حررت سنة 1300، ضمنها نصائح غالية ومواعظ شافية وذكر فيها بطائفة من الاوامر والنواهي ، اوصى فيها بالمحافظة على اركان الدين من صلاة وزكاة وصيام وحج الخ ، ونهى عن الظلم والجور وكثير من الموبقات والمهلكات ، وحظر فيها بوجه خاص التغافل عن **« استعباد الاحرار واسترقاقهم بدون موجب شرعي »** ومن جملة الوصايا التي اشتملت عليها تلك النصيحة ما يلي :

« ونعهد الى عمالنا وولاة امرنا ان يلزموا انفسهم واهليهم طاعة الله ، ويدلوا رعيتهم عليها ، ويعطلوا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ... وان يلزموا كل قرية ومدشر ودوار مشارطة طالب علم يعلم اولادهم ، ويفقههم في دينهم ، ويقيم لهم الصلوات الخمس في اوقاتها، ويحضهم على **الآذان الدال على ايمان الدار** .. وان يتفقدوا احوال الفقراء الذين قدرت عليهم موارد الارزاق ، والبسهم التعفف ثوب الغنى ، وهم في ضيق من الاملاق بصدقة التطوع التي هي للحسنات كالام الولود فهي التي تتيقظ لحراسة صاحبها والناس رقود ، وبها تستنزل الارزاق وتسبغ الآلاء .

هذا ومما يذكر فيشكر في هذا الصدد تلك الرعاية المحمودة التي **اولاها مولاي يوسف رحمه الله،** سراة اهل فاس وعلمائهم يوم تشكوا من طغيان البدع وثقل التكاليف التي تشتد وطاتها ، بصفة خاصة ، بمناسبة الافراح والولائم . فانه ، قدس الله روحه ، انتهز تلك الفرصة ، ليذكر بما كان قرره ، في مثل هذه النازلة ، جده **المقدس سيدي محمد بن عبد الرحمن ،** وليعرب عن تأييده التام لمضمون التدابير التي تم الاتفاق عليها اذ ذاك بفاس لمقاومة التبذير والاسراف.

ومما جاء في الظهير الصادر في هذا الشان متم ربيع النبوي عام 1336 هـ والمسجل في الوزارة الكبرى بتاريخ 28 ربيع الثاني 1336 (11 يبراير سنة 1918) :

« يعلم من كتابنا هذا اسماه الله واعز امره، وجعل في الصالحات طيه ونشره ، اننا بحول الله الآمر بالمعروف ، الناهي عن كل منكر غير مالوف ، لما اطلع علمنا الشريف على نسخة ظهير مولوي منيف صادر عن جدنا المقدس الاسعد ، ابي عبد الله سيدي محمد ، بموافقته رحمه الله على كل ما وقع عليه الاتفاق من بعض شرفاء فاس واعيانها **واوقعوا** الاشهاد على عريفات الماشطات في ذلك الابان ، من بيان الكيفية التي يكون عليها عملهن في فراش الوليمة والعقيقة والختان ، وزينة العروس وتحليتها والاقتصار على سبعة ايام في جلوتها ونحو ذلك مما هو مقرر هنالك ، لاعتباره ، قدس الله روحه ، **ذلك قريبا من** السداد ، وكون الزيادة عليه بدعة خارجة عن المعتاد . وحته ، برد الله ضريحه ، ولاة الامر على **تعاهد ذلك** بالبحث دون اهمال ، وعدم مسامحة من يحاول نقضه بحال ، والزام اهل كل حرفة الوقوف عند حده .

« واطلع علمنا الكريم بما اعاده اعضاء المجلس البلدي بفاس حينه ، متفقين مع جمهور اعيان المدينة من القيام في وجه العامة ، ومنعها من ارتكاب تلك المنكرات التي صارت تعد لديها ، في الولائم ، من الامور الهامة ، وتجديدهم الاشهاد على الماشطات والطربات والحجامة وغيرهم .. وتعيينهم الخطة المستقيمة التي يسلكها الضعيف والقوي ، ولا يتجاوزها الفقير والغني، حسبما بالرسم المؤرخ بحادي وعشري محرم الحرام فاتح عام 1936 ، المنقول اصله من عدد 378 وصحيفة 125 بكناش القضايا المختلفة بالمحكمة الشرعية بالرصيف .

« اقتضى نظرنا السديد ، ورأينا الموقف الرشيد ان جددنا على ظهير مولانا الجد المذكور ، واقررنا حكمه المسطور ، وامضينا ما اتفق عليه خدامنا اعضاء المجلس البلدي المشار اليه ، **وجعلناه قانونا يتعين الاقتصار عليه ،** لان ما نهي عنه فيه من محدثات الامور،وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة كما هو مأثور، تجديدا وامضاء تامي الرسم ، نافذي الحكم ... ونأمر خدامنا عامل فاس .. ومحتسبها ... وكافة القضاة والولاة ان يجروا العمل فيما ذكر على مقتضى الرسم المذكور من غير تقصير ولا قصور .. والله يتولى بمنه اصلاح الظواهر والسرائر والسلام » .

نشرت مجلة المغرب ، سنة 1354 هـ (1935 م) في عددي جمادى الثانية وشعبان ، نص وثيقة حددت فيها التدابير التي قررت اتخاذها اللجنة المشار اليها

فى الظهير المذكور والمركبة من السادة القضاة والعلماء واعضاء المجلس البلدي الفاسي . غير ان هذه الوثيقة جاءت مؤرخة ب 17 جمادى الثانية 1345 هـ (15 – 12 – 1926 م) ، ومشتملة على تنديد عنيف وتشكك مرير مما « حدث من البدع والمنكرات واخترع من العوائد الشيطانية والتفاخر والمباهاة، ومن التطاول فى فرش الحرير الخالص والذهب ، وتبرج النساء بالحلي والحلل فى غير دورهن ، وتجمهرهن بتلك الصفة امام المومسات المغنيات ، وخروجهن لسائر المواسم والافراح وسائر المآتم والاتراح ، واساس عمدتهن فى ذلك الماشطات اللاتي ينتزعن منهن ومن رجالهن ثروتهن ، ويختلسن اياها ، مع ما شاع وذاع فى حفلات الرعاع من هتك الاعراض واختلاط النساء بالرجال ، والتكهن والتطلع بالزعم على الغيب وخبال ضعفة العقول بذلك ، وشدة التبذير فى المآتم والافراح الى ما لا حد له من المحرمات والمناكر وما تنزه عنه الالسنة واقلام المحابر ولا يجهله احد » كما جاءت معززة بتوقيعات التزم بها اصحابها – وهم سبعمائة (147 من الشرفاء ، 500 من اعيان التجار واهل الحرف و 53 من اهل فاس وقصبة الانوار » – بالعمل على محاربة تلك البدع و «اشهدوا الله وملائكته وجميع خلقه انهم يلزمونه من تحت نظرهم ، واعطوا الله عهدا ان من خالفه يهجرونه فى الله فلا يشهدون معه فرحا ولا ترحا الى ان يفيء لله وتظهر توبته . والله رقيب على كل مغير ومبدل والسلام »

وكل هذا جعلني اعتقد ان هذه الوثيقة كانت بمثابة التزام جديد محكم التوثيق بالعمل على تطبيق الاجراءات التى حددها ظهير سنة 1918 ولم تأت بالنتائج المتوخاة لاسباب يمكن ان نعد منها ما احدثته ويلات الحرب العالمية الاولى ثم حوادث الريف من اصداء وهزات اغفلت الناس عن الاهتمام بمعالجة الازمات الخاصة بينهم .

ولا شك ان حملة التوعية التى اشرت اليها فيما قبل ، والتى انبثقت عن شعور الشباب بضرورة تأييد المبادىء السلفية وفتح الصدور للصالح من العلوم العصرية هي التى ادت باعيان فاس الى اثارة الهمم من جديد لابطال البدع التى اصبحت حجر عثرة فى طريق كل اصلاح ، وباتت مبعثة للنزاع بين الازواج ، ومدعاة للاعراض عن الزواج المبكر والاقتران بالفتيات الفقيرات ، وفى بعض الاحيان مبررا للاغتراب و « التغرب » حتى قال بعض الآباء – وما اشد شفقة الآباء على الابناء ! – :

احب بنيتي واود انـي
وضعت بنيتي من تحت لحدي

فان زوجتها يوما فقيرا
فهي عنده والهم عندي

وان زوجتها يوما غنيا
فيلطم وجهها ويسب جدي

ومهما يكن من امر فان التدابير التى قررت اللجنة اتباعها لضبط الايام (مثل يوم الفاتحة – يوم كمال العطية يوم دفع النقد – يوم قطع الوعد ، يوم توجيه القياس ، يوم الفصالة ، يوم التنقيل ، يوم الحمام والتقبيب الخ..) المسموح باعتبارها ايام ايلام واطعام ورقص وتسميع والتزم فيها موقعوها بان يهجروا من يخالفها ولا يحضروا معه افراحا ولا اتراحا بقيت، فيما يبدو، على الاقل بالنسبة لفاس ، حبرا على ورق .

قلت بالنسبة لفاس اذ رغم ان تلك الحملة الاصلاحية انطلقت من هناك مرتين ، اي سنة 1336 وسنة 1345 هـ فان التشكي من كبوس تلك العادات واستنكار الاسراف والتبذير فى الافراح والاتراح استمر من اهم المواضيع التى ما فتيء كثير من ادباء فاس وكتابها وفقهائها واعيانها يثيرونها ، فى مقالاتهم وقصائدهم وخطبهم الى حوالي سنة 1356 هـ (1937) حيث بدأ مجرى التفكير يهدف الى « تحرر » اوسع نطاقا واشمل فائدة .

وقلت ايضا بالنسبة لفاس لان تلك الانطلاقة الاصلاحية مهدت السبيل لحركة مماثلة فى مدن اخرى كمكناس والرباط وسلا ومراكش حظيت بتأييد الملك الراحل **سيدي محمد الخامس** قدس الله روحه وبمساندة بعض العلماء ذوي النفوذ فاستنارت العامة بنورها واقلعت عن بعض منكراتها .

ان محاربة العادات القبيحة القديمة والتصدي لما قد يغزو الشباب (وحتى الكهول) من عادات قبيحة « حديثة » يقتضي من المسؤولين كثيرا من التيقظ والصبر ويستلزم فى افراد الامة قسطا وافرا من التعاون والتضامن ، ولا يتأتى ذلك الا بالتربية الصالحة للبنين والبنات التربية التى تضمن للاسرة توازن كيانها ولثروة البلاد البشرية نشاطات مثمرة نافعة .

بعض مراجع البحث :

(1) اتحاف اعلام الناس تاليف نقيب الشرفاء المرحوم مولاي عبد الرحمن بن زيدان
(2) الدرر الفاخرة لنفس المؤلف
(3) جني زهرة الآس تاليف علي الجزنائي
(4) مجلة المغرب (الرباط)
(5) مجلة السلام (تطوان)
(6) رسالة المغرب (سلا)
(7) جواب عن البحث الذي قمت به حول الصداق والشورة للفقيه المرحوم الحاج احمد سكيرج (لم ينشر)
(8) جواب في نفس الموضوع تفضل بارساله الفقيه المفتي المرحوم ابو بكر الطاهر زنيبر ، وقد نشر ، بعد ترجمته الى اللغة الفرنسية في مجلة Revue Africaine 1942

عبد القادر الخلادي



ساحة القلوب

للشاعر: المدني الحمراوي

اشرق العيد بالحبور سعيدا ... يملأ الجو بهجة ونشيدا

بجلوس المليك بشر شعبا ... ـن بالحب والولاء عهودا

جعل العرش مبدا وشعارا ... ورأى فيه مبتغاه الوحيدا

ورأى في جبين عاهله الشهـ ... ـم المفدى بشائرا وسعودا

حسن كاسمه فنعم المحيا ... عرف المجد فيه كفا وحيدا

اشرق السر في جبينه لما ... بايع الشعب فيه حرا رشيدا

حزم الامر باليقين فاضحى ... عرشه شامخا مهيبا صمودا

ومضى يكتب المآثر حتى ... اطرب المجد واسترق الحسودا

عرشه ساحة القلوب فلو شا ... ء ك محيدا لما اطاقت محيدا

جل من خص عرشه بالمعالي ... وحبا ملكه الرفيع صعودا

حار فيه القريض كيف يغني ... بسجاياه او يصوغ القصيدا

معجز وصفه فليس يواتي ... شاعرا او مؤلفا او منشدا

انه البحر ؛ انه النور اعشى ... كل راه وصد طرفا حديدا

هذه بيننا عظائمه الجمـ ... ـة فاقت كبارهن العديدا

همة الدهر قد تجلت يقينا ... في معاليه حتى فات الحدودا

فغدا آية بها اظهر اللـ ... ـه لآل الرسول سرا جديدا

فيه انعش الاله واعلى ... امة حرة ومجدا عتيدا

وبه وحد الاله قلوبا ... ومحا فرقة وصد الجحودا

كلما لاح للعيون تمشى … مجمع الحاضرين ان لا يحيدا

تتملى به القلوب فان غا … ب يغب انسها الى ان يعودا

يا عزيز البلاد يا روح شعب … ملك الحب شيخه والوليدا

ما راينا ولا سمعنا بعرش … احرز الحب - هكذا - والخلودا

فهنيئا لك الخلود يمينا : … ان هذا المن بديك استفيدا

انت فجرت فى البلاد نعيما … وحنانا كما وفيت الوعودا

فحبتك الولاء محضا وباتت … تصطفي منك مرشدا وعميدا

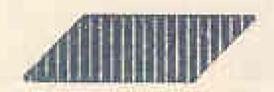
صانك الله يا رفيع المزايا … وحمى عرشك السعيد الوطيدا

واراك الرجاء فى صاحب العهـ … ـد كما تبتغي له ان يسودا

منية الشعب ان تعيش ليبقى … لابسا من ندى يديك برودا

انت والله روحه فاذا عشـ … ـت له عاش مطمئنا سعيدا

الرباط - المدني الحمراوي



رحلة سفارية إلى اسبانيا في عهد المولى اسماعيل

للأستاذ: محمد بن عبد العزيز الدباغ

بويع المولى اسماعيل بعد موت اخيه المولى الرشيد سنة 1082 هـ. وقد حضر بيعته جماعة من العلماء الذين كان لهم نفوذ عملي فى توجيه دواليب الحكم ببلاد المغرب ، ومن اعظمهم شأنا واقواهم جاها ابو علي اليوسي وابو محمد عبد القادر الفاسي .

وبمجرد تحمل اعباء الحكم اصبح المولى اسماعيل يفكر فى تمكين نفوذه بجميع اجزاء البلاد والعمل على نشر هيبة العلويين فى مختلف الاصقاع لا فرق بين الجنوب والشمال او الشرق والغرب .

ولقي عناء كبيرا فى محاربة ابن اخيه احمد بن محرز الذي اثار فتنا بالمغرب جعلت المولى اسماعيل يلاقي صعوبات فى القضاء عليها كما عمل على القضاء على منافسيه من اصحاب الزاوية الدلائية الذين حاولوا الاستيلاء على الحكم والذين تغلبوا على تادلة وعلى ما يجاورها من البلدان .

وراى المولى اسماعيل ان الدولة العلوية التى اصبحت مسؤولة عن تسيير البلاد المغربية لا يجوز لها ان تتساهل فى امر ضروري لحماية كيانها وحفظ وجودها وتحرير ارضها لذلك رأى ان تحرير الشواطىء المغربية من ايدي الاجانب اصبح داخلا فى المخطط العام الذى تريد الدولة تحقيقه وتنفيذه .

ان المولى اسماعيل تيقن ان حكمه للمغرب لا يستقر له قرار ما دامت بعض الشواطىء المغربية تحت قبضة الاجانب الذين كانوا قد استولوا عليها وحاولوا بذلك ان يتغلبوا على البلاد وان يستغلوا هذه الشواطىء لصالحهم سواء فيما يتعلق بازدهار اقتصادهم وتأمين اسطولهم او لاستغلالها لصيد الاسماك ولتهديد المواطنين ولقطع المواصلات بين المغرب والخارج حتى يصير المغرب منعزلا عن الجهاز الدولي فيتحكموا فيه متى شاؤوا .

واذا كان المسلمون فى اواخر الدولة السعدية قد شعروا بهذا الخطر فكانوا يعملون ما امكنهم لتحرير الشواطىء المغربية فان المولى اسماعيل راى ان هذا الامر لم يعد هينا ولا يمكن ان يبقى فى ايدي جماعات لا تستند الى قوة او عصبية او نظام اذ لابد من ان يدخل امر التحرير فى تصميم الدولة العام وان تتحمل الدولة جميع مسؤولياتها فى ذلك وان تعد له المال والرجال لتحقق النصر وتيسر لنفسها الغلبة على اعدائها .

وخير ما يقوم به العظماء من الملوك تحرير البلاد من الاعداء وتطهير جميع اجزائها من ربقة الاستعمار. وبالفعل فان المولى اسماعيل استطاع ان يحرر مدينة طنجة من يد الانجليز سنة 1095 هـ . بقيادة قائده ابي الحسن علي بن عبد الله الريفي كما حرر مدينة العرائش من يد الاسبانيين سنة 1101 هـ . بقيادة القائد ابي العباس احمد بن حدو البطوني .

ولا شك ان هذه المواقف الحاسمة فى تاريخنا جعلت للمغرب كيانا امام اعدائه واصبحوا ينظرون

اليه نظرة الخائفين الهالعين اذ ليس هنـاك شـيء يرفع من قيمة الدول امام الراي العام العالمي مثـل الانتصارات المتوالية التي تدخـل الرعب في نفـوس الجاحدين والمعاندين .

حقيقة ان هذا الرعب الذي احـدثه المـولى اسماعيل جعل كثيرا من الدول الاجنبية تود مسالمته وتتمنى مصالحته فسعى الفرنسيون في ربط العلاقات الودية بينهم وبين المغرب كما سعى الاسبانيون ايضـا في التقرب الى المغرب وتمنوا ان تحل المشاكل الموجودة بينهم وبيننا عن طريق المفاوضات .

وهنا وجد المولى اسماعيل الفرصة سانحة لان يبعث الى اسبانيا سفيرا خبيرا بشؤون البلاد عالمـا باحوالها مطلعا على مشاكلهـا ليطـالب الاسبانييـن بامريـن :

الامر الاول : تحرير الاسارى المسلمين الذين هم بقبضتهم .

الامر الثاني : المطالبة بالكتب الاسلامية الموجودة بالخزائن الاسبانية ومن المعلوم ان اغلب هاته الكتب استولى عليها الاسبانيون ايام السعديين فاوقفوهـا على مكتبة الاسكوريال .

وحيث ان الدولة العلوية اصبحت هي الدولـة الرسمية ببلاد المغرب فانها ترى ان حلول المشاكـل التي خلفتها الدولة السابقة اصبحت داخلـة تحت مسؤولياتها .

ووقع اختيار المولى اسماعيل على وزيره الاديب الشاعر ابي عبد الله محمد المدعو حمو بن عبد الوهاب الغساني الاندلسي الفاسي (1)

وكان هذا الوزير على ما يبدو مـن رحلتـه ذا ثقافة ادبية وخبرة بشؤون السياسة واطلاع علـى احوال الحكم ، وذا ذوق ادبي رقيق زيـادة على انـه كان دقيق الملاحظة ينتبه الى خبايا الامور ويحاول ان يحافظ على الشخصية المغربية في سلوكه العام سواء بالنسبة الى العقيدة الدينية او الى التقاليد الاخلاقية.

وقد وقع عليه الاختيار بعد الانتصارات الحربية التي حققها المولى اسماعيل في حروبه الشاطئيـة وخرج من المغرب في اواسط محرم سنـة 1102 هـ وقضى في رحلته هاته ما يزيد على ثمانية اشهر فهو حين هم بالرجوع خرج من مدريد في اليوم الاول من رمضان من نفس السنـة التـي توجـه فيهـا الى اسبانيـا .

ويبدو في رحلته انه ذو اطلاع ادبي يدل على انزاد المغرب من الادب في القرن الحادي عشر واوائل القرن الثاني عشر لم يكن ضعيفا .

ففي هذه الحقبة نجد اعلاما من الادباء والعلمـاء والمؤرخين اشتهروا في مختلف العلوم وتزودوا بالفقه والادب والتصـوف والمنطـق والقـراءات والحـديث والتفسير . وكان للزاوية الدلائية اثـر في تكوينهـم وتزويدهم بالثقافة العامة .

واذا لم يكن الغسـاني يمثل هذه الطبقة في عمق ثقافته فانه كان يمثلها في جمال اسلوبه الادبي حينما يعبر عن عواطفه او انفعالاته كما كان يمثلها في التعرض لبعض المشاكل الدينية التي كانت تأخـذ من الفكـر المغربي الحظ الاوفر .

ويبدو من دراستنا لرحلة الغساني هاته التـي سماها **رحلة الوزير في افتكاك الاسير** انه كان مطلعا على تاريخ الاندلس وتاريخ فتحها وادبها ولكنـه رغـم هذا الاطلاع فانه قد حدثت له هفوات او اضطرابـات افصح عن بعضها الاستاذ الفريد البستاني الذي صحح الرحلة ونشرها بمؤسسـة الجنرال فرانكو سنـة 1940 ميلادية . كما سنفصح عن بعضها في خلال العـرض الذي نقوم به الآن .

ان الثقافة الادبية العامة والاطـلاع على الادب الاندلسي والتزود من تاريخ الاندلس ، ان كل ذلـك جعل الغساني يتأثر بالمشاهد التي يراها ويتذكـر بسببها الماضي الاسلامي في بلاد الاندلس فهـو

(1) توجد ترجمته بسلوة الانفاس للكتاني ، وبنشـر المثاني للقادري . وتوفي بفاس سنة 1119 هـ وهو محمد بن عبد الوهاب . وقد وقع خطا مطبعي في مجلة البينة العدد السادس من السنة الاولى في مقال للوزير السيد محمد الفاسي عن الرحـلات السفارية المغربية فقالت عنه انه محمد بن عبد الواحد عوض محمد بن عبد الوهاب .

يقول (2) : « ولما اشرفنا على مدينة ايشكا (3) راينا بها من حسن المنظر وبهائه ما ليس فى غيرها من سائر مدن العدوة وهي فى غور من الارض على شفير الوادي المسمى بواد شنيل .

وشنيل هذا من حيث ابتداؤه عليه من المتنزهات والبساتين وحسن المنظر ما خامل عقول كثير من ادباء الاندلس وقد اكثروا فيه من قول الشعر على كل وزن وكل قافية ونظموا فيه من الازجال والموشحات ما لا يحصى ولا يعد، وما يفوت الحصر والحد .

فمن ذلك ما علق بالحفظ من قول اثير الدين ابي حيان رحمه الله وهو فى مصر يتشوق الى وطنه بغرناطة ويصف منازله بها ويبث شوقه واشجانه ويندب معاهده بها ومشاهده وهو قوله :

هل تذكرين منازلا بالاجبل
ومنازلا صفت بشطي شنبل

ومشاهدا ومعاهدا ومناظرا
ومقاصرا للقاصرات الرفل

حيث الرياض تفتحت ازهارها
فشممت اذكى من اريج المندل

والطير تشدو مفصحات بالغنا
فوق الغصون الناعمات الميل

فتثير للمشتاق داء كامنا (4)
وتديل سائر دمعه المتدلل

ويظهر للقارىء ان المؤلف فى تقديمه لهذه الابيات كان يملك رقة ادبية واناقة فى اللفظ والتعبير فاستعمل من السجع ما لا ينبو عنه الذوق ومن التوازن والموازاة ما جعل الاسلوب شيقا جذابا .

وابو حيان هذا الذى استظهر المؤلف بعضا من ابياته كان له اثر فعال على الثقافة العربية فقد كان شاعرا كبيرا ووشاحا رقيقا كما كان ذا اطلاع واسع على القراءات والحديث والفقه والتفسير زيادة على تبريزه فى النحو العربي .

وقد رحل من الاندلس الى بلاد المشرق فى القرن الثامن الهجري ويكفيه فخرا انه لما توفي بالقاهرة سنة 745 هـ . صلى عليه اهل الشام صلاة الغائب ومن اجمل شعره قوله :

عداتي لهم فضل علي ومنة
فلا اذهب الرحمن عني الا عاديا

هم بحثوا عن زلتي فاجتنبتها
وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا

ولم يقتصر الغساني على استظهار ابيات ابي حيان فقد تحدث ايضا عن الشاعرة حمدة الاندلسية فقال : « ولقد ذكرني ما شاهدته من حسن هذا الوادي وبديع منظره وبهائه قول حمدة الاندلسية الشاعرة التى من وادي آش :

اباح الدمع اسراري بواد
له فى الحسن آثار بوادي

فمن نهر يطوف بكل روض
ومن روض يطوف بكل وادي

ومن بين الظباء مهاة رمل
سبت لبي وقد سلبت فؤادي

لها لحظ ترقده لامر
وذاك الامر يمنعني رقادي

اذا سدلت ذوائبها عليها
رايت البدر فى جنح السواد

كان الصبح مات له شقيق
فمن حزن تسربل بالحداد

ومن المعهود فى علم الادب ان الاختيار يدل على ذوق صاحبه فان هذه الرقة التى توجد فى الابيات التى علقت بحفظه لدليل على انه ذو رقة ادبية وروح شاعرية الا انني حينما قارنت هذه الابيات بالمصادر الاصلية التى تتحدث عن حمدة الشاعرة وجدت فيها تغييرا (5) فعوضها بكلمات اخرى وحافظ فى الوقت نفسه على المعنى والقالب ؛

(2) الصفحة الخامسة عشرة من « **رحلة الوزير فى افتكاك الاسير** »
(3) فى فهرست المدن والقرى والاماكن الواردة بهذه الرحلة ومقابلها باللغة الاسبانية نجد ما يلي : ايسكا (ازيخة) Ecija ونجد ويسكا (وشكا) Huesca
(4) كتب هذا الشطر فى الرحلة منحرفا فصححناه على هذه الصيغة
(5) توجد هذه الابيات بكتاب نفح الطيب ج 6 صفحة 23 وفى بعضها تغيير عما هي عليه فى الرحلة .

والغالب انه لم يكن عالما بهذا التغيير وانما جاء عفـوا واعانه عليه قدرته هو نفسـه على الخلق والابداع فقد كان الغساني يمتاز بشاعرية رقيقـة يضيـف اليهـا اهتماما بالمحسنات ويظهر ذلك في بيتين من الشعر جعلهما تضمينا لبيت من شعر الحريري فهو يقـول في هذا الموضوع نفسـه :

« وقد انشدت حين ابصرت هذه المدينة وجميل منظرها متمثلا ببيت من الحريري وضمنته بيتيـن آخرين :

اليت اذ نظرت عيني محاسنهـا
ان لا نظير لها في مطلق الصـور

وهذان بيتا التضمين تذليلا :

فالله ينقذها حتـى يـدان بهـا
دين المهيمن محروسا من الكـدر

بكف محتسـب للاجـر منتـدب
لله منتسـب لافـضـل البشـر

وهكذا نرى ان سفير المولى اسماعيل هاجـت نفسـه لرؤية البلاد الاندلسية بيد الاسبان وتذكر حكم المسلمين هناك وتمنى ان تعود الى حكم المسلمين من جديد على يد المولى اسماعيل رحمه الله .

وهذه الامنية كان يرددها شعراء المولى اسماعيل كثيرا لان فتوحاته احيت املهم وجعلتهم يتذكرون ايام الزلاقة والارك فمن ذلك مثلا قول الشاعر ابي محمد عبد الواحد بن محمد الشريف البوعناني (6) :

ابا مولاي قم وانهض وشمـر
لاندلـس فانـت لهـا الامـيـر

ان الغساني اذن يمثل الظاهرة الادبيـة التـي كانت في عصره ويعبر عن الخواطر التي كان يكنهـا المغاربة ثم ابدوها للمولى اسماعيل صادقيـن حيـن راوا فيه الامل المنتظر وشخصوا فيه الشجاعة المثلـى والقدرة على تحقيق الامل الضائع واسترجاع الحـق السليـب .

واغلب الظن ان المولى اسماعيل لو لم تضع كثير من قواه في تهدئة الحروب الداخلية لاستطاع تحقيق هذه الاماني التي كان يرددها الشعراء في عصـره ويعبرون بها عن آمال المسلمين عامة .

ولم يكتف الغسـاني بتسجيل خواطره الادبيـة واظهار لوعته الروحية بل صار يسجل تلك الحفـاوة الكبرى التي لقيها الوفد المغربي في بلاد الاندلس مدة اقامته هناك سواء من الشعب الاسبـاني او من الملـك كارلوس الثاني وحاشيته كما يصور ذلك التعلق الذي ابداه الاسارى المسلمون الذين كانوا يستقبلون الوفد بالترحيب والتهليل ويعلنون بلفظ الشهادة وبالدعوة بالنصر للمولى اسماعيل المنصور بالله .

ويظهر في رحلة الغساني انـه كـان يـرى ان الاعتزاز بالشخصية المغربيـة والاسلاميـة ضـروري لتحقيق الغاية من سفارته لانه كـان يخشى اذا مـا استهان بمقومات الشخصية المغربية في البلاد الاجنبية ان تتلاشى سطوته وتزول هيبته وتضيـع الاغـراض التي يهدف اليها من سفارته .

ويمكن ان نلاحظ هذا الاعتزاز في موقفين :

الموقـف الاول حيثمـا وصـل الى مدينـة مانسنـارس Manzanares قبل بلوغه الى مدريد فانه يقول : « فدخلنا دار الكليرك (7) المذكور ففرح بنـا فرحا شديدا وارانا جميع ما عنده من الصور وما في معناها اذ كان معجبا بها وكثيرا ما تضرع ورغب في ان نساعفه في شرب شيء من الخمر اطنب في شكره وزعم انه قديم عنده وله سنين عديدة فقلنا له لا يحل ذلك في ديننا ولا يسـوغ في ملتنا فجعل يشفـق من شربنا الماء البارد صرفا » .

واما الموقف الثاني فيتجلى في اصراره على ان يكون السلام الذي يسلم به على الملك الاسباني موافقا للسلام الذي يسلم به على غير المسلم وهو السلام على من اتبع الهدى من غير زيادة عليها .

(6) الاستقصا في تاريخ دول المغرب الاقصى للشيخ احمد الناصري ج 4 صفحة 35، وهذا البيت مأخوذ من قصيدة رائعة مدح بها المولى اسماعيل بعد فتح العرائش وتحريرها من يد الاسبان .

(7) فسر الغساني الكليرك بانه رجل ديني عند النصارى يقرأ علومهم ويخدم في المساجد آلة الموسيـقى ويقرأ كتب صلواتهم بالحان واصوات منتقاة ، ومن المعلوم ان المراد به كما دون ذلك البستاني في فهارسه Clérigo

ولقد حدثنا الغساني ان المولى اسماعيل قد جعل في مرسومه امكان الاستغناء عن الكتب اذا ما تعذر ذلك وتعويضها بتحرير اسارى آخرين .

ولما وجد ملك الاسبان هذه الرخصة استبشر بها لانه تعذر عليه اعطاء الكتب وادعى انها قد احرقت ولكنه استجاب للتحرير فقبل الوفد المغربي ذلك .

وكان الغساني في رحلته اذا ما تحدث عن النصرانية ازدرى بالرهبان وسخر منهم ودعا عليهم بالبوار والتدمير وحرص على محاجتهم ومجادلتهم فهو يقول : (8) « ولقد وجدت بمدريد راهبا من رهبانهم ورد من البلاد المشرقية يتكلم باللسان العربي وله خبرة ببعض اديان المشارقة من المسلمين لمخالطته معهم وسكناه بين اظهرهم فتجاولنا في الكلام الى ان قلت له : ما تقول في المسيح ؟ .. فقال: انه من الله ! .. فقلت: «من» هذه ان قلت انه كالبعض من الكل جزأته والباريء لا يتجزأ ، وان قلت انه كالولد من الوالد اوجبت ثانيا من الاولاد وثالثا ورابعا الى ما لا نهاية له، وان قلت على سبيل الاستحالة اوجبت فسادا والباريء جل شانه لا يستحيل ولا ينتقل من حال الى حال فلم يبق الا ان يكون على سبيل الخلق من الخالق وهو الحق الذي لا شك فيه . فصمم الكافر اخزاه الله على ما عليه اعتقادهم واعتقاد البابا دمرهم الله من اعتقادهم الاستحالة تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا » .

وهكذا نجد ان الغساني في رحلته حينما تعرض الى موضوع النصرانية والاسلام حاول ان يبرهن على سلامة العقيدة الاسلامية ولكنه سار في حديثه وحواره على منهاج كان معروفا عند كثير من المؤلفين في تلك الحقبة سواء كانوا مسلمين او غير مسلمين الا وهو لعنة الطرف الآخر والدعوة عليه بالهلاك والبوار .

وفي رحلته هاته سخر من معتقد المسيحيين الذين كانوا يومنون بأن المسيح قد صلب وقتل واستدل بقوله تعالى : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ، وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم، الا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا ، بل رفعه الله ، وكان الله عزيزا حكيما » (9) .

ولقد تقدم لنا ان الغساني حدثت له بعض الهفوات حين التاليف ومن ذلك ما حصل له من الاضطراب حينما كان يتحدث عن جزيرة طريف وعن فتح طارق بن زياد للاندلس وهذا هو الذي اشار اليه الاستاذ الفريد البستاني واما الذي لم ينتبه اليه فهو ما ذكره الغساني مثلا حينما كان يتحدث عن جامع قرطبة فقد قال ان عبد الرحمن الداخل ابتاع موضع الجامع بقرطبة سنة تسع وتسعين ومائة (10) وهذا خطأ بين لان عبد الرحمن الداخل توفي قبل هذا التاريخ بسبع وعشرين سنة فقد توفي سنة 172 هـ وهذا الشراء المذكور قد وقع سنة 168 هـ هذا زيادة على تحريف بعض الاسماء وبعض النصوص وهذا مما يدل على ان المؤلف حين تاليفه للرحلة كان يعتمد احيانا على محفوظاته اكثر مما يعتمد على المصادر ومن ذلك تحريفه لاسم التابعي عبد الله بن يزيد الحبلي (11) الانصاري فقد سماه ابا عبد الرحمن عبد الله بن يزيد الحلبي (12) . وتحريفه للقطعة التي تقدم لنا ذكرها من قبل .

وقد كان يحاول المؤلف احيانا ان يتلافى هذا الخلل فكان يكتفي بذكر الحوادث دون ذكر تاريخها ويشير الى ذلك بعبارة تدل على عدم يقينه فيقول مثلا : وفي سنة كذا اما اذا وجد الفرصة للتحقيق ولم يتعذر عليه استحضار المصادر فانه كان يعتمد عليها ومن مصادره التي اعتمدها كتاب الرايات للرازي وكتاب نزهة المشتاق للادريسي .

ورغم ان النصوص التي اخترناها من الرحلة تصور جانب التعبير العربي العادي فان الرحلة لم تسر على هذا النسق في جميع مراحلها بل استعمل المؤلف كلمات متداولة في الدارجة المغربية كما استعمل كلمات اسبانية الحقها بمدلولاتها العربية .

---

(8) الرحلة نفسها صفحة 93

(9) سورة النساء 157 و 158 لقد اخطأ مصحح الرحلة حينما رقم الآيتين بـ 155 و 156

(10) الرحلة صفحة 19

(11) كذا في نفح الطيب وقد جاء في تعليق الاستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد ان الخزرجي قال : « عبد الله بن يزيد المعافري الحبلي بضم المهملة والموحدة ابو عبد الرحمن المصري ، توفي سنة مائة ، الجزء الاول صفحة 260

(12) الرحلة ص 111

وبذلك يمكننا ان نلاحظ واقعية الغساني في رحلته فانه حيثما كان يعبر عن ارتساماته كان يجد نفسه مضطرا الى الاستعانة في التعبير بالكلمات الاسبانية الاصلية لما لها من ايحاء في الموضوع ثم يترجمها ترجمة دقيقة او يشرحها شرحا وافيا وبذلك كان موقفه شبيها بموقف المترجمين الذين يشيرون احيانا بعد الترجمة او الشرح الى الكلمة الاصلية المرادة ويكتبونها بحروفها اللاتينية مثلا ليدرك القارىء المقصود من ذلك . واغلب ما يحدث هذا في ترجمة المصطلحات الدينية والعسكرية والعلمية والفنية والمراسيم الديوانية .

ولقد وفق مصحح الرحلة السيد البستاني في وضع فهرس للالفاظ والتعابير المغربية والاسبانية التى استعملها المؤلف في كتابه واضاف اليها ترجمة الاعلام الاسلامية والاسبانية فكان بذلك خير معين للقراء على معرفة مضمون الرحلة .

ولقد استمرت هذه الرحلة ثمانية اشهر كان الوفد المغربي فيها يتمتع بالاحترام والتقدير .

وكانت هذه الرحلة اولى الرحلات المغربية في عهد العلويين الامجاد الى اسبانيا وقد مهدت السبيل الى رحلات اخرى كرحلة الغزال ورحلة محمد بن عثمان المكناسي في عهد المولى محمد ابن عبد الله (13)

وقد اعتنى المؤرخون بدراسة هذه الرحلات لانهم وجدوها من اهم المصادر التى يطلعون بها على العلاقات السياسية والروابط العامة بين المغرب واسبانيا ايام الدولة العلوية الشريفة زيادة على انها تصور جانبا مهما من جوانب النهضة الادبية والعلمية في بلادنا وتدلنا على الاسلوب العام الذى كان يستعمله كتابنا في عهد العلويين الامجاد. فما على ادبائنا ونقادنا ومؤرخينا الا ان يعملوا ما في مستطاعهم للتعليق على هذه الرحلات وتقديمها للقراء حتى يتسنى لنا التعرف على ماضينا المجيد . والاطلاع على ظاهرة من ظواهر الادب العام في بلادنا .

فاس ـ محمد بن عبد العزيز الدباغ

---

(13) يمكن الاطلاع على بعض هذه الرحلات في مقال السيد الوزير محمد الفاسي بالبينة العدد السادس



الإصلاح والتجديد في عهد الدولة العلوية

للأستاذ عبد اللطيف خالص

عاشت المملكة المغربية منذ منتصف القرن الحادي عشر الهجري عيشة راضية مرضية عرفت فيها النعيم المقيم والرخاء العميم واعطت الدليل القاطع على نجاح الامم والشعوب وضمان مستقبلها ورقيها بفضل الاستقرار والنظام وروح التآخي والوئام بين الحاكمين والمحكومين وتبادل عواطف التعلق والمحبة بين الرؤساء والمرؤوسين واتفاق اهداف الملوك والمملوكين . ولم يكن بوسع بلادنا ان تسير هذه المسيرة الموفقة لو لم يهدها الله رشدها ويقيض لها قادة جعلوا من اصلاح احوالها وتوطيد صفوف ابنائها وتجديد امورها الغاية السامية من ملكهم والمثل الاعلى فى حكمهم . وما كانت بلادنا لتتمتع بهذه الخطوة لو لم تنعم خلال ما يقرب من خمسة قرون باستقرار نظامها السياسي والانقياد لسلطان ملوك الدولة العلوية التي انبثقت من دعوة اصلاحية وقامت على اسس التجديد والبناء واستمرت الى وقتنا هذا تسعى لتحسين احوال البلاد وتنظيم شؤونها الاجتماعية والاقتصادية وتقود الامة المغربية من معركة حاسمة الى معركة فاصلة رغبة فى تحرير الوطن والمواطنين وسعيا فى الانطلاق نحو الازدهار والخروج من التخلف والانحطاط .

ولعل ابرز الخصال التي اتسمت بها الدولة العلوية واجل السمات التي طبعت اعمال الملوك العلويين حبهم فى الاصلاح ورغبتهم فى التجديد . فقد كانت الجهود التي بذلوها وهم يمثلون العرش المغربي المجيد تهدف اولا وقبل كل شيء الى تنظيم البلاد ودفع عجلاتها نحو الرقي والتقدم حتى تساير ركب الحضارة والتطور وتأخذ المكان اللائق بها بين الامم . وقد شملت اعمال التجديد والاصلاح مختلف الميادين كما اكتست الوانا متعددة واشكالا متنوعة كان ابرزها تنظيم الجيوش وتوحيد البلاد وطرد الاجانب عن ربوعها والاصلاح الديني والتربوي وتجديد الاساليب الحربية والديبلوماسية واعمال البناء والتشييد وحركات العمران وتكوين البعثات والسفارات والاهتمام بالقضايا العلمية . وقد تجلت هذه الروح الوثابة نحو الاصلاح والتجديد فى اعمال مختلف الملوك العلويين سواء منهم الذين حازوا فضل الاسبقية عند ما آل اليهم امر توطيد اركان الدولة العلوية كالمولى الرشيد والمولى اسماعيل وسيدي محمد بن عبد الله والمولى سليمان الذين واجهوا صعوبات جمة فى توحيد اطراف المملكة وتحرير الاجزاء التي كان يغتصبها الاجانب وتوطيد العرش او الذين جاءوا بعد هؤلاء القادة فساروا على نهجهم وتبعوا سيرتهم من بعدهم كسيدي محمد بن عبد الرحمان والمولى الحسن الاول ومولاي عبد الحفيظ الذين لم يتوانوا فى اتخاذ القرارات الحاسمة الكفيلة بضمان سلامة البلاد والحفاظ على سيادتها . وقد نال القدح المعلى . فى هذه الدولة جلالة الملك الراحل سيدي محمد الخامس الذي تولى العرش فى احلك الظروف واصعب الاحوال والذي اخذ على عاتقه تحرير البلاد من السيطرة الاجنبية التي فرضت عليها منذ امضى المغرب عقد الحماية فى ثاني عشر مارس 1912

وتوحيد التراب الوطني ومساعدة الامة المغربية على التكيف مع الوان المدنية الحديثة واساليب التحكم في العالم المعاصر. وقد حمل لواء الجهاد الاكبر بعد جلالة الملك الراحل محمد بن يوسف طيب الله ثراه ولده البار حضرة صاحب الجلالة والمهابة ملكنا الشاب الحسن الثاني الذي يعتبر بحق واسطة عقد الملوك العلويين والجوهرة النفيسة في هذا السلك الثمين المتمثل في هؤلاء الملوك والقادة الذين انحدروا من العترة النبوية العلوية والسلالة المحمدية الزكية. وقد دخل المغرب في ظل هذا الملك الهمام في عهد جديد مشرق يتميز بالصراع المتواصل لاتمام تحرير البلاد والعمل على تحررها من رواسب الاستعمار الاقتصادية والثقافية ومقاومة الجمود الفكري والجحود الديني وارساء دعائم الملك على نمط عصري يجمع بين مقتضيات التطور ومتطلبات العصر الحديث من جهة وتقاليد المغرب العريقة المجيدة وعاداته العتيقة العهيدة من جهة اخرى.

وقد لا نوفي الموضوع حقه اذ لم نشر الى ان الشرفاء العلويين لم يدخلوا بلاد المغرب رغبة في فتحه او تولي حكم ابنائه ولكنهم جاؤوا الى المغرب تلبية للرغبات التي عبر عنها سكانه الذين كانوا يرسلون الوفود والبعثات الى الحجاز ويلحون على المولى قاسم ليوجه معهم احد ابنائه يبث في البلاد المغربية الدعوة العلوية وينشر الرسالة المحمدية ويكون بمثابة الموجه والمرشد يستشيرونه في معضلات الامور حتى يتبركون به تصلح احوالهم وتطمئن نفوسهم. وقد روى اليفرني في روضة التعريف ان بعض المؤرخين ذكر ان اهل سجلماسة لما طلبوا من المولى قاسم بن محمد ان يبعث معهم احد اولاده وكان يومئذ من اكبر شرفاء الحجاز ديانة ووجاهة اختبر من اولاده من يصلح لذلك وكان له على ما قيل ثمانية من الولد فكان يسال الواحد بعد الواحد ويقول له: « من فعل معك الخير فما تفعل معه انت؟ » فيقول: « الخير »، « ومن فعل معك الشر؟ » فيقول « الشر » فيقول قاسم « اجلس » الى ان انتهى الى المولى الحسن الداخل، فقال له كما قال لاخوته فقال: « من فعل معي الشر افعل معه الخير » قال قاسم: « فيعوده لك بالشر » قال الحسن: « فاعود له بالخير الى ان يغلب خيري على شره » فاستنار وجه المولى قاسم وداخلته اريحية هاشمية ودعا له بالبركة فيه وفي عقبه (1).

لقد ذكرنا هذه الحكاية باختصار حتى نعرف ان هؤلاء الشرفاء قد وردوا على بلادنا بنفوس تطفح بالخير وقلوب ملؤها الاصلاح ليكونوا خير قدوة للسكان الذين توسموا فيهم الصلاح. وقد اجمع المؤرخون على صحة شرف الملوك العلويين وتفرعهم من الدوحة المحمدية حتى قال الشيخ ابو علي اليوسي: شرف السادة السجلماسيين مقطوع بصحته كالشمس الضاحية في رابعة النهار. وقال ابو العباس احمد بن عبد الله بن معن الاندلسي: « ما ولي المغرب بعد الادارسة اصح نسبا من شرفاء تافيلالت » (2).

وقد حل المولى الحسن الداخل بالمغرب في القرن السابع الهجري، وكان محل تعظيم واجلال نظرا لشرفه واصلاحه وعلمه، وكانت له مشاركة في العلوم والمعارف الاسلامية من فقه وحديث وبيان. ولعل هذا ما زاده تعظيما ورفعة واحتراما منذ ذلك الوقت الى الآن اذ اطلق اسمه على اعظم سد يبنى اليوم في جنوب بلادنا رغبة في ربط حاضر هذه الدولة بماضيها المجيد وتقديرا لاعمال الاصلاح والتجديد التي حققها هو وذريته من بعده لصالح هذا البلد الامين.

وممن اشتهر من هذه الاسرة بالفضل والصلاح والجهاد المولى علي الشريف الذي خلف مناقب جليلة ما زالت تشهد بعظمته والذي استنجد به اهل الاندلس لمقاومة العدو بعد ما راودوه وهو مقيم عندهم على ان يبايعوه ويملكوه عليهم فأبى ورفض، وقد جاء في احدى الرسائل التي بعث بها اليه اهل الاندلس قصيدة لابي فارس بن الربيع الغرناطي يقول فيها مخاطبا المولى عليا الشريف.

وخص سليل الهاشمي ابن صهره
علي الذي يسلو على زحل قدرا
اجر جارك اللهفان من غمراته
ابا حسن وانصر جزيرتك الخضرا

❋

سليل ابي اسحاق اكرم به ابا
لقد خلف الفرع الزكي الرضا البرا

---

1) اليفرني: روضة التعريف. ص 16 (طبعة 1382 — 1962)
2) الناصري: الاستقصا. ج 7 ص: 4.

واوقع بالكفار اي وقيعـة
فمن لم يمت بالسيف مات له ذعرا

واصبح ثغر الدين اشنب باسما
وارمق وجه الفكر من حزن تترا

ونال من الله السعادة والرضى
وجنات عدن في المعاد له ذخرا

وقد دخل المولى علي بلاد السودان مجاهدا في سبيل الله عاملا على نشر الوية الدين الاسلامي بربوعه فرزق الظفر وعرف النصر والفتح المبين . وقد تواصلت حلقات هذه السلسلة الى المولى علي الذي خلف بدوره ذرية صالحة نذكر منهم المولى امحمد (فتحا) والمولى الرشيد والمولى اسماعيل وقد تعاقب هؤلاء الملوك على العرش المغربي .

واذا كان عمل هؤلاء الاجداد قد اتسم بنشاط فردي ودعوة شخصية الى الاصلاح نظرا لنفورهم من الحكم رغم الانتصارات الباهرة التي عرفها بعضهم في حياته كالمولى علي الشريف الذي كان باستطاعته أن يدعو الى عقد البيعة له ولعقبه بالمغرب والاندلس نظرا لرغبة الاهالي والسكان بالسدوتين في تلك البيعة فان المولى امحمد ومن بعده المولى الرشيد والمولى اسماعيل قد اضطروا الى استعمال نفوذهم وبسط سلطانهم عند ما كثر استصراخ سكان سجلماسة فيهم وبعد ما ساءت سيرة ابي حسون السملالي الذي ارهق السكان بالضرائب الى حد الاعتساف وبالغ في ضرب الخراج على اهل سجلماسة الذين صاروا مطالبين بدفع الخراج اذا « وجدوا في الشمس زمن الشتاء وفي الظل زمن الصيف » على حد تعبير صاحب « الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى » .

وهكذا قر عزم المولى محمد على القضاء على اهل تابوعصامت واصحاب ابي حسون كما قر عزم سكان سجلماسة على الاطاحة بهؤلاء الحكام واجمعوا الراي على مبايعة المولى محمد سنة خمسين بعد الالف من الهجرة في حياة ابيه . ومنذ هذا التاريخ ابتدا عهد الدولة العلوية الذي اتسم بمحاربة الدجالين والثوار والقراصنة والمعتدين الاجانب على ربوع المغرب وشواطئه وبتشييد وحدة وطنية دعامتها العرش العلوي الذي التفت حوله الامة وبوضع التنظيمات والتجهيزات الاساسية التي كان وما يزال يفتقر اليها المغرب .

واذا كان فضل تأسيس هذه الدولة يرجع الى المولى محمد الذي كان عقد البيعة له فاتحة عهد جديد فان المولى الرشيد عمل على وضع دعائم الدولة الفتية وتنظيم البلاد وربط اتصالات تجارية مع بعض الاقطار الاوربية كفرنسا التي بادرت بامداده بالاسلحة بعد ما اذن كولبير بتصدير المدافع والعتاد الحربي الى سلطان المغرب . ورغم محاولات الاغراء التي كان يقوم بها بعض تجار مرسيليا فلم تغب على المولى الرشيد نوايا الفرنسيين الذين كانوا يرغبون في احتلال بعض المراكز بالشاطىء الريفي . وقد خلف لنا رولان بريجوس وثيقة سرية حكى فيها بتفصيل أهداف شركة البوزيم التي كان يمثلها وما كان يقصد اليه من وراء معاملتها مع المولى الرشيد الذي كان يرفض التعامل مع الاجانب حتى لا يرتكب نفس الاخطاء التي ارتكبها السعديون من قبله (3) .

ورغم اشتغال المولى الرشيد بالحروب والمعارك التي كان يستعر اوارها الدلائيون واهل فاس وحلفائهم من الحياينة ومواصلة اعمال الفتح التي يتطلبها توطيد اركان الدولة الجديدة فانه لم يتوان في الاهتمام بتنظيم البلاد وبناء المنشآت والاعتناء بالطلبة الذين ساعدوه على ارساء قواعد الملك والذين كانت تربطه بهم علاقات العطف والود والحنان . وقد بلغ هذا العطف درجة ادت بالمولى الرشيد الى تنظيم حفلة سلطان الطلبة (4) التي أمر صاحب الجلالة الحسن الثاني باحيائها في عهده الزاهر . ومن اهتمام المولى الرشيد بالعلم ورجاله بناؤه لمدرسة الشراطين بفاس وحضور مجلس الشيخ اليوسي بالقرويين، كما ذكر ذلك صاحب نشر المثاني ؛ وتردده على بيوت رجال العلم والمعرفة ؛ ومن اعمال التجديد والاصلاح التي طبعت ايام ملكه ضرب السكة الرشيدية في آيت عياش من برابر صنهاجة وضرب فلوس النحاس المستديرة بعدما كانت قبل مربعة واعطاء الموزونة قيمة اربعة وعشرين بدلا من ثمانية واربعين .

وقد حاول المولى الرشيد انعاش الحياة الاقتصادية فاقترض تجار فاس اثنين وخمسين الف مثقال قصد التجارة على ان يردوها بعد سنة وبالاضافة

3) هنري تيراس : تاريخ المغرب ج 2 — ص 250
4) نفس المصدر ج 2 — ص 245

الى المنشآت التربوية والدينية التي شاهدت النور في عهد هذا السلطان امر المولى الرشيد ببناء قنطرة نهر سبو خارج فاس . ومن الاعمال التي سجلها التاريخ في عهد السلطان تأليف جيش شراقة الذي كان يتكون من العرب والبربر الذين انفوا من ولاية الترك ورغبوا في الانضمام الى ملك المغرب ونصرته . ويعد هذا العمل بادرة جديدة في هذا الميدان اذ لاول مرة نظم جيش وطني موحد في عهد الدولة العلوية وعين له مكان بين سبو وورغة للاقامة فيه بعد ما بنى له المولى الرشيد القصبة الجديدة بفاس . وقد خصص لهذا الجيش قدر من المال يواجه به النفقات التي يتطلبها تسييره .

وعلى كل حال فقد تميز عهد المولى الرشيد باستتباب دعائم الدولة الجديدة التي لم تعتمد في اوضاعها لا على عصبة او عنصرية مبنية على الجنس أو اللون او الدين ولا على نعرة قبائلية كما كان الشأن بالنسبة للدول التي سبقتها ؟ فقد اعتمد المولى الرشيد على العرب والبربر في آن واحد ووحد الانصار في جنوب البلاد وشمالها وشرقها وغربها .

وقد استطاع ان يجوب البلاد طولا وعرضا ويضع حدا للفوضى والفتنة التي كانت ضاربة اطنابها في ارجاء المغرب كما توفق الى وضع اصلاحات جزئية في ميادين القضاء والتعليم والنقد والجيش وتشييد منشآت عمرانية كقنطرة نهر سبو وآبار السلطان التي ما زالت معروفة بهذا الاسم حتى الآن والتي حفرت بالشط من بلاد الظهراء حتى يستقي منها ركب الحجيج في ذهابه وايابه .

ومع ذلك فقد ظلت بعض القضايا معلقة بعد مماته مثل مشكل القراصنة وعلاقات المغرب بالخارج واقامة حكومة صحيحة تولى تدبير الامور .

وقد تصدى المولى اسماعيل لحل هذه المشاكل بشجاعة ومقدرة عند ما ولي الحكم بعد اخيه كما تصدى لاسترجاع الاراضي المغتصبة من طرف الاجانب واتمام توحيد البلاد بعزيمة نادرة وباس شديد ومما ساعد المولى اسماعيل على الاضطلاع بمأموريته وتحقيق المنجزات وتشييد المنشآت التي خلفها طول مدة حكمه التي اربت على الستين سنة اذا اعددنا سبع سنوات التي قضاها واليا على مكناسة الزيتون من قبل اخيه وخضوع البلاد لسلطانه ، وانتشار الامن والسلام في ربوع المملكة باسرها وتأسيس الجيش الوطني العتيد العديد الذي كونه من العبيد والودايا وغيرهم كالاجانب والقراصنة الذين كان المولى اسماعيل يأسرهم في المعارك والغزوات الكبرى التي خاضها ضدهم . وبازاء هذه الاعمال عمد المولى اسماعيل الى بناء أزيد من سبعين معقلا عسكريا في ربوع البلاد حسب ما ذكر ذلك الزياني . وقد ذكر تيراس ان هذه القصبات كانت على ثلاثة انواع : منها ما كان معدا لمراقبة المناطق التي كان سكانها يحاولون خلع الطاعة ومكلفا بالعمل على حراستها كما هو الشأن بالنسبة للقلاع الموجودة في الاطلس المتوسط ومنها ما كان القصد منه تحصين نقط المواصلات وطرق السير واستغلالها كمراكز لقوافل المسافرين يستريحون بها من عناء السفر ويستعدون للمرحلة التي تنتظرهم كالقلاع المبثة في الطرق التي تصل تازا بوجدة ومكناس بفاس ومراكش بتافيلالت وتارودانت، ومن هذه القلاع ما كان يهدف الى حماية المدن الكبرى ويصلح في نفس الوقت لاقامة جيش العبيد ومراكز لتدريبهم (5) .

وقد قضى المولى اسماعيل ازيد من ربع قرن في تمهيد البلاد وفرض سيطرة الادارة المركزية عليها حتى عم الامن والرخاء جميع اطراف المملكة ، ولم يكن باستطاعة هذا الملك الهمام ان يضمن الخضوع المستمر لسلطته والطاعة الدائمة له ولقواده لو لم يعد هذه القلعات (القصبات العسكرية) التي جعلته يشرف على طرق المواصلات والنقط الستراتيجية بالبلاد ويطمئن على وصول مراسلاته وتعليماته لجميع القواد والسكان والحكام العاملين تحت امره ولو لم ينظم جيشا مغربيا عتيدا كان أول جيش منظم في المغرب واعتقد ان اعظم مظهر للتجديد والاصلاح في عهد هذا الملك الهمام هو هذا الجيش الذي نجح المولى اسماعيل في وضع قواعده الراسية وتنظيماته الثابتة .

وقد استطاع المولى اسماعيل ان يؤلف داخل هذا الجيش بين عناصر متنافرة جمعها في مشرع الرمل بالقرب من سيدي سليمان الذي كانت تتجمع فيه الوحدات التي يتم اختيارها وبقيادة الجيش بمكناسة الزيتون وبغيرهما من القلاع والقصابي التي انشاها

5) تيراس : 2 ص 258 وشارل اندري جوليان ج 2 ص 231 .

السلطان لهذه الغاية . وكان هذا الجيش يتركب من جيش الوداية الذي كان يتكون من القبائل المخلصة للعرش العلوي وجيش الريف الذي كان يضم القبائل الريفية التي خاضت معارك عديدة ضد الاجانب المحتلين للشواطىء المغربية وجيش عبيد البخاري الذين جمعهم المولى اسماعيل من بقايا العبيد الذين اتى بهم المنصور السعدي والذي بلغ عددهم في عهد هذا السلطان مائة وخمسين الف نفر .

وقد ذكر الناصري في الاستقصا ان المولى اسماعيل لما ظفر بهؤلاء العبيد جمع اعيانهم واحضر نسخة من صحيح الامام البخاري وقال لهم :

« انا وانتم عبيد لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرعه المجموع في هذا الكتاب ، فكل ما امر به نفعله وكل ما نهى عنه نتركه وعليه نقاتل » فعاهدوه على ذلك وامر بالاحتفاظ بتلك النسخة وحملها حال ركوبهم وتقديمها امامهم في حروبهم (6) وكان جيش المولى اسماعيل يضم كذلك جيش الشراردة الذين كتبهم السلطان في الديوان وكلفهم بمراقبة بني يزناسن الذين كانوا يناصرون الاتراك .

وكانت وحدات الجيش الاسماعيلي تتركب من المشاة والخيالة والرماة الطبجية الذين كانوا في عهد هذا الملك العظيم يستعملون المدافع والمجانيق والكور والقنابل وآلات الحصار والمخازنية الذين يشكلون عنه الحرس الملكي والذين عهد لهم بحراسة المدن وتحصينها (7) زيادة على حماية السلطان والذود عنه .

ويبدو من آثار بعض المعاصرين لمولاي اسماعيل ان جيش هذا الاخير كان يتركب من رجال متدربين منذ حداثة سنيهم على الاعمال العسكرية ومتوفرين على تكوين حربي متين يمكنهم من حسن ركوب الخيل واتقان الرماية وحمل السلاح كما اشار الى ذلك المؤرخ المغربي عبد الرحمان بن زيدان في كتاب مخطوط سماه « المنزع اللطيف في التلميح لمفاخر مولاي اسماعيل الشريف » وكانت العناصر النظامية في هذا الجيش تحصى في سجلات خاصة وتقيد اسماؤها وتجري عليها الجرايات وان كان هذا الديوان لا يشمل الا العبيد واهل سوس . ومن اجل الابتكارات التي توصل اليها المولى اسماعيل عند تنظيم هذا الجيش سهره على ان يتم تدريب الجنود تدريبا مزدوجا مدنيا وعسكريا فقد كان هؤلاء الجنود في صغرهم ملزمين باداء نوع من الخدمات المدنية كالبناء والتجارة وسياقة البغال وغيرها من الاعمال خلال ثلاثة اعوام ينقلون على اثرها الى الميدان العسكري لتلقي تمارين في الفروسية والرماية ومقاومة العدو . وكانت الاناث من هؤلاء العبيد يستخدمن في قصر السلطان للتدريب على اعمال الغسيل والتنظيف والخياطة والطبخ وكانت الجميلات منهن يتوجهن الى تعلم الموسيقى والعزف وبعض الاعمال المنزلية اللطيفة (8) وكان المولى اسماعيل حكيما جدا في هذا التصرف الذي نجده ساري المفعول في هذا العصر ذلك ان اعمال التجنيد الاجباري لا تنحصر في التدريبات العسكرية بل تشمل الاشغال المدنية التي تتفق فيها مواهب المتدربين فيفسح لهم بذلك مجال واسع في الحياة بعد ما يقضون فترة من الوقت في التدريب العسكري . اما تخصيص الاشغال المنزلية بالنساء وتوجيه الفاتنات منهن الى الميدان الموسيقي فانه يعد ابتكارا جليلا في حد ذاته لانه يدل على بعد نظر هذا الملك الملهم وحسن تدبيره واستعداده لاستغلال مواهب الجنود — ذكورا كانوا او اناثا — في الاعمال الصالحة وادراكه لصلاحية الناس جميعا حسب مؤهلاتهم واختصاصاتهم ولا غرابة في ذلك فقد خلق الله البشر مختلفين في المواهب والميول كما خلقهم متباينين في الوجه واللون . ورحم الله الشاعر العربي اذ يقول :

خلق الله للحروب رجالا
ورجالا لقصعة من ثريد

وقد استطاع المولى اسماعيل بهذا الجيش المنظم احسن ما يكون التنظيم اذا ما اعتبرنا الزمان والمكان ان يدوخ بلاد المغرب الاقصى ويملك سهلها ووعرها ويقضي على الثوار الذين كانوا يوقدون الفتن في البلاد ويسترجع الاجزاء المغتصبة في البلاد من طرف المحتلين الاجانب ويحمي الاطراف التي كان الاتراك يحاولون ان يغزوا عليها بعدما حصلوا على مساعدةبعض الثوار المغاربة . وقد توفق المولى اسماعيل بعد معارك حامية الوطيس في طرد الغزاة الاجانب من المعمورة وطنجة

6) الناصري ؛ الاستقصا ج : 7
7) انظر كتاب الجيش المغربي عبر التاريخ » للسيد عبد الحق المريني ص : 51 الى 54
8) تيراس « تاريخ المغرب .. » ج 2 ص 256 و 257 .

واصيلا والعرائش وكاد ان يحرر سبتة ومليلية من أيدي المحتلين . وقد كانت هذه الفتوحات المظفرة ملاحم رائعة لفتت الانظار الى المغرب وجعلت الاجانب يقدرونه حق قدره كما مكنت بلادنا من استرجاع الهيبة والوقار الذين كانت تتمتع بهما دائما في الاقطار المجاورة لها وبعثت الرعب في نفوس الذين كانت شفاههم تتلمظ للانقضاض على المغرب . ويحدثنا اليفرني في « روضة التعريف بمفاخر مولانا اسماعيل بن الشريف (9) » ان لهذا الملك العظيم من الاعتناء بسد الثغور والدرء في نحر العدو الكفور ما شاع وذاع وامتلأت منه الاسماع وانه لما تمهدت البلاد له ودانت له الرقاب وخمدت نار الثوار توجه بكليته الى فتح البلاد التي أغار عليها العدو الكافر .. وكانت أول بلدة اناخ عليها بكلكله ووقف عليها بخيله ورجله مدينة المعمورة المسماة بالمهدية التي حررها يوم 14 ربيع الثاني 1092 ثم طنجة التي تم فتحها في ربيع الثاني 1095 والعرائش التي كان فتحها يوم 18 محرم 1101 . وقد كان فتح العرائش حدثا تاريخيا عظيما اهتزت له البلاد بأسرها وطربت له النفوس ودفع بجيران المغرب الى الاستنجاد بهذا الملك العظيم. وقد عبر عن هذا الشعور ابو محمد عبد الواحد بن محمد الشريف في قصيدة عصماء جاء فيها على الخصوص :

الا ابشر فهذا الفتح نور
قد انتهت بعزكم الامور
حميتم بيضة الاسلام لما
بعين الحق قد حرس الثغور
الا يا اهل سبتة قد اتاكم
بسيف الله سلطان وقور
ووهران تنادي كل يوم
متى يأتي الامام متى يزور
ايا مولاي قم وانهض وشمر
لاندلس فانت لها الامير (10)

ولم يكن المولى اسماعيل يكتفي بفتح البلاد وانتزاعها من أيدي الاجانب بل كان يوفر للسكان أسباب الراحة ويشيد لهم المنشآت التي يتوقفون عليها في حياتهم من مساجد وحمامات ومعاهد للتعليم ولم يقل اهتمام المولى اسماعيل بالفتوحات وتنظيم البلاد وتكوين الجيش وتمهيد المغرب عن اهتمامه بالاصلاحات الاقتصادية والاجتماعية وتنمية العلاقات التجارية مع الدول الاجنبية. وتحدثنا بعمق المصادر الاجنبية ان المولى اسماعيل كان يرغب في نمو اقتصاد البلاد ورفع مستوى معيشة سكانها بالطرق القانونية من تجارة وبناء وعمران لا بواسطة أعمال السطو والقرصنة وغيرها . وسعيا في الوصول الى هذه الغاية ، عمل المولى اسماعيل على توطيد العلاقات التجارية مع اسبانيا وهولاندا وانجلترا وفرنسا التي كانت تحتل في اواخر القرن السابع عشر الميلادي المركز الاول في ميدان التبادل التجاري ببلاد المغرب الاقصى (11) غير ان وقاحة ملك فرنسا لويز الرابع عشر وسوء تفهمه لاوضاع البلاد وعدم احترامه للعهود التي ابرمها مع المولى اسماعيل حطمت هذا المركز الذي انقض عليه الانجليز بعد أربعين سنة من التنافس بين فرنسا وانجلترا . وقد ادى ازدهار المغرب من الناحية الاقتصادية الى توفر أسباب العمران وتدفق المواد والعملة على بلادنا .

وقد استعمل الملك العظيم هذه الثروة المتدفقة على المغرب في تشييد مؤسسات ضخمة وبنايات فخمة كانت مدينة مكناس اروع مظهر تتجلى فيه واجمل صورة لهذا الرخاء الاقتصادي والازدهار العمراني .

والواقع ان مكناس لم تكن شيئا اخرجه المولى اسماعيل من العدم بل كانت موضعا معروفا باسم مكناسة الزيتون التي يشتق اسمها من زناتة مكناسة وقد اقام فيها المولى اسماعيل أزيد من سبع سنوات عندما كان واليا عليها من قبل اخيه المولى الرشيد . وقد اعجب بها هذا الملك العظيم الذي أحب فيها المناخ الجميل والطقس الرائع والطبيعة الفتانة والهواء العليل فقرر ان يجعل منها عاصمة ملكه ومقر قيادته وحكمه وقاعدة ايالته وعرشه .

وقد دفعه الى ذلك بغضه لمدينتي فاس ومراكش اللتين كانتا تسببان له اتعابا مستمرة وتتمردان عليه في كل وقت وحين . وقد بنى المولى اسماعيل في هذه المدينة عدة مساجد منها مسجدا باب البردعيين وللا عودة وحمامات وقلاعا للجيوش وحدائق جميلة منها مدينة الرياض وقصورا شيقة منها الدار الكبيرة وأسوار شاهقة وابوابا فخمة كباب المنصور العلج

---

9) طبع هذا الكتاب بالمطبعة الملكية سنة 1382 / 1962 وحققه السيد عبد الوهاب بن منصور

10) روضة التعريف ص 57 الى 61 .

11) شارل اندري جوليان تاريخ شمال افريقيا ج 2 ص 234 .

الى غير ذلك من المآثر الخالدة التي ما زالت حتى هذا العصر تشهد بعظمة هذا الملك البناء وهذا المجدد العظيم .

ومن آثار هذا الملك الناطقة بعظمته وعزته قبة الحضرة التي تحدث عنها بعض الضيوف الاجانب الذين زاروها في عهد المولى اسماعيل وخلفوا لنا عنها اوصافا طريفة تشهد باعجابهم وافتتانهم بها كما يشهد بذلك الانجليزي جون واندريس الذي زار مكناس ضمن بعثة ستيوار سنة 1720 .

ومن اجل التنظيمات التي احدثها المولى اسماعيل وضع جهاز حكومي مركزي واقليمي يدير شؤون البلاد تبعا لتعليماته وطبقا لاوامره . وقد عين السلطان اولاده على اعمال البلاد فكانوا ممثلين لجنابه بالمناطق التي عينوا فيها .

وهكذا عقد المولى اسماعيل لابنه المولى احمد على تادلة ولابنه المولى عبد الملك على درعة ولابنه المولى محمد المدعو بالعالم على اقليم سوس ولابنه المامون الكبير على سجلماسة ولابنه المولى زيدان على بلاد الشرق . ورغم ما امتازت به حكومة هؤلاء الاولاد من اعمال الطيش والنهب في بعض الاحيان فانهم استطاعوا فرض سلطاتهم على الاقاليم التي ولاهم عليها والدهم الذي كان لا يتورع في عزل من ثبت في حقه انه ارتكب خطأ او قام بعمل مشين كما حدث مع المولى زيدان عندما اغار على رعايا الترك وانتهب دار عثمان باي امير معسكر وكما وقع عندما ثار المولى محمد العالم بالسوس فتسبب في وقائع حربية مهولة هلك في نهايتها في ابشع صورة .

وخلاصة القول فقد كان عهد المولى اسماعيل عهدا زاهرا مشرقا مليئا بالفتوحات والغزوات المظفرة والاصلاحات والبناءات العظيمة والتنظيمات والانجازات التي تدل على عظمة هذا الملك المجدد المصلح الذي جمع بين الباس والحكم وبين سرعة الحركة وبعد النظر . وقد كان رغم سمو مكانته وجلال قدره ورفعة شانه قريبا من رعاياه يتقبل شكواهم ويحنو على ضعفائهم لا يحتجب عن الراغب في الاتصال به ولا يترفع عن الانصات لحديثه . ويظهر انه كان مبالغا في التواضع والحلم رغم ما عرف عنه من باس وقوة وشدة وضيق خاطر فكان يجالس العلماء ويراجعهم في بعض المشاكل التي يشكل عليه الحكم فيها بالاضافة الى مباسطة الكتاب والادباء ومشاركتهم في الحديث والمساجلات الادبية وقد حكى صاحب « روضة التعريف .. » ان المولى اسماعيل خرج يوما وخلفه جارية وسيمة حاملة لسيفه فاستنزل قرائح كتابه لوصفها فقال في ذلك ابو محمد عبد الحق السجيمي :

حملت سيوف الهند وهي غنية
عن حملها بفواتر الاجفان

حسب الفتاة جلالة ومهابة
عز الجمال وهيبة السلطان

وقد ازدهر في عهد هذا الملك العظيم العلوم والمعارف وكثرت معاهد التحصيل والتدريس وانتشر التاليف وتضاعف النشاط العلمي الذي كان يتجلى في تفسير القرآن وشرح موطا الامام مالك وشرح الشفا للقاضي عياض وشرح لمختصر الشيخ خليل والفية ابن مالك وحاشية على ابن هشام الى غير ذلك من التاليف الناطقة بازدهار العلوم وانتشار العرفان .

الرباط : عبد اللطيف أحمد خالص

أثر الفتاوي في تصحيح الأحكام في عهد السلطان مولاي يوسف قدس الله روحه

للاستاذ :
الراجي التهامي الهاشمي

ان المتصفح للاحكام التى كانت تصدرها المحاكم الشرعية فى عهد (1) المولى يوسف ليبقى مبهورا امام ما تحتويه من البحث الدقيق ، والغوص فى المسائل الفقهية المعقدة ، والتحري فى المسائل الغامضة والاعتماد على السوابق العدلية السليمة .

والسادة القضاة : فى كل ذلك ، مطبقين للمذهب السائد فى البلد ، مذهب مالك (2) رضي الله عنه بكل ما يطلب هذا التطبيق من معرفة واسعة شاملة دقيقة لكل شاذة وفاذة للاصول والفروع . وهم لا يصدرون حكما الا اذا قاموا بتحريات عديدة ومتنوعة حتى يكون حكمهم حكما صحيحا يعطي لصاحب الحق حقه ، وينزل الجزاء بالظالم فى غير افراط ولا تفريط .

وما من شك ان الحكم الواحد من هذه الاحكام يعد بحق مرجعا مهما من مراجع الفقه الاسلامي (3) . وما من شك ايضا انه يكون سجلا مهما لفتاوي فقهاء

---

(1) لن اهتم فى هذه الحلقة الا بالاحكام التى صدرت فى سنة 1335 الموافق 1917 .

(2) يشهد على ذلك ما ورد فى الفتاوي والاحكام من ذكر للامام مالك واتباعه مصحوبين دائما بالقاب التبجيل. واكبر شاهد على ما ذكر ، نص حكم الاستئناف الصادر عن وزارة العدل المغربية بتاريخ 25 شوال 1335 الموافق 14 غشت 1917 والذى جاء فى آخره : « فالحاصل ان الحكم المذكور ماض ويكفي شاهدا له ما نص عليه البرجلي ونقله عن امامنا مالك رضي الله عنه . كما تقدم ، وبذلك حكم وزير العدل حفظه الله حكما تاما انفذه وامضاه واوجب العمل بمقتضاه عن اذن الحضرة الشريفة اعزه الله ، بحيث لم يبق لاعادة النظر فى القضية مجال ولا لتعقب هذا الحكم الصادر النهائي مقال بحال .
وحرر بوزارة العدل فى الخ وامضاه الفقيه المرحوم ابو شعيب الدكالي .

(3) مثال ذلك ما جاء فى الحكم الصادر عن محكمة قاضي الجديدة بتاريخ : 28 جمادى الثانية 1335 الموافق لـ : 31 مارس 1917 فى القضية المعروضة عليها من طرف المقدم بن بوشعيب الهلالي العيادي ضد محمد بن ازموري بن عزوز الازموري فى ارث تنازعا فيه .
جاء فيه بعد ذكر الحيثيات : « ما تضمنه قول الشيخ خليل ولا يحكم لمن لا يشهد له على المختار . انتهى » وما لشارحه الزرقاني عليه من كون محل الخلاف ان لم يكن القاضي متهما ، وما لشارح التحفة من ان زوج البنت من افراد متاكدي القرب اي الذين لا يشهدون ولا يحكمون لبعضهم بعضا ، وما للتسولي من وجوب الاعذار . . وما للزرقاني من ان للخصم ان يطعن فى الموجهين بنحو القرابة والعداوة وما للتسولي ايضا من كون الثبوت اعم من الحكم بنهوض الحجة » .
وهذا كما نرى مثال يبين بوضوح مدى اهتمامهم باقوال ائمة المذهب وحرصهم الشديد على ترتيب هذه الاقوال والاستفادة منها الى اقصى درجة ممكنة .

اجلاء (4) يمكن للقضاة الان، بل يجب عليهم ان يعودوا اليها في النوازل التي تعترض سبيلهم والشبيهة بتلك التي عرضت عليهم قديما لاخوانهم .

وهم لا يكتفون كما قد يتبادر الى ذهن البعض بتطبيق نظر فقهاء المالكية العظام او بجعل توجيهات الفتوى امرا مفروغا منه لا يقبل اي طعن بحال من الاحوال (5) كما انهم لا يجعلون شهادة الشهود حجة قاطعة نهائية في الموضوع (6) .

وعندما لا يرضى الحكم الصادر عن المحكمة الابتدائية احد المتخاصمين فانه يرفع القضية الى مجلس الاستئناف بالرباط الذي ينظر في النازلة من جديد ؛ فيصححها او يردها الى مصدرها الاول او ينقضها .

وعلى قراراته التي جمعت في جل الاحيان عناصر النازلة من اولها الى آخرها مع نص الحكم التام الذي اصدره فيها قاضي المحكمة الابتدائية مصحوب بالفتاوى وأسماء الشهود وشهاداتهم . اعتمدت في بحثي هذا المتواضع . ومنها ايضا استخرجت الامثلة التي انحدث عنها وجميع النصوص الفوتوغرافية المنشورة مع هذا المقال (7) .

واول استئناف يشرفني ان اقدمه لكم هو الاستئناف المتعلق بالقضية التي رفعها ناظر احباس مدينة الجديدة ضد السيد احمد بن التومي الجديدي وورثة محمد بن الجمدونية . وحتى يكون القارىء الكريم نظرة صحيحة عما سبق ان قلت ارتايت ان انقل اليه الصفحة الاولى من هذا الحكم وكذا الصفحة السادسة والاخيرة منه . ولم يمنعني عن نقله بأتمه الا ضيق المكان . غير انني لم افقد الامل ؛ مع ذلك ؛ في ان ما سانقله لكم منه ، وما ساضيف اليه من التعليقات سيساعد على تكوين فكرة تامة صحيحة عما ورد فيه . جاء في صفحته الاولى (8) .

1 ـ يبدأ الرسم بعرض الطلب اولا :

وبعد فان مضمن قضية ناظر احباس الجديدة السيد محمد بن القاسم الازموري مع السيد أحمد ابن التومي الجديدي ومن انتقلت الدعوة منه اليه وهو بعض ورثة الحاج محمد بن الحمدونية . ادعاء (9) نائب الاول الحاج محمد بن موسى الفاسي اصلا الجديدي وقته على السيد احمد المذكور فانه (10) شغل الاحباس الجديدة الاملاك المبينة بطرته (11) هذه مدة من احد عشر عاما سلفت وترتب في ذمته كراؤها عن المدة المذكورة طالبا منه افراغ الاملاك المذكورة الحبس واداء اكريتها المتوفرة في ذمته تاريخ هذا

---

(4) ولقد عثرنا على حكم استعمل فيه الخصمان سبع فتاوى ، وهو الحكم الصادر بتاريخ : 29 جمادى الثانية 1335 الموافق لـ : 18 ابريل 1917 بين الحاج مصطفى بن الحاج محمد ابن جلون الرباطي وبوشعيب بن الحاج محمد بن الصمادية الزموري في قضية تتعلق ببيع قطعة من الغنم .

(5) ولنا مثال على ذلك في نص النقض الذي اصدره مجلس الاستئناف بتاريخ : 28 ربيع الثاني 1335 الموافق لـ : 21 فبراير 1917 للحكم الصادر عن قاضي مدينة فاس بتاريخ 14 رمضان 1334 موافق 15 يوليوز 1916 في الخلاف الذي كان بين عبد السلام بن عبد الوهاب بنيس واخويه العربي وبناصر وامهما العزيزة بنت الحاج ادريس في شأن الدار التي ورثوها عن ابيهم والموجودة في سباطريين .

(6) الامثلة على ذلك لا تحصى ، غير اننا نحب ان ننبه قارئنا الكريم الى هذا التحري الذي كان قضاتنا الاقدمون يعالجون بها الشهادات المقدمة للمحكمة ، وافضل مثال يمكن ان يرجع اليه القارىء العزيز الشهادة الموجودة في نص الاستئناف رقم 63 بتاريخ : 27 قعدة 1334 موافق 25 شتنبر 1916 في القضية التي رفعها السيد الحاج الطيب الدراوي الشياظمي ضد اليهودي طوبياس لفي . Tobas Lévy

(7) كما انني اعتمدت في تحقيق هذه النصوص وتلخيصها وشرح غوامضها على السيد Louis Milliot في كتابه Recueil de Jurisprudence Chérifienne المطبوع في باريس سنة 1920 .

(8) انظر الرسم الفوتوغرافي في رقم (1)

(9) هكذا في الاصل كما تلاحظ وكان الاولى ان يقول ادعى

(10) وكان الافضل : احمد المذكور انه

(11) التعبير السائد الآن عندهم هو : « المبينة طرته »

المقال (12) متم قعدة عام 32 وبطرته الاملاك المدعى بها 17 حوانيت بلصق فندق الاحباس يمينا وشمالا وبجوار حوانيته بالسوق الصغير حوانيت من نمر 41 الى 57 والغاية داخلة فى الحوانيت الاخيرة .

2 ـ جواب المطلوب :

وفى مستهل حجة الموالي حضر الجلالي بن العربي الازموري وكيل المدعى عليه المذكور واجاب بان الحوانيت المشار اليها فى المقال ملك لبعض ورثة الحاج محمد بن الحمدونية وهو (13) : زوجه حليمة بنت الشيخ يوسف الفرجي وبنتها منه خديجة واولاد بنته عائشة الهالكة عنهم وهم السيد عبد الله وزهراء ومالكة .

وان موكله المدعى عليه المذكور لا ملك له فى الحوانيت المشار اليها ولا شغل له فيها وانه كان يتصرف فى واجب زوجه خديجة المذكورة فيما ذكر (14) نيابة عنها .

وفى 21 حجة المذكور حضر الوكيل المذكور وبيده وكالة من 5 (15) ذكر له فى جوابه اعلاه مؤرخة متم حجة المذكور واجاب عن الدعوى بان الحوانيت المذكورة هي ملك لموكليه المذكورين وفى حوزتهم وتصرفهم هذه مدة مديدة وغير منازع لهم فيها ولا معارض .

وفى 27 منه (16) حكم القاضي على وكيل المدعي كنرا بان ياتي بحجة مطابقة لدعواه واجله لذلك ثلاثة ايام .

ولما انصرم الاجل المذكور وكانت حليمة المذكورة توفيت واثبت المدعي بتاريخ 19 ربيع الثاني عام 33 موتها وعدة ورثتها وهم اولادها الحسن بن الحاج محمد ابن الحمدونية المذكور وشقيقاه الحاج يوسف وخديجة المذكورة وادلى بما ذكر لمجلس القاضي طلب الجيلالي وكيل المدعى عليهم اعطاءه نسخة منه محكم له به كما حكم عليه باحضار وكالة ورثة حليمة المذكورة وبالجواب عن الدعوى وذلك بتاريخ : 28 محرم عام 33 .

وفى 4 صفر الموالي حضر الجلاني المذكور عن ورثة حليمة المذكورة واجاب عن الحسن وشقيقته خديجة المذكورين منهم بان الحوانيت المقيدة بطرة المقال المذكور ملك لموروثة متوبيه المذكورين ومن شاركهما فى ذلك تصرفت (17) فى نصيبها عن الاشاعة مع من ذكر مدة مديدة سلفت من وفاتها وغير منازع لها ولا معارض الى ان توفيت عمن احاط بارثها .

وفى التاريخ المذكور اجاب الحاج يوسف المذكور بان جواب نائب والدته المذكورة عنها قيد حياتها عن الدعوة هو جوابه الآن حرفا حرفا من غير زيادة ولا نقصان .

وفى 11 صفر المذكور حكم القاضي على وكيل الناظر بان ياتي بحجة تنقصه شرعا فيما ادعى به للاحباس المذكورة .

وفى 24 منه ادلى وكيل الناظر بحجة مؤرخة 22 رمضان (18) عام 28 تضمنت شهادة ثلاثة عشر نفرا من اعيان اهل الجديدة وكبرائها بمعرفتهم جميع البقعة خارج السور الجديد المكشفة بين مخازن التجار والمسجد الكبير هناك واملاك المخزن السعيد من الشمال معرفة تامة كافية شرعا بها ومعها يشهدون بان البقعة المذكورة من احباس الجامع الكبير داخل سور الجديدة وملكه وتصرفه وتنسب اليه على السنة الخاص والعام وتحترم بحرمته من غير منازع ولا معارض فى ذلك مدة مديدة وسنين عديدة تزيد على العشرين سنة الى ان ولى النظارة الحاج محمد فتحا

---

(12) فى الكلام تطويل وركاكة وياحبذا لو قال : « هذه مدة من احد عشر عاما ، طالبا منه اداء ما بذمته عن كرائها طيلة هذه المدة الى تاريخ هذا المقال .

(13) «هو» هنا تعود ، مما فى ذلك من شك ، الى «بعض» التى فصلها بعد ذلك .

(14) ويقصد «بفيما ذكر» الجزء الذى ترثه مما خلفه والدها الهالك ابن الحمدونية .

(15) ولم يميز هذا العدد ، ولم تكن الحاجة تدعو الى ذلك فى مثل هذه المقالات ما دامت كلمة ذكر وما تصرف منها تنوب منابها .

(16) نلاحظ ان العدل ، كاتب المقال ، يجعل فوق الاعداد مدا .

(17) يعود الضمير المفرد المؤنث على ورثة ومنها اخذ الوكيل الجيلاني وكالته .

(18) مؤرخة 22 عوض مؤرخة بـ : 22

رقم 1

رقم 3

رقم 2

رقم 4

البوعزيزي الشهير بابن الحمدونية المعروف لديهم مثل المعرفة المذكورة على المسجد المذكور بنى بها بمرأى ومشاهدة منهم له فندقا بالبقعة المذكورة به نحو ستين بيتا وقد افرقه من الجهات الاربع خارجا ما ينيف على المائتين حانوتا من مال الحبس ومن المال الذى انعم به الجناب العالي بالله على الحبس لاجل ذلك وصار الناظر المذكور يتصرف فى ذلك المحبس المذكور بالنيابة عنه وينسب الكل للحبس وجميع الناس كذلك من غير منازع ولا معارض وبقي على ذلك مدة توليته ناظرا الى ان توفي فقام من بعده ولده الحسن مقامه وصار يفوت املاك المسجد المذكور ومن جملتها الفندق المذكور وما اضيف اليه من الحوانيت المذكورة فباع الفندق المذكور بثمانية آلاف ريال وجل الحوانيت باربعمائة اريال لكل واحدة ويشهد بمثله ثمانية من عدول الثغر قائلا اولهم وبمثل ما شهد به الشهود اعلاه بصحة الملك للحبس فى البقعة المذكورة وما نشا فيها يشهد من يضع شكله فى تاريخه اعلاه وعطف ...

وفى الصفحة الثانية ذكر ان وكيل المدعى عليهم احضر ثلاث فتاوي باحثة كلها فى الموجب ثم اتى نائب الاحباس بست فتاوي تعارض ما افتى به المفتون الاخرون وبعد النظر فى فتاوي الجانبين واعتماده على نص التسولي فى شرح التحفة اصدر حكمه على هذا الشكل : « وحيث اتضح خلل الموجب المذكور بما ذكر وغيره وصار لا يعد حجة لانتزاع الاملاك المدعى فيها من يد حائزها المدعى ملكيتها حكم بعدم اعمال الموجب المذكور وبابقاء الامور فى الاملاك المدعى فيها على ما كان عليه من قبل وبحل العقد عنها الى ان تقدم للحبس حجة مستكملة نافعة (19) »

3 ـ قرار مجلس الاستئناف

بعد ذلك بدا قرار محكمة الاستئناف بهذا : « وبعد امعان النظر فى الحجج المشار اليها ، والحكم المبني عليها تبين لسعادة وزير العدلية وقطب الدائرة العلمية بالايالة الشريفة المغربية الشيخ سيدي شعيب الدكالي ابقاه الله سبحانه رافلا فى حلل المعالي ان حكم القاضي بعدم اعمال الموجب المضمن آنفا صحيح ما دام على حالته التى هو عليها الآن اما اذا اعمل النظر فيه بالوجه الشرعي الذى يكشف به عن تمامه وعدم تطرق التهمة الى شهوده فلا ، وما اشار له القاضي فى حكمه من الابحاث الموهنة لذلك الموجب بعضها ساقط وبعضها متوجه . وبيان ذلك كله ان الموجب المشار له اشتمل على امرين احدهما كون البقعة المدعى فيها الى آخر الكلام .

ولقد اعتمد حكم الاستئناف فى اصدار حكمه على العلماء الاجلاء مثل : « ابن رشد » والشيخ الرهوني والقرناطي وابن سهل والشيخ عبد القادر الفاسي وابن سلمون والشيخ خليل وابن فرحون وابي اسحاق الشاطبي .

وبعد التمحيص فى اقوال هؤلاء والبحث فى اقوال الشهود ونقد القرائن اصدرت وزارة العدل حكمها الموجود فى الصورة الفوتوغرافية رقم 2 ونصه : « فلا تقوم بها حجة ايضا وليس منخرطا فى سلك شهادة السماع المشار لها بقول سيدنا خليل وجائزة بسماع فشا عن ثقات وغيرهم بملك لحائزهم لعدم استجماعها للشروط المطلوبة فيها . فالحاصل ان الواجب الآن فى النازلة هو امضاء حكم القاضي لما علمت .

وبذلك حكم سعادة وزير العدلية المذكور حكما تاما انفذه وامضاه والزم العمل بمقتضاه عن اذن الحضرة الشريفة المولوية اسماها الله . وحرر بوزارة العدلية فى 13 محرم الحرام فاتح عام 1336 » .

ابو شعيب الدكالي وفقه الله

وان هذا الحكم ليعد الآن فى معظمه بحثا دقيقا فى شهاد الشهود، جمع فيه ما تفرق فى الكتب الطوال التى يصعب الرجوع اليها ، فلعل قضاتنا ينتبهون لهذا الامر ويجعلون من هذه الاحكام القديمة مرجعا لهم يستعينون به على اصدار احكامهم فى النوازل الشبيهة بذلك . لاسيما وهي تعرض الوقائع وتضيف اليها فى كثير من الاحيان احتمالات قد تنطبق ، ومن يدري ؟ ، على قضايا واقعية من الممكن ان تعرض يوما من الايام امام انظار القضاة المحترمين

اما حكم الاستئناف الثاني الذى يشرفني تقديمه فانه متعلق برشد المرأة . وهي قضية رفعتها (20)

---

(19) انتهى ما مجمل حكم قاضي محكمة الجديدة .

(20) قدمت هذه القضية امام محكمة القاضي بلقرشي بفاس مسجلة ، كما يتضح ذلك من طرة الرسم تحت عدد 103

السيدة ميتة بنت الحاج احمد كسوس ضد وصيها محمد بن الحاج عزوز بن كيران والمشرف عليها الشريف محمد بن مولاي التهامي الوزاني».

وبما ان النص فى حد ذاته قصير فقد رأيت، تتميما للفائدة، ان انقله برمته.

جاء فى الصفحة الاولى منه (الصفحة الفوتوغرافية رقم 3)

1 ــ سرد النازلة :

« وبعد فان مضمن قضية المراة السيدة ميتة بنت الحاج احمد جسوس ووصيها سيدي محمد بن الحاج عزوز بن كيران والمشرف سيدي محمد بن مولاي التهامي الوزاني ادعاء (21) سيدي محمد بن الحاج محمد المدرومي نائبا عن وكيل المراة المذكورة زوجها الشريف سيدي ادريس بن مولاي احمد الوزاني على الوصي والمشرف المذكورين بان المنوب عنها قد اثبتت رشدها باربعة عدول طالبا المدعى من المدعى عليه تسريحها من ربقة الحجر تاريخ هذا المقال 23 محرم عام 33

وفى 24 منه بعد ما حضر المدعي دعوى المنوب عنها فى المقال اجاب وكيل الوصي سيدي احمد بن الطايع بان المنوب عنها لا زالت سفيهة . وفيه حكم على المدعي باحضار موجب الرشد المذكور . وفيه ايضا ادلى بشهادة اربعة من العدول بتاريخ : 13 محرم المذكور فحكم بسرده على وكيل الوصي وسرد عليه فلم يسلمه . وطلب نسخة منه بقصد البحث فحكم له بها واجل للاتيان بما يسمع منه .

وفى 2 ربيع الاول من العام المذكور ادلى المدعي عليه بلفيفية (22) مستفسرة مؤرخة صفر (23) عام 33 المذكور بسفه المراة المذكورة وبثلاث فتاوى مؤيدة لها وانها تقدم على موجب الرشد ولو كان اكثر عددا واقوى . وحكم بسرد ما ذكر على المدعي فلم يسلمه واخذ نسخة منه بقصد البحث واجل لياتي بما يسمع منه .

وفى 5 ربيع الاول ادلى المدعي بشهادة مؤرخة بـ : 4 ربيع النبوي المذكور تضمنت رجوع احد شهود بينة السفه المذكورة وبفتاوي مفصحة ببطلانها لامور منها ان بعض الشهود اقارب للوصي ، فثانيهم ابنه والثالث والخامس اخواله والرابع ابن عمه ، ومنها رجوع حد شهودها ومنها انتفاء الكثرة فيهم واخذ المدعي عليه نسخة مما ذكر بقصد البحث وجعل بدل الراجع عن شهادته من شهود بينة السفه آخر تلقى منه عدلان بتاريخ مهل جمادى الاولى من العام 1333 الشهادة بسفه المراة المذكورة واستفسر فى ثاني الشهر المذكور وافتى له بتمام بينة السفه المذكور خمسة من الفقهاء .

2 ــ الحكم :

وفى 18 محرم حكم القاضي بالغاء موجبي السفه والرشد وان المراة تبقى على ما كانت عليه من التحجير تحت نظر الوصي واشراف المشرف المذكورين الى ان يثبت لديه ما يوجب رشدها او ضده لكونه استراب الموجبين معا بالاستبعاد الحاصل له فيهما حيث ان المراة المشهود فيها من ذوات الحجاب قريبة عهد بالتزوج وشهود الرشد وضده اجانب عنها ومعلوم ان كل ما استرابه القاضي لا يعمل به كما فى دواوين الائمة (24) ، لاسيما وقد اخبره اخص اقارب المراة بانها لا تحسن التصرف فى مالها ثم طلب بعد ذلك الوكيل المذكور استئناف الحكم المسطور لدى وزارة العدلية بالحضرة الشريفة الرباطية . فاستحضر خصمه للحضور واحضر كل ما لديه من الحجج المتعلقة بالنازلة المذكورة . وبعد امعان النظر فى الحجج المشار اليها والحكم المبني عليها تبين لسعادة وزير العدلية وقطب الدائرة العلمية بالايالة الشريفة المغربية الشيخ سيدي شعيب الدكالي ابقاه الله سبحانه رافلا فى حلل المعالي .

3 ــ حكم محكمة الاستئناف :

ان ما ظهر للقاضي فى النازلة من الاسترابة فى الاشهاد المذكور مسلم اذ استرابة القاضي فى الشهادة

---

(21) ويعني المدعي

(22) جعل العدل الناسخ لهذا الحكم رقم 12 على كلمة لفيف .

(23) كان من الافضل ان يكتب مؤرخة فى شهر صفر من عام 1333 مع ملاحظة انه لم يذكر اليوم الذى كتبت فيه .

(24) ويقصد بالائمة ، ائمة مذهب الامام مالك رضي الله عنه .

مانعة له من الحكم بها والذى استرابه مستـــراب حسبما لابن عبد السلام وابن عرفة وابـن سهل فـى احكامه (25) مما لا داعي للتطويل بنقل كلامهم .

وعليه فتبقى المراة المذكورة على ما كانت عليه من الحجر . وان ثبت رشدها بعد هذا وارادت القيام فلا تمنع من ذلك . وبذلك حكم الى آخره .

لابد ان نلاحظ اولا سرعة صدور هذه الاحكام سيما فى المحكمة الابتدائية كما لا بد ان نلاحظ ثانيا التحري الشديد الذى باشر به القاضي نازلة تظهـر للبسيط ، من خلال الحجج التي يقدمهـا من « كـان الحق فى حجته من بعض » نازلة لا غموض فيهـا . وان نلاحظ ثالثا ان القاضي كان لا يكتفـي بالحجـج التى يقدمها الطرفان ، وانما كان يجري لحسابه الخاص بحوثا ساعدته على الوصول الى الحقيقة . فتصريـح القريب الذى شهد بانها لا تحسن التصرف فى مالها لم يرد من بين الحجج المقدمة لمجلس القاضي من طرف الخصمين وانما كان تحريا منه ، اضطر للقيام به بعيدا عن ثورة الجانبين ، انار له الطريق ، واملى عليه حكمه الصالب الذى صححه مجلس الاستئناف استنادا لآراء الائمة المخلصين من مذهبنا .

اكدير – الراجي التهامي الهـاشمي

---

(25) ينتهي هنا نص الصفحة الفوتوغرافيـة رقم 3 ويبدا نص الصفحة رقم 4 .



الإصلاحات العسكرية في عهد الملك المصلح مولاي الحسن

للاستاذ :
عبد الحق المريني

ابدى السلطان المقدس مولاي الحسن الاول عناية فائقة بالجيش المغربي . فسهر جلالته بنفسه على « تقويته وتدريبه وتسليحه باسلحة عصرية حتى اصبح جيشه يحتل الصف الاول مع جيوش بعض الدول الاوروبية التي كانت تتحين الفرص لتجعل من المغرب ـ البلد الغني ـ طعمة سائغة لها » .

وكيف لا وهو « البطل الشجاع والليث الضرغام الذي من هيبة صولته سجدت الاسود ولدعوته لبت الرايات واجابت البنود لسطوة كلمته المطاعة جمعت العساكر والجنود » .

كانت عناصر الجيش الحسني تتالف من رجال دكالة وحاحة والشاوية ومن قبائل الدير . وكانت وحداته هي الرماة والفرسان والطبجية الذين كانوا يعملون تحت امرة وزير الحربية العلاف السيد محمد الصغير الجامعي .

وكانت اركان حرب هذا الجيش العتيد تتكون من وزير الحربية وخليفته وكاتبه ومن قائد رحى البخاري وقائد رحى شراكة وقائد الرحى الشراردة وقائد رحى الوداية وقائد رحى اهل سوس وقائد رحى اولاد دليم وقائد رحى رحامنة . وكان لكل قائد من هؤلاء القواد قائد خليفة وقواد المئين ومقدمون يرتفع عددهم او ينقص حسب عدد المشاة او الفرسان الذين يعملون تحت امرته .

وقد عمل جلالة السلطان القائد الاعلى على تجهيز جنوده بالعتاد العسكري : فزود فرقة الطبجية بعشرين بطارية وبالرشاشات وفرقة الفرسان بالرماح والخناجر والسيوف والمسدسات وعزز اسطوله البحري بباخرة حربية اشتراها من الدولة الايطالية سنة 1899 م وسماها : « بشير الاسلام بخوافق الاعلام »

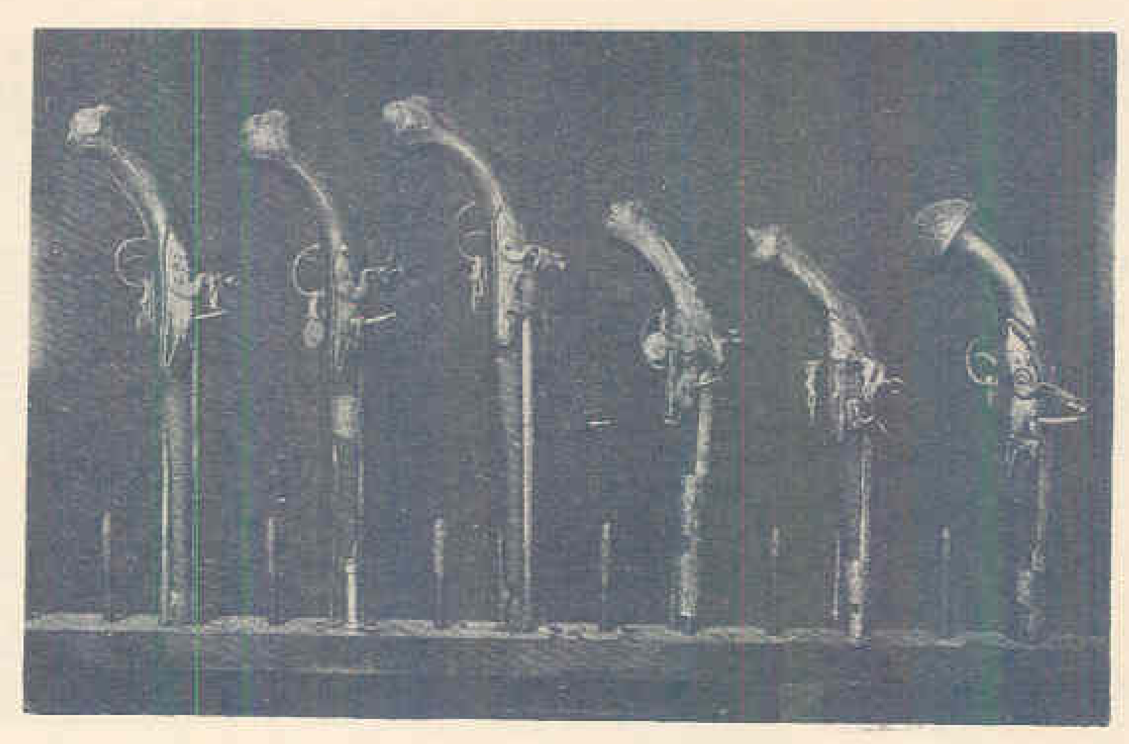
ثم اسند الى بعثة من الخبراء الفرنسيين مهمة تدريب فيلق الرماة بمراكش سنة 1877 م. واناط بضباط ابطاليين ادارة مصنع الاسلحة بفاس اي « دار السلاح » او « المكينة » التي تولى تخطيطها المهندس الايطالي « توطيرا » . وكان يديرها الكولونيل الايطالي « كافيني » وكان يصنع فيها الفنيون المغاربة المتخرجون من بعض المعاهد الحربية الاوربية البندقيات من نوع « مرتيني هودي » و « شنيدر » و « مكسيم » وكذلك الرشاشات .

ويقول المؤرخ مولاي عبد الرحمان بن زيدان في كتابه « الدرر الفاخرة » ان مولاي الحسن اودع في معمل السلاح هذا «الافا من المكاحل والمدافع والمهاريس والسيوف . وقد وصف احد الرحالة الانجليز هذا المعمل بقوله : توجهنا لمشاهدة دار السلاح فراينا هناك عددا كبيرا من السلاح المخزون في الصناديق وثلاثة اسطر من السروج ... مع عدد كبير من السيوف . وكان يحرس تلك الدار عشرون بحريا من اسرى الانجليز . وهناك بيوت عظيمة مملوءة بالبنادق وفي وسطها رمح كان اهداه احد ملوك الهند . ورأينا هناك انواعا كثيرة من اسلحة اخرى منها : «قرابيلات» من نحاس ودروع غنمت من الجنود الاسبانيين والبرتغاليين .

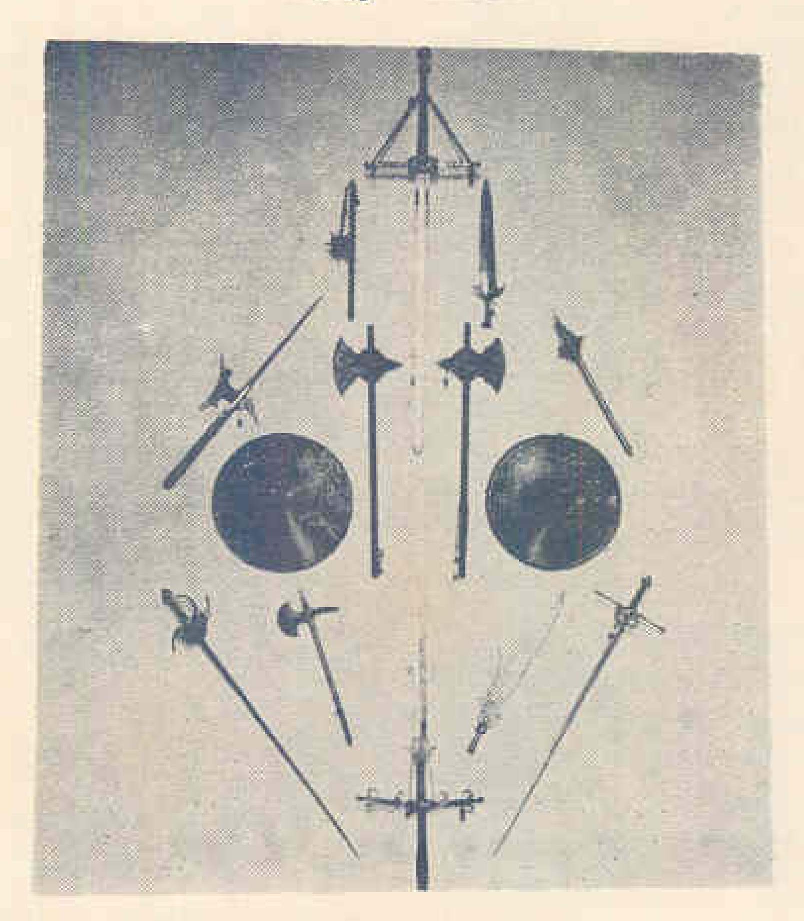
والجدير بالذكر انه كان بالمعمل ايضا مدافع دنماركية استوردها مولاي يزيد بن سيدي محمد بن عبد الله .



مدافع حربية بمدينة الصويرة



اسلحة مغربية



أسلحة مختلفة

وقد كلف مولاي الحسن ايضا الضابط الانجليزي « هاري ماكلين » المدعو « الحراب » لقيادة فيلق طنجة ثم استدعاه بعد ذلك لقيادة جيش « الحرابة » بالبلاط الملكي . ثم فارق الجندية بعد حين . ولما مر جلالة السلطان الحسن الاول بمدينة طنجة سنة 1880 اخذ يبحث عن بعض الضباط الاوروبيين السابقين لاستقدامهم الى المغرب قصد تنظيم مشاة الجيش المغربي . فرشح له «ماكلين» فكلفه المولى الحسن بتدريب الحرابة فادى مهمته بكل جد وحزم فرقاه جلالة السلطان الى رتبة « كرونيل » أي كولونيل . وكان ماكلين هو الذى ينظم الجيوش ويستعرضها فى الاعياد وحفلات الاستقبال ويتقدمها على جواده ماشقا سيفه . وكان يشتري لجنوده السلاح من مختلف مصانعه باوروبا ويلقن جنود الحرس السلطاني استعمال الاسلحة المهداة من طرف السفراء الاجانب الى جلالة السلطان .

كما كلف ــ ايضا ــ مولاي الحسن الاول البلجيكي « كرتيارد » بالسهر على صناعة الرصاصات بمدينة مراكش . وامر اخيرا « بجعل كل فريق من العسكر في ديوان ، كل نفر باسمه وقبيلته ووصفه واوانه ومحل سكناه وحرفته ليمكن البحث عنه بسرعة وفى كل آن » . واسس ما يشبه مدرسة مركزية للمدفعية بمدينة الجديدة .

وكان للسلطان المقدس ــ يقول مولاي عبد الرحمان فى كتابه اتحاف اعلام الناس ــ اعتناء عظيم بتحصين الثغور وبناء ابراجها وجلب لذلك مهرة المهندسين الاجانب من المان وانجليز . فقد بنى المهندس الالماني Rotten Bourg البرج الرباطي ثم عززه بمدفعين من نوع «كروب» وبنى المهندس الانجليزي برج طنجة ومدافعه هي من نوع Amstrong كما بنى المهندس الفرنسي Cornut برج اكادير . ولا يخفى ان الابراج الاخرى الموجودة فى الموانيء منها ما هو اسباني ومنها ما هو برتغالي .

وقد اهتم المولى الحسن بمدينة طنجة ــ لما لها من موقع استراتيجي هام ــ اهتماما عظيما حيث اشترى لها ستة من كبار المدافع من معامل (ارم سطرونك) بانجلترا وامر باصلاح جميع ابراجها وجلب لها ما تحتاج اليه من المقومات الحربية من بارود وكور .

وقد اصدر السلطان لجنوده ان يمارسوا المناورات العسكرية اربعة ايام فى الاسبوع « اما فى ارباط المدينة كارباط مدينة فاس واما داخل القلاع العسكرية كما كان الامر فى مدينة طنجة » . وفى كل يوم الاثنين كان جلالة السلطان القائد الاعلى يحضر بنفسه فى تمارين المدفعية وفى كل يوم الاربعاء يستعرض جنوده بنفسه لمراقبة عدتهم وعددهم . وقد ضمن جلالته لجنوده الكماة مرتباتهم وخصص لهم مواد غذائية تعطى لهم فى ايام الاعياد . ويعد السلطان المقدس مولاي الحسن الاول انه اول سلطان اوفد البعثات العسكرية الى المدارس العسكرية الاجنبية للتدرب على بناء الخنادق والتحصينات وعلى التمارين النارية وغير ذلك .

فتوجهت بعثة الى المدرسة الحربية (شاطم) الانجليزية التى كانت تصنع فيها المدرعات يومئذ . وتوجهت اخرى الى فرنسا لتدرس بمدرسة « مونبيليي » . ولما وصل اعضاء البعثة الى القلعة العسكرية الفرنسية تشبثوا على الطراز المغربي واحتفظوا بالطربوش . وقد كانوا يدرسون العلوم النظرية فى الصباح والتطبيقية فى المساء (كالتمارين النارية والتحصينات وبناء الخنادق واجهزة الدفاع وضرب الاخبية وتركيب آلات الحصار) . وقد تلقى اثنان منهم دروسا فى التلغراف الجوي . وارسل مولاي الحسن بعثات اخرى الى جبل طارق صحبة ماكلين ليتلقوا تكوينا حربيا صحيحا وسليما بالمدرسة الانجليزية الموجودة هناك . كما اوفد جلالته الى المدرسة الدولية « بطورين » بايطاليا بعثة تتركب من 24 فردا لتتلقى دروسا فى تربية الجنود ولتتعلم علوم البحر ولتتدرب على صناعة السلاح ، ووجه جلالته بعثات اخرى الى كل من اسبانيا والمانيا للتدرب على فنون الحرب وعلومها والاطلاع على الاسلحة الجديدة . وقد عاد اعضاء هذه البعثات الى ارض الوطن وعملوا باخلاص فى صفوف الجيشين الحسني والعزيزي .

فكان اذن للمملكة المغربية فى عهد السلطان المقدس مولاي الحسن الاول جيش عتيد مسلح باحدث الاسلحة وذو اطار فني قوي ومدرب احسن ما يكون التدريب . فكان بذلك حصنا منيعا امام كل دخيل غاصب ومقاوما عنيدا لكل من سولت له نفسه ان يمس بسوء سواء استقلال البلاد ووحدتها او الجالس على عرشها المكين .

الرباط ــ عبد الحق المريني



دموع الفرح

للأستاذ : محمد بن أحمد اشماعو

الاستاذ عبد اللطيف ملازم حجرتـه على غيـر عادته فى عشايا السبت ، لقد اعتاد ان يخصصهـا للترويح عن النفس عبر خمائل (شالة) ومنابعها ، او سهول (السويسي) وحقولها ، او فى مرتفعات (عين البربيري) الفيحاء ، او خلال بساتين سلا الغنـاء ، وعندما يشتد الحر يقضيها على ضفاف المحيط الممتدة التى تناطح البحر تارة بصخورها الجرداء ، وتـارة تبسط صفحة الرمال الدقيقة لتلامسها الموبجـات الرفيقة . لقد اعتاد هذا ، ولكنه ـ العشية ـ ملازم حجرته فى الطابق الثاني ، مختل الى نفسه القلقة ، وهواجس صدره المضطربة ، وخفقات قلبه المتلاحقـة .. انه لايحس استقرارا ولاارتياحا رغما عن ان الحجرة فسيحة انيقة تحيط بها لحف لينـة ، لم تحش الا بالصوف الخالص ، كما ان الوسائد المنثورة فى انحائها لينة هي ايضا ومن شانها ان تمنح المتكيء عليها كثيرا من لذة التراخي ، وعلى طول حواشي اللحف وضعت موائد سداسية الشكل من خشب الصنوبر ، المطعم بخشب الليمون ، تحملها ارجل مخروطة ، دقيقـة الصنع . اما الارض فقد كانت مفروشة بزربيـة نادرة ، اغلب الظن انها من صنع فارسي ، فان كانت من صنع مغربي فهي فعلا تستحق الاعجاب ..

انه منذ عودته من مقر وظيفته ، وتناوله طعام الغداء وهو يشعر بعدم استقرار ، انه متلهف ، معلق الفؤاد بشيء مجهول ، ينتظره على احر من الجمر ... لم تشوقه كالعادة جرائده اومجلاته الادبية والاخبارية، ولم تملك عليه فكره مقالاتها وابحاثها ، ولم تلفت نظره صورها ولا رسومها ، انه قارىء واع ، متحيـز الى مدرسة من المدارس الادبية الرائجة ، وله فى ميادين البحث والشعر والقصة كتاب يعجب بهم ، ويتحمس لهم ، ويدخل فى مطارحات او مساجلات مع الاقران حولهم لكن فى غير هذا اليوم ..!

انها حيرة فى الحقيقة ، انه تحفز وتطلـع . من هذه النافذة لتلك ، ومن هذا اللحاف الى ذاك ، ثـم يعود الى الجلوس بجوار مذياعه المفضل نوع (النقطة الزرقاء) ، هذا المذياع الذى طالما امتعه فى ايام الرخاء باغانيه الشرقية ، وموسيقاه الاندلسية ، والحانـه الغربية ، والذى طالما ـ ايضـا ـ اخـذ بخناقـه وضيق انفاسه باخبار الاستعمار المتعنت ، وهو كذلك الذى آنسه ورفع من معنويته بنقل حماسيات (صوت العرب)، وتايدات الدول الشقيقة، واخبار محطاتهـا عن عمليـات الفـداء وحركـات جيـش التحـرير ، وبشاراتها بقرب عودة الملك من المنفى الى العرش ..

انقطع حبل التفكير عند الاستاذ عبد اللطيـف واقبل بكليته على المذياع ، ان محطة باريـز بـدات اذاعتها المسائية :

« هنا باريس ، محطة الاذاعة الفرنسية للراديو والتلفزيون ، نرسل اليكم سيداتي وسادتي اذاعتنـا المسائية من محطة باريز العربية على موجة قصيـرة طولها 25 مترا و 41 مترا فى اتجاه شمال افريقيا ..

نستهل اذاعتنا باغنيتين للمطربة السيدة ام كلثوم ، وستغني لكم في البداية : يا بهجة العيد السعيد)

عيد سعيد ؟ اي عيد ؟ اليوم هو الخامس من شهر نونبر ، وهو التاسع عشر من شهر ربيع الاول، فاي عيد هذا ؟ . . .

سيداتي وسادتي اعلنت محطة باريز الخامسة والنصف واليكم نشرة الاخبار :

« اجتمع مجلس الحكومة الفرنسية مساء اليوم السبت ، واصدر عقب الاجتماع البلاغ الآتي :
تلاحظ الحكومة الفرنسية بسرور ان الازمة ، التي فرقت المغرب ، اصبح الآن من الممكن جعل حد لها ، وذلك بفضل اجماع الشعب المغربي . ومع عودة جلالة محمد بن يوسف للجلوس على العرش الشريف اصبح الباب الآن مفتوحا لاجراء مفاوضات انشائية . ولجلالة الملك ان يشخص عما قريب الى المغرب . . .

وزاد البيان يقول :

« والحكومة الفرنسية تابى الا ان تساعد المغرب على ان يرتقي الى دولة عصرية حرة وذات سيادة (1) . . . »

اهتز الاستاذ عبد اللطيف وافلت منه زمام نفسه من شدة الاغتباط ، فقام يخطو مهرولا في الحجرة وهو يردد (الله ، الله ، الله) انه لو وجد السبيل الى السماء لاخترقها ، ليجهر في انحائها بملء فيه ، وبكامل قوته بآيات الحمد والثناء ، ولو تمكن من الجدران لطوقها معانقا مهنئا .. كل ما امكنه ان يفعل هو سماعة التليفون التي حملها ، وبث فيها الخبر الى زوجته الموجودة في الطبقة السفلية ، فما هي الا لحظات ، حتى تناهى الى سمعه زغاريد قوية ، ساهمت في اطلاقها السيدة زوجته وبعض خادماتها المحيطات بها. ومن مخاطبة زوجته انتقل الزوج الى مخاطبة عدد من الاصدقاء ، لتبادل التهنئة الحارة ، والبشارة المفرحة بهذا اليوم الاسعد الفريد الاغر من ايام الامة ، لطالما تمناه المواطنون الواعون ، وراوه — جازمين — قريبا غير بعيد ، وامنيتهم العظمى كانت ان يروه في حياتهم قبل مماتهم .. واليوم يحقق الاله الكريم الامل العظيم .

خاطب الاستاذ من تذكر اسمهم من المعارف والاصدقاء ثم وضع السماعة ، وبقي واقفا كالمصعوق. ان ما يجول في نفسه كثير ، وكثير جدا ، والمشكلة ان التعابير خانته فبقيت شفتاه تتمتمان في شيء من الاضطراب الكبير، ثم عاد فاهتدى الى ما يقول فقال :

— الله ، الله ، الله . المغرب العزيز استقل !

المغرب البلاد الغنية الجميلة الخصبة الدافئة ، التي تتمثل فيه كل مناطق الدنيا، الحارة منها والباردة والمعتدلة . . . سهول واسعة ، جبال شامخة ، شواطيء مديدة ، بحار من اشهر بحار الدنيا ، صحراء واسعة الاطراف ، غابات ، بساتين ، ضياع ، كل ثمار الدنيا ، كل مزروعاتها ، كل حيواناتها ، كل طيورها . . . يا لها من ارض سعيدة !

المغرب العزيز يستقل !

المغرب الذي يحكمه الفرنسيون حكما مباشرا شاملا ، ويعرفونه معرفة دقيقة كاملة بارضه وسمائه وبحاره ، وبسكانه من مختلف المناطق سهولا وجبالا وصحارى .. في كل درب جواسيس ، وفي كل حي ضابط ، وفي كل مدينة او قرية ضابط كبير ، وعلى راس كل منطقة جنرال جبار ، وعلى راس الجنرالات مقيم عام مفوض يفعل في شؤون البلاد ورقاب العباد ما يشاء !

الله ، الله ، الله ، المغرب يستقل ، وكيف استقل !

استقل بفضل عمل مآت من الفدائيين واجهوا اربعمائة الف جندي يرفرف عليهم العلم الفرنسي !

استقل بطلقات عشرات المسدسات تقابلها مدافع من مختلف العيارات والاحجام ، وسيارات مصفحة ودبابات وطيارات عمودية ونفاثة وغير ذلك من وسائل التدمير والفتك والمحق ، لقد كانوا يستطيعون — فعلا — ان يحرقونا احراقا ، ويفتكوا بنا فتكا ، دون ان يجدوا من بني عمومتهم في اوربا المتحضرة الا قليلا من الامتعاض ... **سبحانك** يا الهي (تعز من تشاء، وتذل من تشاء) . يالها من نعمة شاملة ، من اجل واعظم واكبر النعم ، الله ، الله ، الله !

واخذت نفس الاستاذ عبد اللطيف تهدا بعد فورة الابتهاج والغبطة المتناهية ، ولذلك عاد الى

---

(1) مقتبس من التصريح الرسمي الذي اذاعته الحكومة الفرنسية بتاريخ 5 نونبر 1955 .

لحافه واتخذ تحت ابطه وسادة ليتكيء ، واطلق بصره سارحا به عبر النافذة ، الى السماء الصافية ، التي كانت شمسها التاريخية تنحدر رزينة متزنة ، كانها عروس تخطر في تهيب نحو مخدعها الهنيء لاول ليلة !

وعاد فمرت بذهنه افكار متعاقبة ، كلها تشخص المحن القاسية التي مر بها الوطن والمواطنون طيلة اربع واربعين سنة : تقتيل الرجال والنساء ، احراق الاراضي ، تخريب المساكن . عشرون سنة منها من اجل نشر الحماية الفرنسية على جميع مناطق المغرب.. ثم نفي المواطنين وحبسهم طيلةاربع وعشرين سنة من اجل قضايا : الظهير البربري ، ومياه ابي فكران ، وميثاق المطالبة بالاستقلال .. وسفرة الملك الى طنجة ، وحركة الاحتجاج على قتل فرحات حشاد التونسي ، وعملية نفي الملك الخطيرة ، ثم تحركات الشعب احتجاجا على ابعاد الملك الجليل ، تلك التحركات التي قامت بالدار البيضاء ، والرباط ، وسلا ، وفاس ، ومكناس ، ووجدة ، ووادي زم .. الاف الضحايا راحوا الى ربهم شهداء ، مخلفين وراءهم ارامل وايتاما ، وخسائر وآلاما واحزانا ، تتمزق منها القلوب .. ان الاستاذ عبد اللطيف عاشها كلها ، واقعة واقعة ، وتحملت اعصابه الرهيفة ومشاعره الوطنية آلام كل حادثة على حدة ...

مهلا ، ها هي السيدة زينب قد صعدت لرؤية زوجها المتليء بالبهجة ، بعد ان وضعت على وجهها قليلا من المساحيق ، وعلى رقبتها رذاذا من العطر الفواح ، كما انها استبدلت كسوتها العادية بكسوة اخرى اكثر ملاءمة لهذه المناسبة الفريدة . انها لم تتمكن من الصعود قبل هذا الوقت ، ذلك لان اطفالها دخلوا عليها واحاطوا بها هاتفين ، لكانها زعيمة من الزعيمات ، كما مر بها اخوها السيد عبد الرحمان وهناها ، وطبع على خدها بالمناسبة قبلة حارة .. وهكذا لم تتمكن من رؤية زوجها الابي الغيور الا في هذه اللحظة ، لقد كان يحمل في قلبه جرحا داميا ينزف بالليل والنهار وها هو اليوم يشفى منه الى الابد ، وها هو الآن في احسن احواله ، فلا عجب ان تقدم وطبع على خدها قبلة قوية عتيدة ، واغتنمها فرصة وهو يدس انفه في العنق الاتلع الدافيء المعطر فاخذ يشهق ويبكي ، لقد غلبته الفرحة العظمى فانفعل ، واسال دموع الفرح ، دموع الفرح العميق .. ولم يقلت الزوجة الا عندما نبهته بلطف الى وجود الخادمة التي تبعتها تحمل صينية الشاي ، ومبخرة الند ، ومرشة الزهر المقطر .

وانطلق اخو الزوجة السيد عبد الرحمن من فوره الى المدينة يذرعها من ادناها الى اقصاها ، موزعا تهانئه وقبلاته وعناقه على الاصدقاء والمعارف بكامل التفتح والانشراح ، وسعى ان يزور قدماء المحبوسين والمعذبين على يد الاستعمار ... ان السيد عبد الرحمن هو ايضا يستحق التهنئة والتقدير ، لقد قاسى في سبيل الله والوطن ماقاسى ، الا انه لا يعرف كيف يصطنع الشموخ والترفع امام اعين الناس ، ولذلك ترك نفسه تجري على سجيتها، ومضى يطوف الشوارع والدروب ، وعلى فمه ابتسامة عريضة ، وتملأ جوانحه خفة ما بعدها خفة ! ولما اتم تطوافه الكبير اتجه الى دار اخته زينب ليكمل الامسية بجانب احد اقطاب الوطنية الاوفياء ولكن تساءل لماذا لا يذهب الى دار صهره الثاني (العربي) ؟

الى دار صهره العربي ؟ لا يمكن ، انه منذ صلاة العصر ، وهو لا يصافح الا المخلصين المتفانين في محبة وطنهم ، فهل يليق ان يختم يومه بوضع يده في يد خائن عتيد من اشهر خونة البلد .. لكن اخته المسكينة (عائكة) يجب ان يراها ، ويبارك لها هذا المساء السعيد ، ما دام الفلظ لا يتعلق بها مطلقا . لقد تزوجت (العربي) رجلا عاديا من رجال التجارة ، ولكنه ايام اشتداد المحنة انحرف الى جهة الاستعمار طمعا في ازدياد الارباح ، وكان جزاؤه ان احترق متجره مرتين ، وتعرض لمحاولات اغتيال فافلت .. ومع ذلك فعبد الرحمن يود وقد راى المستبشرين ان يرى بعينيه الاثنتين خائنا يتقطع من الالم والحسرة والخذلان ...

هل سيواسيه ؟ لا .. هل سيسبه ويلعنه ويتشفى من حاله القاسية ؟ ان الامر لعسير ما دام في الامر اخت حنون حالتها تدعو الى الرثاء والشفقة .. انها منذ اسابيع وهي تشقى باخبار قرب انفراج الازمة ! ان ذلك يعذبها ويفقدها الهناء ، انها تريد خيرا لوطنها ولكن محنة زوجها (العربي) الكبرى ستبدا ، وستبدا معها محنة الاطفال ايضا ، لقد ظهروا في هذا المساء وجوههم مصفرة ، واطرافهم مرتعدة هلعا وتخوفا ، لقد واجههم الاطفال من مثل سنهم بهذا الهتاف :

(الاستقلال ها هو جانا

الله يلعن الخونة)

حكوا ذلك لامهم فهاجت منها النفس ، وامتلات

بالحسرة واللوعة ، حتى ان دموعها السائلة لم تكن لتفريج همها .

دخل السيد عبد الرحمن وقصد توا الى القاعة العلوية التي يلازمها زوج اخته المنكوب ، وتبادرت الى ذهنه تصورات سريعة سرعة مرور لقطات الفيلم امام المتفرج ، وكانت هذه التصورات تتبدل من درجة الى اخرى .. اترى هذا التعس مبهوتا مصعوقا كمن مسه سلك كهربائي ؟ ام تراه متقلبا على الفراش يتقطع منه القلب والنفس ، وتكاد الروح منه تزهق ، ولربما يكون في هذه اللحظة بالذات ـ مثل الذين تنزل بهم المصائب فجاة ـ يضرعون الى الرب الذى تنكروا لنعمته ، فكفروا بوصاياه في نصرة الملة واهلها .. او قد يبلغ به الياس منتهاه فيروح يبحث عن نهاية لحياته . ان ما فعل الرجل يجعل الانتحار قليلا في حقه .

وطوى عبد الرحمن الدرجات طيا ، الواحدة بعد الاخرى ، واذا به يتناهى الى سمعه اصداء نغمات عسكرية رائعة ، انغام يعرفها عادة من محطة (صوت المرب) ، ويردفها المذيع عادة بعبارات نارية تهتز اعماق الاعماق حماسة وثورة ..! لقد توهم السيد عبد الرحمن انه ربما يكون ضل الطريق وصعد الى حجرة اخرى في منزل آخر ، ولكن الصوت ناداه :

ـ اصعد يا عزيزي عبد الرحمن ، اصعد اصعد لتشاركني سعادتي بهذا اليوم العظيم الذى طالما تشوقنا نحن المغاربة اليه ، اصعد .. المكان كما تعهد ، والصهر هو صهرك (العربي) نفسه ... وارتمى العربي بحرارة في احضان صهره السيد عبد الرحمن واوسعه تقبيلا على العنق وعلى الراس ، الشيء الذى جعل الزائر يغرق في بحر متلاطم من الدهشة ، ويكذب عينيه . هل هو حقا مع الصهر (العربي) الذى طالما سخر بالوطنية والوطنيين ، واشاد معجبا بالاستعمار !

انما امتلك الصهر الزائر زمام نفسه فلم يبادل صاحب الدار تهنئة بتهنئة ، لانه يربا بلسانه ان يقول كذبا ، وهو وان كان قد تحكم في لسانه ، فان عينيه واذنيه تفتحت لتسمع ما يثير العجب ! ان صاحب المنزل الفخم واقف على التليفون يتحدث مهنئا احدهم في انشراح واغتباط ، ومن دلائل رضاه عن حاله ، وعن نفسه : انه ارتدى جلبابا (بزيويا) شفافا تظهر من تحته بذلة زرقاء فاتحة ، وتطوق العنق ربطة حريرية فاخرة ويغطي الراس طربوش فيصلي منبعج الوسط ، اقتداء بامير المومنين محمد الخامس بطل الاستقلال ، ثم ان السيجارة الامريكية كانت تنفث دخانها العاطر مما زاد الموقف غموضا وتعقيدا .

ومال صاحب الدار ـ وقد لاحظ ما لاحظ من تعجبات الزائر فابى الا ان يزيده دهشة على دهشة ، ولذلك تقدم الى (آلة التسجيل) وادار مكبها الى الخلف ، ثم ضغط لينطلق منها صوت المذيع منغما يذيع الخبر الخالد :

« اجتمع مجلس الحكومة الفرنسية مساء يوم السبت ، واصدر عقب الاجتماع البلاغ الآتي :

تلاحظ الحكومة الفرنسية بسرور ، ان الازمة التي فرقت المغرب اصبح الآن من الممكن حلها وذلك بفضل اجماع الشعب المغربي ، ومع عودة جلالة محمد ابن يوسف للجلوس على العرش الشريف اصبح الباب مفتوحا لاجراء مفاوضات انثائية ، ولجلالة الملك ان يشخص عما قريب الى المغرب ..

والحكومة الفرنسية تابى الا ان تساعد المغرب على ان يرتقي الى دولة عصرية حرة وذات سيادة . »

واختتم (العربي) هذا الخبر التاريخي المسجل بان قال على سبيل النكتة **(ابرم الحماية ريتو وسيلفيها بينو)** لا ردهم الله جميعا ...!

وعاد فاقبل على التليفون وادار القرص المثقب الى شخص ما ، واخذ يهتف :

ـ اهلا وسهلا .. الله يبارك في عمرك يا اخي ، اليك تهنئتي انا ايضا ، هذا هو اليوم الذى طالما ترجيناه ، كيف ؟ قل انا مستمع اليك ... لا . لا يا اخي اشغالي لا تسمح بتولي اي منصب في عهد الاستقلال ، دع هذا لمن يطلبونه . وانت تعرف انني رفضت الذهاب الى (ايكس ليبان) انما يمكن ان اساهم في حفلات اعياد استقلال جلالة السلطان واسرته ، واعياد توقيع وثيقة الاستقلال ، نعم اعتمدوا علي في الكثير من اثاث المنزل للتزيين والاحتفال ... الى اللقاء !

وكلمة (الى اللقاء) لم يسمعها السيد عبد الرحمن لانه ولى هاربا من هذه المفاجآت الباعثة على الجنون وخروج العقل !

ونزل الصهر الى اخته فوجدها واجفة حيرى ، كانها هي ارتكبت ما ارتكب ، الا ان حيرتها وخوفها تضاعفا بسبب تدافع مواكب المتظاهرين التى كانت تتردد على باب المنزل جماعة بعد جماعة تهتف ضد الخونة انصار الاستعمار ...

الرباط ـ محمد بن احمد اشماعو



كانت زيارة المغرب امنية تراود النفس منـــذ سنين . لا سيما بعد ان قيض الله لي زيارة اغلـب الاقطار الاوربية . ولم استطع زيارة قطر واحد مـن اقطار المغرب .. ولكن الظروف لم تسمح بتحقيق هذه الامنية ، وذات يوم من ايام رمضان المبارك تفضــل بزيارتي الاستاذ عبد الخالق ابراهيم القائم باعمال السفارة المغربية (الذي نقل من بغداد حديثا) حاملا الى دعوة ملكية كريمة لزيارة المغرب والمشاركـة في الدروس الرمضانية فشكرته على ذلك . وما هي الا ثلاثة ايام حتى اكملت اجراءات السفر ووجدت نفسي في طائرة شركة الشرق الاوسط من نوع (كرافيل) . وبعد اكثر من ساعة بقليل كنا في مطـار بيـــروت .. وامضينا استراحة قصيرة ركبنا بعدها متن طائــرة اخرى نقلتنا الى روما .. وكان علي ان امكث ســت ساعات في هذه المدينة بانتظار طائرة اخرى .. ولمـا كنت قد شاهدتها سابقا وامضيت فيها بضعة ايام لذلك فضلت البقاء في المطار لانه يبعد عن المدينة ساعة او نحوها في السيارة .. كان الجو باردا . والسماء ممطرة جلست ارقب المسافرين وهم بين غاد ورائح .. ازياء مختلفة . ووجهات متباينة : هذا مسافر الـى الشرق ، وذلك الى المغرب .. وهذه الطائرة الـى الشمال ، وتلك الى الجنوب .. ان مطار روما حركة دائبة .. لا يودع طائرة حتى يستقبل اخرى .. كم تمنيت على الله سبحانه ان يكون في مطارات البلاد العربية ما هذا المطار وامثاله من النشاط والحركة .. وخطر ببالي خاطرة اخرى : انا قاصد الى الرباط فما الذي يأتي بي الى روما ؟

ولاشك في ان الاجابة ترتبط ارتباطا وثيقا بالحالة الاقتصادية التي تعيشها البلاد العربية .. فليست هناك تجارة واسعة او نشاط يساعد على انشاء الخطوط المباشرة بين هذه العواصم النائية المتعددة .. وكان مع هذه الخاطرة والاجابة أسى .. ودعاء من الاعماق ..

وبينما انا جالس اعد الساعات اذ تقدم نحوي رجل وسيم تخطى العقد الخامس من سني حياته ، يبدو عليه الوقار والقى علي بتحية الاسلام بالعربية ، ولم يستطع ان يتم حديثه الا باللغة الانكليزية : قال : انه طبيب مسلم يسكن روما وقد لفت نظره شعاري الذي ارتديه في راسي وعرف منه انني مسلم ولذلك رغب في محادثتي فشكرته على تحيته ولطفه ولبثنا غير قليل من الوقت ، ثم ودعني وانصرف بعد ان ترك لي عنوانه وطلب مني مكاتبته وشكرت الله سبحانه ان جعل من المؤمنين اخوة اينما كانوا .

حان وقت الطائرة الاسبانية فركبتها الى مدريد فبلغناها حوالى الساعة العاشرة ليلا ثم ذهبت الـى فندق وسط المدينة وقضيت فيه ما بقي من تلك الليلة ، وفي اليوم التالي ركبت طائرة من طائرات الخطـوط الجوية الملكية المغربية من نوع (كرافيل) ايضـا ، فنزلت بنا في مطار طنجة وبعد استراحة قصيرة حلقت مرة اخرى في الفضاء ، ثم حطت رحلها بعد مدة قصيرة في مطار الدار البيضاء .. وفي المطار رحب بي الاستاذ عبد اللطيف الحاي ناظر الاوقاف هناك . وهيأ لـي سيارة خاصة اقلتني الى الرباط . وقضيت ساعة او اكثر قليلا في اجمل طريق من طرق العالم ، حيـث الاشجار الباسقة على الجانبين ، والنظام البديع ، والتبليط الفاخر الذي يضاهي (اتوبان) اوربا ، بـل يمتاز عليه بانك اذ نظرت الى شمالك رأيت زرقـة المحيط الاطلنطي تحاكي زرقة السماء بل تسابقها ، فاذا كانت الشمس طالعة رايتها ترسل ضفائرهـا

الصفراء المسجدية على اشجار الزيتون الكثيرة الممتدة على ضفتي الطريق ، وفي السهول الخضراء الفسيحة فتحيل تلك الخضرة الى لون خلاب .

وصلت الرباط قبيل الغروب بلحظات وهي مدينة جميلة جدا ، تقع على ساحل البحر الاطلنطي ، غنية بآثارها ومساجدها التاريخية وزخرفتها . وفيها محطة لقطار تحت الارض ، ويبلغ تعدادها نصف مليون نسمة تقريبا وهي عاصمة المغرب في الوقت الحاضر .

كان السائق مأمورا ان يوصلني الى فندق — صومعة حسان — وهو من افخم الفنادق .. وفور وصولي اليه استقبلني موظف من وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية فرحب بي ، واخبرني ان السيد الوزير مدعو الان الى وليمة افطار وقد كان في انتظاري حتى ادرك الوقت فانصرف .. فشكرته وسررت من تحيته وخجلت من اعتذاره .

ودلفنا الى مطعم الفندق وتناولنا طعام الافطار ولا شك ان هذا كله ان دل على شيء فانما يدل على كرم اخواننا المغاربة وعظيم اخلاقهم ، وعميم فضلهم .

وفي الليلة التالية توجهت الى ضريح — مولاي الحسن الاول — حيث الدروس الرمضانية ، وهذا الضريح يقع في ناحية من القصر الملكي ، ويضم ثلاثة ملوك عظماء : محمد بن عبد الله ، مولاي الحسن الاول محمد الخامس رحمهم الله تعالى .

وبجانب هذا الضريح قاعة صغيرة مربعة الشكل يتوجه جلالة الملك الحسن الثاني — وفقه الله الى خدمة الاسلام — الى هذه القاعدة كل ليلة من ليالي رمضان بعد صلاة العشاء فيجلس في صدرها ، ويجلس عن يمينه اخوه الامير عبد الله والسادة سفراء الدول الاسلامية ، ويجلس عن شماله السادة الوزراء. وامام جلالته يجلس كبار علماء المغرب ، وكبار رجال الدولة والضيوف وما ان ياخذ مجلسه حتى ياذن ببدء الدرس باشارة منه . فيتلو السيد الحسناوي — وهو من القضاة — الحديث الشريف الذي سيشرحه المحاضر في تلك الليلة ، ولا يذكر اسم المحاضر ، ولا يقدمه على اعتبار انه معروف للجمهور ثم يبدأ المحاضر بالقاء الدرس ويستغرق عادة ساعة ونصف الساعة. وبعد الانتهاء يصافح جلالة الملك السادة السفراء والمحاضر ثم ينصرف .

وهذه الدروس الرمضانية تنقل عن طريق الاذاعة والتلفزيون ، ولا شك ان فوائدها اعظم من ان تحصى، ففيها حفز للهمم ، وحث على تعلم العلوم الدينية ، واحترام للعلماء ، وتشجيع لطلاب العلم . وهي تذكرنا بالخلفاء العباسيين يوم كانوا يقربون العلماء ، ويعقدون المناظرات العلمية في مجالسهم .

ويبدأ الموسم عادة في اليوم الثاني او الثالث من ايام رمضان المبارك من كل عام . وينتهي في منتصف الشهر وفي آخر يوم يلقي جلالة الملك نفسه الدرس . ومنذ سنوات ثلاثل رغب ان يدعو من البلاد الاسلامية من يشارك في هذه الدروس ايضا . وقد اخبرني معالي وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية الاستاذ احمد بركاش ان منهاج كل موسم يقترن بمصادقة جلالة الملك قبل حلول رمضان ، ثم لا يجري عليه اي تعديل الا بموافقة جلالته .

يبلغ تعداد الشعب المغربي اربعة عشر مليونا تقريبا .. وهو يحب العراقيين حبا جما ، ومرد ذلك الى ما بين الشعبين من تشابه في العادات والتقاليد وفي اللغة الى حد بعيد ، ولم تكن اخلاق هذا الشعب غريبة علي ، فقد كان لي زملاء مغاربة في جامعة الازهر عرفت عن طريقهم ان المغربي فيه شدة ولكنها شدة مغلفة بأدب جم ، وتواضع كبير ، وخلق عظيم ، ولقد لمسنا الاحترام التام والتفاني في الخدمة .. والرقة في الحديث ، اينما ذهبنا وحيثما حللنا .

ان المغاربة عرب قبل كل شيء ، ثم انهم مسلمون دخلوا الاسلام واعتنقوه عن يقين . وكان لهم معه شأن واي شأن ، فقد خدموه خدمة جلى ، وحملوا تعاليمه — مع من حملها — وعبروا بها البحر ، وفتحوا بعض الاقطار الاوربية ثم كتب عليهم ان يعيشوا تحت الحكم الفرنسي ، وان يختلطوا بالفرنسيين وقد افادوا من كل ذلك : افادوا من تعاليم الاسلام ، ومثله العليا واخلاقه الفاضلة . وافادوا مما لدى الفرنسيين من خير وبقيت فيهم شهامة العرب ، وشدة بأسهم وقوة شكيمتهم ، صفات كريمة متأصلة ، فاذا اخذت — ايها القارىء الكريم — تعاليم الاسلام وشدة العرب ، ورقة الفرنسيين ، ومزجت ذلك كله كان الناتج : اخلاق الشعب المغربي . وعلماء المغرب اشهر من ان يعرفوا، او يكتب عنهم فقد شاهدنا افذاذا فطاحل يحفظون القرآن الكريم ويحفظون الحديث الشريف بسنده ولا يكتفون بالمتن فقط ، يتكلمون الفصحى بذلاقة وطلاقة، ويروون التاريخ البعيد ، كأنه الامس القريب ، يستظهرون اراء المذاهب الاسلامية ، مع اعتزازهم بمذهب امامهم مالك رحمه الله تعالى المنتشر هنالك .

العراق : علاء الدين خروفة

حلقات من تاريخنا المجيد :

تكوين الأطر في عهد الحسن الأول

للأستاذ : الحاج أحمد معنينو

.. انه لمن دواعي السرور والغبطة ان اعود مرة اخرى للبحث «حول تكوين الاطر فى عهد الحسن الاول» وحثه رحمه الله ، لرعاياه على تعلم اللغات الاجنبية وشؤون الدفاع ، تأمينا لسلامة الدولة وحماية لسيادتها ، وضمانا لمستقبلها . فلقد طغى فى هذا العهد سيل المطامع الاستعمارية ، حتى كدنا نرسب فيها الى الرأس ولا ننتفض ونسعى للوقوف امام التيار الجارف، ان لم نكون من انفسنا سدا منيعا يقينا من هاوية لا قعر لها ! حتى ان بعض الكتاب الاجانب يزعمون بغير استحياء انهم اماطوا اللثام عن دفائن النفس المغربية ، وهبطوا الى اعماق اغوارها ، واستكشفوا آمالا عراضا . ولكن وفرة الظهائر الملكية الشريفة والقرارات الوزارية والتوجيهات الادارية فى عهد الحسن الاول التى وقفت عليها فى بيت من بيوتات سلا المجيدة . هو بيت «آل بن سعيد الكرام» حيث كان فى جهاز الدولة الحسنية عدد من ابنائها البررة يتحملون المسؤولية فى الدولة ويتصفون بالنصح والغيرة والاستقامة لدى الملك الصالح الهمام الحسن الاول تهتم بشؤون الامة ، وتعمل جهد الطاقة على تكوين افواج الشبيبة المغربية ، لتتحمل المسؤولية وهي واعية وعارفة بواجباتها ، وبذلك تصبح دولتنا الفتية فى مصاف الدول الراقية .. اننا ابناء الاطلس مستودع احدى المدنيات الخالدة. وانما الغشاوة السميكة هي التى حالت دوننا ودون مااؤتمنا عليه ! ودولة الحسن الاول كانت تحاول ان تحطم السلاسل والاغلال ، وتستنير بمشكاة العقل والتدبير ، لا تهاب سطوة ، ولا تضن بتضحية.

والحديث عن عهد الحسن الاول هو حديث عن ايام كانت فيها الاطماع الاستعمارية والتوسعية الاوربية متجهة الى المغرب بوصفه من الدول الافريقية التى حافظت حتى الربع الاول من القرن العشرين على استقلالها ، ووحدة ترابها ، وكان لزاما على الملوك العلويين ان يحافظوا على هذا الكسب الوطني . وبذلك سارع الحسن الاول الى تكوين اطر قوية ، وقادرة على الحفاظ على هذه النعمة ، من تأليف جيش قوي بأطره وتدريباته ، يستطيع الدفاع عن شواطىء المغرب ، وثغوره ، ابعادا لكل احتلال اجنبي ، وقضاء على كل اطماع خارجية . وهكذا اتجهت نية الدولة المغربية تحت رئاسة المولى الحسن الاول الى توجيه البعثات تلو البعثات للاحتكاك بالتطور الصناعي الجديد فى أوربا ولاقتباس أحدث الطرق لاستعمال السلاح وفى مقدمته المدفعية التى كانت تلعب اذ ذاك دورا فعالا فى كل المعارك ، وبالتالي تكوين اطر تقوم هي بدورها بعد رجوعها الى الوطن بتدريب الجنود والمجاهدين استعدادا لكل الكوارث! واتجهت نية المولى الحسن كذلك الى تعلم اللغات الاجنبية كطريق للحوار والمفاوضة وكتفتح على حضارات قريبة من ديارنا ، وكتحضير لكل اتصال يتم على الصعيد الدولي او لتبادل البعثات الدبلوماسية والاقتصادية والتجارية خصوصا . وان المغرب عرف فى عهد الحسن الاول بتحول جذري فى



السلطان المقدس المولى الحسن الاول

عملته ، واصبح الريال الحسني هو العملة الرسمية للدولة وهو المقياس الحقيقي والذى يمكن كل تطور فى الاقتصاد الوطني .

ولقد سبقت الاشارة فى المذكرة « لطالب مغربي منذ ثمانين سنة » نشرت على صفحة مجلة « دعوة الحق » القراء بالعدد الاول من السنة الثانية عشرة الى انتخاب تلامذة البعثة لايطاليا من بين الطلبة والشرط الاساسي : صغر السن مع الذكاء والنجابة، وحسن السلوك ، حيث حضر للمغرب نائب عن سفير ايطاليا لهذه المهمة

1 ــ وهذا الظهير الشريف المؤرخ بـ 1304 هـ يكشف النقاب على ان كبار السن كانوا لا يصلحون لتعليم اللغات الاجنبية ، والعلوم الحديثة ، ولذلك جاءت التعليمات من جلالة الملك لعامل سلا وغيره يأمره بالنهج الذى يجب ان يتبع فى اختيار الطلبة وفعلا نفذت اوامره .

2 ــ بعثة ثانية من عشرة طبجية (المدفعية) يتعلمون على اساتذة من انجلترا استقدمهم جلالة السلطان الحسن الاول الى طنجة للقيام بتكوين طوائف الشباب المغربي، فى مهنة الطبجية حتى اذا احضرت الدولة المدافع الكبيرة لحراسة المغرب نجد نخبة من المتخرجين المغاربة حاصلين على الكفاءة العلمية والمقدرة المهنية. وهذا ما يعبر عنه الظهير المذكور .

3ــ بعثة ثالثة لمصر الشقيقة فى عهد **اسماعيل باشا** بتاريخ 1283 هـ. تتعلم خطط الجهاد وعلم البحر وتطبجيت. وقد استجاب ملك مصر اذ ذاك لقبول هذه البعثة وتتركب من ثلاثين تلميذا ؛ وقع اختيارهم من اولاد « الجيش البخاري » واهل فاس واهل العدوتين سلا والرباط واهل الصويرة . وقد عين عامل سلا ثلاثة طلاب هم السادة : المكي الزواوي ، محمد بلمعطي السقياني ومحمد بن المختار معنينو .

والشرط الاساسي فى اختيار هؤلاء الطلاب صغر السن مع النجابة والذكاء والفطنة وقد وعد جلالة السلطان الطلاب وعائلاتهم بالمراتب العليا لمن بورع منهم واجتهد فى مهمته .

4 ــ بعثة رابعة **لبر النصارى** ، شاركت سلا فيها بخمسة افراد صغيري السن ، ذوي الذكاء والفطنة لتعلم علم البحر والرئاسة بعد ان يتعلموا ما يكفيهم فى ذلك من اللسان بطنجة ، وفى الرباط خمسة كذلك بظهير شريف مؤرخ 1294 هـ .

5 ــ بعثة خامسة لمدينة طنجة بتاريخ 1301 هـ هذه البعثة كلها من مدينة سلا وتتعلم افرادها مهنة تطبجيت من المهندس الفرنسي « لوبلان «Le Blanc الذى جلبه المولى الحسن من فرنسا لتعليم ابناء المغرب وتدريبهم والشرط الاساسي هو صغر السن والذكاء والفطنة .

6 ــ بعثة سادسة لبلاد المانيا قوامها شخصية مرموقة فى ذلك العصر : هي شخصية السيد الحاج محمد زنيبر رئيس الطبجية اذ ذاك ارسل الى المانيا عن طريق عامل الرباط السيد عبد الرحمان بركاش وذلك بتاريخ 1306 هـ ليتعرف على النظم الحديثة ويتدرب على احدث الاساليب فى ذلك العهد .

7 ــ بعثة سابعة تتلقى معلوماتها فى الحساب والهندسة بمدينة الرباط ، على الاستاذ احمد بن رقية من الرباط ، ونائبه الاستاذ عبد الرحمن بن عبد العزيز عواد من سلا وذلك فى سنة 1301 هـ .

8 ــ امر مولوي كريم بواسطة الحاجب السلطاني اذ ذاك السيد موسى بن احمد، يأمر العامل باسم صاحب الجلالة بوجوب الاهتمام بشؤون الطلبة الذين يتلقون معلوماتهم بسلا والرباط ، ومراقبتهم ومنع الراتب عمن يتكاسل منهم ، ولو يوما واحدا ، يقطع له راتبه فى المنحة ..

وهكذا نجد هذا العهد الشريف يسير النهضة الفكرية بالبعثات العلمية بمختلف دول العالم لتحوز دولتنا الفتية مكانتها من بين تلك الدول الراقية فى عهد المولى الحسن الاول طيب الله ضريحه .

سلا ــ ج احمد معنينو

الحياة الصوفية في العصر العلوي :

الفتوحات الربانية في شرح الصلاة المشيشية

لمحمد بن جيون الزرويلي
للأستاذ : محمد المنتصر الريسوني

سطر المغرب فى التصوف آيات بينات لا تقل روعة عن آيات الشرق ، وان كان هذا منبعها الاول وموردها الاصيل .

وكان من المسلم به بعد ان انتشرت الموجة التصوفية فى طول البلاد وعرضها ان يكون للمغرب نصيب وافر فى هذا الحقل الخصب يقوم به رجال انقطعوا لعبادة الله ومناجاته ، وتجردوا عن الدنيا ليدلفوا عتبة الحضرة الالهية ، ويتسلقوا مرحلة الاشراق ، والكشف ليفيض الله عليهم المعارف اللدنية ، فيصبح عندهم الحب اس الوجود ، وانشودة الكون الواسع ، وجلوة انس فى برزخ زكي يموج بالفيوض والاشراقات على غرار اخوانهم السابقين فى الشرق امثال الفضيل بن عياض المتوفى سنة 187 هـ وبشر الحافي المتوفى سنة 226 هـ وذي النون المصري المتوفى سنة 245 هـ وابي يزيد البسطامي المتوفى سنة 261 هـ .

ويمكن القول ان البذور الاولى للحركة التصوفية فى المغرب ترجع الى اصحاب الانفتاح الروحي الاول الذين ظهروا على مسرح الحياة منذ عصر الادارسة كالقاسم بن ادريس ، وابي سلهامة المصر الأروجة المتوفي فى حدود سنة 345 هـ ، وعصر المرابطين كابي يعزى يلنور المتوفي سنة 572 هـ .

وباستقصاء حياة اولئك الرواد الاول من المتصوفين وغيرهم من الذين عرفوا بزهدهم ورياضتهم الروحية ، وآرائهم التصوفية عبر العصور المغربية السياسية يتوفر لدينا بحث خاص مستقل بنفسه .

وفى عهد الدولة العلوية الشريفة امتدت الحركة العلمية امتدادا واسعا وتفرعت غصونها ، وطابت ثمراتها ، لما كان يوليها ملوكها من اهمية بالغة ـ منذ تقلدوا الحكم ـ لرعاية العلم وتشجيع العلماء ، وتعبيد الطرق لهم ، وتهيئة الجو المناسب ليفرغوا للتاليف والتدريس ، وافادة المتعطشين للمعرفة ، ولذلك عاشت الامة المغربية تنعم فى ظل العرفان ، وان خير ما يبرز لنا هذا الجانب المشرق من حياة امتنا انتشار العلماء فى كل مدينة وقرية ، والكتب التى الفوها فى شتى الفنون من تفسير وقراءات وحديث وفقه وطب ، مما هو متعالم فى المصادر التاريخية ـ قديمها وحديثها ـ التى تتحدث عن الفكر المغربي ايام الدولة العلوية ، فليرجع اليها من اراد الوقوف على عين الحقيقة .

وقد كان الفن التصوفي من جملة تلك الفنون التى حظيت بالاهتمام ، وليس هناك ما يبين لنا هذا الاهتمام ويفسره خير تفسير من الكتب العديدة التى الفت فى هذا المضمار ، منها ما هو مطبوع متداول بين الايدي ، ومنها ما لا يزال رهين الظلمة فى الخزائن الحكومية ، والخزائن الخاصة يترقب من يبعث فى شرايينها الحياة .

وفى هذا الصدد اشير الى بعض منها ـ وهو قل من كثر ووشل من بحر ـ مما يتناول التصوف وما يتصل بالتصوف فى لحمته وسداه كبيان لحركة التاليف التصوفية فى هذا العصر :

شرح الحكم العطائية للحمومي شرح دلائل الخيرات للمهدي الفاسي المتوفى سنة 1109 هـ ، شرح الحزب الكبير لاحمد الوزير المتوفى سنة 1144 هـ ، كتاب فى حقائق التصوف لابن عجيبة المتوفى سنة 1124 هـ، شرح الحزب الكبير للشاذلي له ، كتاب ايقاظ الهمم فى شرح الحكم له ، المزايا فيما حدث من البدع بام الزوايا لابن عبد السلام الناصري المتوفى سنة 1239 هـ ، رسالة الصوفي للصوفي لابن عزوز المراكشي المتوفى حوالي سنة 1295 هـ .

شرح المشيشية :

المولى عبد السلام بن مشيش بالميم وقيل بشيش بالباء ، وابدال احدهما من الاخرى لغة مازنية ـ ومعناه الخادم الحقيقي الحاذق ـ كما تقول فى اطمئن اطبئن وفى بكر مكر على لغة هذه القبيلة ، ينتسب الى الدوحة النبوية الشريفة ، عرف بالصلاح والتقوى فكان قطبا من اقطاب التصوف المغربى خاصة والاسلامي عامة ، عنه اخذ ابو الحسن الشاذلي فاسس الطريقة الشاذلية توفي رضي الله عنه حوالي سنة 625 هـ (1) شهيدا ، بجبل العلم قتله اللعين ابن ابي الطواجين الساحر المدعي النبوة ، ودفنت جثته الطاهرة بقنة الجبل السالف الذكر .

ولشهرة هذا العارف بالله التى غمرت آفاق الشرق والغرب، وصيته التي عمت السهول والجبال، وذكره الذى سار على كل لسان تسابق علماؤنا الى استظهار صلاته المعروفة بالمشيشية ، والتبرك بتلاوتها ، واستمراء ما انطوت عليه من اسرار تصوفية، واشارات ربانية وحقائق اشراقية ، وما تميزت به من حلاوة فى التركيب وروعة فى البيان وفتنة فى المضمون ، ولم يقتصروا على ذلك فقط ، بل اولوها كبير العناية وبالغ الاهتمام بشرحها وفك ما استغلق حمله على الافهام ؛ وبيان ما تضمنته من رموز ، والحقيقة ان ما اطلعت عليه من شروح يختلف فى منهجه وتحليله تبعا لاختلاف ثقافة الشخص العلمية والتصوفية ، وتكوينه الذوقي .

والعلماء الذين اضطلعوا بشرحها هم : محمد بن علي الخروبي المتوفى سنة 963 هـ والزياتي المتوفى سنة 1023 هـ والتجيبي المتوفى سنة 1030 هـ ، وابن زكري المتوفى سنة 1144 هـ، ومحمد الزرويلي المعروف بابن حيون ـ وعليه مدار الكلام ـ ، واحمد الوزير وابن عبد السلام بناني المتوفى سنة 1163 هـ ، والحراق المتوفى سنة 1261 هـ ؛ والحمومي ؛ وابن عجيبة ؛ والطيب بن كيران المتوفى سنة 1227 ؛ وعبد الكريم الورديغي المتوفى سنة 1313 هـ ، ومحمد الكتاني الذى استشهد سنة 1327 هـ .

وقبل الحديث عن المخطوط ارى ضروريا ان اعرف بصاحبه ولو ان هذا التعريف ليس بشاف الغليل ، ذلك لانه من الشخصيات التى لا تزال غفلا تنتظر من يكشف عنها ، وينقذها من هوة النسيان ، وكم من نظرائه ـ وبخاصة علماء البادية ـ يعيش فى ظلمة حالكة قاتمة يحن الى الضوء ويهفو الى الحياة .

وصاحب المخطوط هو محمد بن احمد بن عيسى المعروف بابن حيون (2) الخمسي الزرويلي ويغلب عن الظن انه درس بفاس على شيوخ الوقت ، ينتسب الى عبد الملك بن مروان الاموي .

توفي سنة 1180 هـ ودفن بحي «جنانات» الاشراف الريسوليين بتازروت ، وقبره مقصد الزوار يتبركون به قصد الشفاء من الحمى ؛ ولذلك عرف هنالك بسيد الحمى .

والمخطوط يحتوي على 16 ورقة (21 × 15) ؛ ولست اعلم له نسخة غير التى بقسم المخطوطات بالرباط تحت رقم (952 د) ، ونسخة اخرى لدي كتبت بعد وفاة المؤلف باربع وستين سنة ، مما يؤكد ان هذه النسخة ليست بخط المؤلف ، وان النسخة الاصلية قد تكون موجودة عند احفاده ببني زرويل ، ذلك لان تاريخ نسخها مؤرخ بعام 1244 ووفاة المؤلف كانت عام 1180 هـ كما سبق .

وهذه النسخة كتبت بخط مغربي لا باس به ، لكن الارضة تآكلت بعض صفحاتها ، ورغم ذلك فان قراءتها ليست بالعسيرة ، اما الشرح فقد كتب بالحبر الاسود والفقرات المراد شرحها من الصلاة المشيشية فقد ميزها الناسخ بالمداد الاحمر .

وقد استهل ابن حيون شرحه بمقدمة مسجوعة كعادة المؤلفين القدامى ، وبالحمدلة والصلاة على النبي

---

(1) وقيل سنة 622 او سنة 624 هـ .

(2) وتسمى عائلة ابن حيون باولاد ابن حيون وهم يدعون الشرف انظر العز والصولة لابن زيدان ص 95 ج 2 الطبعة الملكية .

الكريم ، وختمه ـ بما ختم به المولى عبد السلام صلاته ـ بالآية الكريمة « ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من امرنا رشدا ».

واما مصادره في الشرح فان ابن حيون رحمه الله لم يعتمد الشروح الاخرى وانما اقتصر على الامام محمد علي الخروبي ليس الا وقد علل ذلك هو بقوله :

« ثم اعلم اني لم اطلع على شيء من شراحها غير شرح الامام الخروبي الطرابلسي فرأيته رضي الله عنه يشرحها بما تقتضيه عقول العلماء الذين لم تشرق انوار الحضرة الالهية الى قلوبهم ، وما لم تتصل (1) اليه العقول ردها اليها بالتأويل »

وقد يكون سبب اعتماد المؤلف على شرح الخروبي فقط انه لم يتسن له الاطلاع على الشروح التى وضعت قبله ، خاصة وان المصادرة لم تكن ميسرة كما هي عليه اليوم ، وهذا لا ينفي ان ابن حيون قد اعجبه بشرح الخروبي ، واستطاب ذوقه التصوفي وطريقة التحليل ، وان كان بعض الشروح الاخرى اشد عمقا ، واكثر انسجاما والجو الروحي الذى تدور فى فلكه المشيشية .

وفيما يخص منهج ابن حيون فى شرحه فانه يمضي فى تحليل المشيشية بلفظ سهل المأخذ ، لا يلفه غموض ، ولا تستبد به فلسفة تصوفية كما عند الخروبي وابن عبد السلام بناني ، وذلك هو غرض المؤلف كما صرح هو نفسه فى المقدمة عند ما قال :

« وما وجدت من كلامه رضي الله عنه لا تصل اليه عقول علماء الشريعة جعلت له سلما من الكلام يرقى به من ارض الشريعة الى سماء الحقيقة حتى يتبين ان شاء الله غاية البيان بعبارة وجيزة سهلة »

وقد يشير ابن حيون فى بعض الاحايين الى قضية نحوية تعين على الفهم من غير ما اسهاب او افتئات على المعنى ، لانه لا ينساق وراء الصناعة النحوية التى قد يشطح اصحابها بعقولهم ، فاستمع اليه عندما يحدثك بروح العالم الذى لا يهدف الا الى ابراز الحقائق :

« قوله وله تضاءلت الفهوم فلم يدركه منا سابق ولا لاحق الذى اقول به ان اللام فى قول الشيخ وله للتعليل والضمير المجرور به يعود على وصف به رسول الله صلى الله عليه وسلم من جميع ما سبق باعتبار ما ذكر ، وفي كلامه رضي الله عنه حذف مجرور متعلق بتضاءلت تقديره عن ادراك حقيقته » .

وكما يستعين بالنحو فى تحليله ، يستعين بالبلاغة ان اقتضت الضرورة ، وذلك حينما يتعرض الى الحديث عن قول المولى عبد السلام : « حياض الجبروت بفيض انواره متدفقة » فيقول بعد كلام : « فحياض فى كلام الشيخ استعارة ايضا واضافتها للجبروت بيانية واصل الكلام، والجبروت التى هي كالحياض وكذلك قوله رياض الملكوت اي الملكوت التي هي كالرياض فالرياض والحياض استعارة على حد قول الشاعر :

والريح تعبث وقد جرى
ذهب الاصيل على لجين الماء (2)

ولا يجتزيء ابن حيون فى شرحه بالتحليل فقط بل قد يدعم ذلك بآيات قرآنية كريمة ، واحاديث نبوية شريفة تضفي على كلامه روعة معذوذبة تتقبلها النفس في ارتياح ، وقد يستشهد ـ عندما يرى ذلك مناسبا ـ ببعض شعر البصيري وكلام ابن عباد وابن عطاء الله وهاك نموذجا واحدا عن ذلك :

« وتنزلت علوم آدم معطوف على قوله ارتقت ومعناه عندي ان الشيخ رضي الله عنه وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم بان علوم آدم منه عليه السلام » الى ان يقول « فعلم آدم الاسماء التى علمه الله اياها حين خلقه وهي التى اشار اليها سبحانه بقوله « وعلم آدم الاسماء كلها » .

واسلوب ابن حيون فى التحليل لطيف لا يحتاج الى كد الذهن فى استخراج خبيئه ، ويمتاز بوضوح الفكرة . عاطل من كل حلي ، لا يلتزم فيه صاحبه السجعات على عادة المؤلفين القدماء الا ما جاء عفو الخاطر من غير تصنع .

---

(1) فى الاصل « ما لم تتصل »

(2) صدر البيت حذفت منه كلمة ، ولعل ذلك راجع للناسخ ، والبيت هكذا :

والريح تعبث بالغصون وقد جرى ذهب الاصيل على لجين الماء

وقائله ابن خفاجة المتوفي سنة 533 هـ

شخصية ابن حيون فى الشرح :

يتجلى لنا من خلال مطالعتنا الشرح ان ابن حيون ليس من اولئك الذين يلقون الكلام على عواهنه او ينساقون الى الاطناب المخل ، او الاستطرادات المتعددة، بل ان كتابه يعطينا فكرة عامة عن شخصيته العلمية ، ومكانته الفكرية ، وليس ادل على ذلك من تلك الاعتراضات التى اعترض بها عن الامام الخروبي، ومخالفته له فى بعض شروحه للفقرات المشيشية ، ولكي نتأكد من هذا يجدر بنا ان نسوق مثالا واحدا من تلك الاعتراضات قال : « (وفيه ارتقت الحقائق) جوز الامام الخروبي رضي الله عنه فى لفظة الحقائق فى كلام الشيخ هنا احتمالين: الحقائق المقابلة للشرائع وحقائق الاشياء ، قلت والذى اراه ان الشيخ رضي الله عنه انما اراد بالحقائق حقائق جميع الموجودات ؛ لان الحقائق التى تطلق فى مقابلة الشرائع وهي ما يلقيه المولى فى قلوب اوليائه من العلوم الدينية التى لا تخالف شيئا من ظاهر الشريعة قد دخلت فى الاسرار » .

وباستعراض القاريء للكتاب **يمكن له ان** يستخرج منه نظرات خاصة للمؤلف ، **ومقارنات** شخصية تنم عن فهم جيد ووعي **ممتاز للقضية** التصوفية التى تبناها اقطابها من **المفكرين التصوفيين**.

والحق انني صرفت وقتا **معشوشبا جميلا فى** رياض التصوف ، تمتعت فيه **بالنفحات القدسية** ، واستشرفت آفاقا نقية ، واجواء بهية ، **ما اشد حاجة** النفس اليها فى ساعة من ساعات **العمر ، تخلد فيها** الى الراحة ، وتستريح من العناء ، **لتستغرق فى** جمال الملكوت لحظة اشراقية تتطلع فيها **الى الحقيقة** الازلية العظمى ناحية الزمان والمكان .

تطوان ــ محمد المنتصر الريسوني



فهرس العدد الرابع